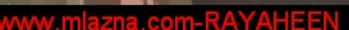
عناق عند جسرَ بُروكلين

رواية

عز الدين شكري فشير

دار العين للنشر



عناق عند
جسر بُروكلين

سألتقي بماريك. فيم كنت أفكر حين عرضت عليها اللقاء؟ كيف سألقاها؟ كيف سأنظر إليها، وكيف نتقابل؟ هل أحتضنها أم نسلم باليد كالغرباء، أم نقبل بعضنا على الخد كالأصدقاء؟ وماذا سنقول لبعض؟ سنتحدّث عن أسباب تواجدنا في نيويورك. سأقصّ عليها كيف وجدت منحة بإحدى المستشفيات هنا لمدة عام أوشك على الانتهاء، وستقول لي ما أتى بها. ستسألني عن أخبَاري في مصر، وأخبار سلمى، وسأسألها عن تطورات حياتها منذ رسالتها الأخيرة في العام الماضي؛ هل انتقلت لأمستردام مثلما كانت تُخطِّط، أم ظلّت في ليدن مثلما كانت تريد، ومصير بيتها الصغير. ثمّ نصمت، ونرتشف شيئًا من شرابنا، ربّما يقاطعنا النادل بسؤال. ثمّ نستأنف الصّمت. هل ستسألني عن حياتي العاطفية؟ هل أسألها عن هذا اليوناني الذي ذكرته في رسالتها؟ لا، لا أريد أن أسمع شيئًا عن يونانيها أو عن غيره. هل سنتطرّق للموضوع المعقّد؟ هل سنتحدّث عنا، عمّا جرى؟ لم نلتق وجهًا لوجه منذ كنا غارقين في الحب، منذ اتفقنا على أن تأتي في عيد الميلاد، وتقيم معي حتى نرتب أمورنا.

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي





عِناق عند جسر بُروكلين

روايـة

عز الدين شكري فشير

دار العين للنشر

عِناق عند جسر بُروكلين

(رواية)

عز الدين شكري فشير

الطبعةالأولى / ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م

دار العين للنشر
٩٧ كورنيش النيل، روض الفرج، القاهرة
تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠، فاكس:٢٤٥٨٠٩٥٥
WWW.elainpublishing.com

الغلاف : عمرو الكفراوي
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٦١١/ ٢٠١١
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 117 - 0

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

فشير، عز الدين شكري

عِناق عند جسر بُروكلين: رواية/ عز الدين شكري فشير.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١١

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ١١٧ ٠

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع/ ٢٠١١/٩٦١١

إلى أسماء

1

كتاب درويش

كلّ هذه السنوات مع مقعده الأثير، ولا يجد بعد جلسة تريحه. عيناه تؤلمانه. صفحات الكتاب تتماوج، وتتداخل كلماتها. قرّب درويش الساعة من عينيه، وضمّهما كي يرى: "الخامسة... أمامي ثلاث ساعات حتى يصل المدعوون". يوسف يصل في السابعة. ذكّره أن يأخذ المترو، فالطرق مزدحمة، ولو أتى بتاكسي كعادته سيتأخر. بدا على يوسف أنه تضايق من الملاحظة، لم يفهم لِمَ تضايق ابنه، فهو يحتاج وجوده بالبيت قبل المدعوين بساعة على الأقل. كان من المفروض أن يأتي في الصباح لمساعدة كيتي في الإعداد لعيد الميلاد، والإشراف على ما تفعله، ثم اتصل بالأمس، وقال إنه يريد أن يرى بعض زملائه القدامى بنيويورك، ومن

ثمّ سيتابع التحضيرات مع كيتي بالتليفون ويأتي في السابعة. يتابع معها بالتليفون! هذا لو تذكّر أن يشحن تليفونه! لا ضير إذن في تذكيره بأنّ يأتي بالمترو فهو يحتاج أن يراه قبل وصول المدعوين. باقي ثلاث ساعات على وصول المدعوين، ويبدو أن كيتي تقوم بعمل طيب. مرّ عليها بالدور الأرضي منذ ساعة، وتأكّد من سيطرتها على الأوضاع. خرجت بعدها لشراء بعض الأشياء. باقي ثلاث ساعات، وهو وقت لا يكفي للقيام بعمل ذي قيمة، كالكتابة. حاول تمضية الوقت في القراءة، لكن عينيه تؤلمانه. شعر بالحسرة على ضياع هذه الساعات هباء في حين لن يجد الوقت بعد ذلك لإنهاء ما يجب عليه فعله. لم لمَ يخترع أحد أداة لتحميل الوقت الزائد – مثل هذه الساعات الثلاثة – ثم تنزيلهم بعد ذلك حين يحتاج المرء الوقت ولا يجده؟

سيصل المدعوون البيت في الثامنة، ولن ينصرفوا قبل الحادية عشرة والنصف. المثير للسخرية في الأمر كلّه أن سلمى، ضيفة الشرف، لن تأتي! تأخرت هي الأخرى، ثم أخطأت القطار وفوتته، والآن ستأتي في منتصف الليل بعد انصراف الجميع. أيُّ أبناء هؤلاء؟ يسأل نفسه، للمرة الألف، أين أخطأ في تربيتهم. أم أنها الجينات؟ و لم يهتم لهذه الدرجة؟ لم يغتم لهذه الدرجة؟ إن كانت هذه طبيعتهم فلم لا يتركهم في حالهم؟ لمَاذا لا يتركهم يصبحون ما يريدون؛ قومًا يتأخرون على مواعيدهم، تفوتهم القطارات، ويعيشون في الفوضى؟ لم لا يتركهم في سعادة الجهل وراحة الفشل؟ لن يمكث يوسف طويلاً – سيغادر في الصباح، فلا داعي للتنكيد عليه بمسألة التأخير. دع الأمور تمر بسلام. ونفس الشيء بالنسبة لسلمى. هذه أيامها

الأخيرة بنيويورك ولن تراها ثانية، فدعها تحتفظ بذكرى طيبة. قال لنفسه هذا، وعزم. والآن ماذا يفعل بهذه الساعات الثلاث؟ عليه إنهاء مشروع الكتاب وتسليمه قبل نهاية الأسبوع، وهو مازال بحاجة لبعض التفكير، وكثير من الكتابة، ولكنّ عليه أيضًا فرز كتبه قبل أن يأتي الحمّالون. ففي نهاية الشهر، أيّ في أقل من أسبوعين، يجب أن يُخلي البيت.

وضع الكتاب جانبًا، وقرر التوقّف عن محاولة القراءة. خلع النظارة ووضعها على المنضدة. طلب منه الطبيب عدم معاندة عينيه، فالألم إشارة للتوقّف. عاد للتفكير. لماذا لم تأت سلمى في قطار الصباح؟ تلك الحمقاء الصغيرة؛ تعرف أنه رتّب هذه الحفلة من أجلها. سيصل المدعوون في الثامنة، وسيستغرق السلام والسؤال وغيره نصف ساعة. ثم تضع كيتي الطعام في الثامنة والنصف، وهو موعد مُتأخّر بالنسبة لأمعائه المتصلّبة. عادةً يكتفي ببعض الزبادي، لكن ليس من اللّطف ألّا يتعشّى مع ضيوفه. طبعًا لا، سيأكل معهم، ثم يبقى مستيقظًا حتى الواحدة صباحًا؛ كي يهضم الطعام. ويعني هذا أنه لن ينال ما يكفيه من النوم إلا لو نام حتى التاسعة صباحًا، وهو الأمر المستحيل، فلديه موعد في الثامنة والنصف مع المحامي. شعر بالحنق على نفسه: لم تورّط في هذه الدعوة أصلاً؟ ألم يكن من الممكن أن يدعوهم لغداء في نهاية الأسبوع بدلاً من ذلك؟ لكن كيتي لم تكن مُتاحة خلال نهاية الأسبوع، كما أن الحمقاء الصغيرة أرادت زيارة واشنطن قبل عودتها لمصر. لا بأس، حدث ماحدث؛ وسيستيقظ في السابعة، ويقضي اليوم ناقص نوم ومتوترًا. لا يُوجد حل آخر.

لن يستطيع القراءة أو الكتابة أو فعل أيّ شيء ذي معنى خلال هذه

السّاعات الثلاث. خطر بباله أن يفرز المكتبة القديمة. يمكنه قضاء هذه السّاعات في فرز الكتب حتى يظهر يوسف، ثم يجلس معه قليلاً، ويستمع لأخباره حتى يأتي الضيوف. سيفرز المكتبة القديمة. لو كان الأمر بيده لأخذ كلّ كتبه إلى الشاليه الذي سينتقل إليه، لكنّه أصغر من أن يستوعبها. يعرف أنه لن يحتاج أيّا منها، لكنّها كتبه القديمة، ولها في قلبه معزة خاصة. اتفق مع المكتب العقاري على إضافة عدد من الأرفف لجدران الشاليه، ولكنّ حتى مع الإضافات فلن يتسع الشاليه لكلّ هذه الكتب.

حسبوا له المساحة وعدد كتبه بالضبط، وأخبروه بضرورة التخلص من ثلاثة آلاف كتاب. فرز كتبه الجامعية الأسبوع الماضي؛ جمع منها ألفًا، ومنحها لاتحاد الطلبة؛ ليملؤوا بها رفوف صالون الدراسات العليا. لن يقرؤوا أيّا منها، لكن وضع بعض الكتب بالصالون أفضل من ترك الرفوف فارغة، أو ملئها بأوراق التصوير التي يخلفها الطلبة. عليه التخلّص من ألفي كتاب آخرين هذا الأسبوع. لا يستطيع منح أيّا منها للجامعة، أو لاتحاد الطلاب، أو لأيّ جهة في الولايات المتحدة كلها، فمعظمها كتب بالعربية، وقيمتها العلمية محدودة – لهذا وضعها في أكثر أماكن المكتبة خصوصية. هذه هي الكتب التي اشتراها وهو شاب، بعضها مقدمات ساذجة في المسرح والرسم والنحت لكتّاب مجهولين نقلوها عن كتب أجنبية، وطبعتها دور النشر التي كانت تمتلكها الدولة في الستينات، وبعضها كتب عامة في نقد المجتمع كتبها صحفيون لا فهم لديهم لا بالنقد ولا بالمجتمعات، وبعضها مجموعات من القصائد لشعراء اندثروا، وربما

لم يكن لهم جمهور أصلاً. اشترى معظم هذه الكتب وهو في المدرسة الثانوية وأولى سنوات الجامعة. هناك كتب أخرى اشتراها أثناء إعداد رسالة الدكتوراة وبداية عهده بالتدريس، أيام جامعة القاهرة. لكن قيمة كلّ هذه الكتب تتعلّق بدورها في حياته هو، وهو أمر لا يهم أحدًا غيره.

استغرب كلّ من يوسف وليلي قراره بيع البيت. سأله يوسف عن سر هذا القرار المفاجىء. ردّ – محاولاً تفادي السؤال – إنّها هديته لنفسه في عيد ميلاده السبعين. لكن يوسف تجاوز هذه الإجابة التي ليست بإجابة، وسأله عمّا إذا كان بصدد الانتقال لبيت للمسنين. فضحك نصف ضحكة، وقال له: "على جثتك" ثم غيّر الموضوع. اتصل بليلى في مصر كي يخبرها، فسألته بحدة إن كان يحتاج للمال. تفادى سؤالها، فهو لا يريد مناقشات تنغص عليه. قال إن ملّ من البيت. احتجت بأنّ هذا البيت هو المكان الوحيد الذي لهم به ذكريات مشتركة، فرد مرة أخرى إنه ملّ من البيت، ثم أدرك أنه يُكرّر ماقاله، فأضاف أن الذكريات سترحل معهم أينما ذهبوا. لم تُبد ليلى تعاطفًا ولو زائفًا، بل قالت بضيق إنها لا تحب ذلك القرار، وكانت تُفضّل لو ترك البيت على حاله، فسألها بحدة عمّا كانت ستفعل ببيت الذكريات هذا، وما إذا كانت تنوي أن تعيش فيه يومًا – هي التي لم تأت لزيارته منذ سنين.

ردت ليلى بشيء، وردّ عليها بشيء آخر، وتوجّهت المناقشة نحو مصيرها المحتوم: عدم تفاهم وغضب مكتوم من الجانبين. غيّر الموضوع، وغيرت الموضوع وأنهيا المكالمة بحديث عن لقاء قريب لا يعلم أيّهما متى سيتم ولا أين. يوسف، بعد أن سأل عدة أسئلة و لم يتلقّ إجابة واضحة من

أبيه، قرر أن يأتي لزيارةٍ أخيرة للبيت، وأيضًا ليرى سلمى ابنة أخته. "الآن تذكر أنها في نيويورك، بعد ثلاثة أسابيع من وصولها!" رحب درويش بالفكرة، لكن دون حماس حقيقي، فهو لا يعرف ماذا يفعل بابنه حين يأتي. يلوذ يوسف بالصمت معظم الوقت، ويردّ باقتضابٍ على أسئلته المتلاحقة حتى يستسلم الأب ويكف. ثم يحل الصمت بينهما. يقضي يوسف بقية الوقت في التنقّل بين أرجاء المنزل الواسع، يشاهد التليفزيون أحيانًا أو يعمل على كمبيوتره، حتى يحين موعد رحيله. كان يفعل هذا وهو في الثالثة من عمره – حين انفصل عن أمّه – ولايزال يفعل هذا بعد مرور أربعين عامًا على ذلك. سأله يوسف إن كان يريد شيئًا من مونتريال، فطلب أن يأتيه ببعض البيجيل؛ لم يعرف ماذا يمكن أن يطلب منه غير ذلك.

حاول إعطاءه كتبه القديمة. قال له في التليفون إن لديه ألفين من الكتب الزائدة، وسأله عرضًا إن كان يريدها. ضحك يوسف وشكره، ثم أبدى استعداده لتخزينها في بدروم منزله. وقف درويش يتأمّل رفوف المكتبة القديمة. أول مرة ينظر لهذه الكتب منذ سنوات. مرّ بجوارها مئات المرات ينظر إليها ولا يراها. صعب عليه أن ينظر لهذه الكتب ويقرّر التخلص منها، كأنه يلقي بأجزاء من نفسه. هذه هي الكتب التي ساهمت في تشكيله، في جعله من هو، أو بالأدقّ من كان وهو في ثلاثينياته، قبل أن يأتي للولايات المتحدة. تساءل فجأة إن كان قد تغير بعد ذلك؟ يعرف أنه تغير، لكنّه يتساءل إن كان قد راجع نفسه بعد هذه المرحلة من حياته، أم أنه قلب الصفحة دون مراجعة لما تغير فيه، ومضى قدمًا مثلما وضع

الكتب في مكتبة مخفية لا يراها حتى حين تقع عليها عيناه؟

واصل فرز الكُتب وهو يفكر؛ لماذا لم يشرح لأبنائه سبب بيعه للبيت؟ لماذا لم يقل لهم إنه يرتب أموره قبل الرحيل الأخير؟ "سرطان متقدم بالرئة"، هذا ماقاله فريق الأطباء. حين رفض العلاج الكيميائي أخبره الدكتور بصراحة أنه لن يعيش طويلاً بدونه، ربّما عامًا أو اثنين. رد عليه بأنّ عامين بدون علاج كيميائي خير من خمسة به. تبرّم الطبيب من عناده، وأوضح له أن نمط حياته الحالي لن يجعله يصمد عامين دون علاج كيميائي. قال إنه مستعد لتغيير نمط حياته، لكنه لن يقبل بالعلاج الكيميائي. شرح له طبيبه أن ذلك يعني اعتزال التدريس، والتوقف عن قراءة الصحف ومتابعة الأخبار، والانتقال للعيش في شمال الولاية حيث الهواء والماء والطعام أفضل وأكثر صحية. لن يتوقّف السرطان عن الاستشراء، لكن سرعة تغلغله في الرئتين ستقل. لم يأخذ الأمر من درويش كثير تفكير، فطيلة عمره وهو يحلُم بالسكن في منزلٍ صغير منعزل في الغابة، حيث الهواء النقي والخضرة والماء، والأهم من ذلك حيث يمكنه الانعزال عن البشر. وافق من حيث المبدأ، وبعد أسبوع اتصل به المكتب العقاري وأخبره أنه وجد ما يناسبه؛ شاليه يُطل على بحيرة متوسطة الحجم في المنطقة الجبلية الواقعة في شمال شرق ولاية نيويورك والمتاخمة لولاية فيرمونت، ليس بعيدًا عن مدينة سيراكيوز التي تضم مستشفى متقدمة يمكنه متابعة حالته بها. ذهب في زيارة سريعة للمكان. هناك، وجد أن الشاليه يطلّ مباشرة على البحيرة، وتحيطه أشجار باسقة وخضرة كثيفة من الجانبين بحيث لا يبدو منه أي بناء آخر على مدى البصر. اتخذ قراره وهو واقف أمام الشاليه ينظر لسطح البحيرة.

كان التوقيت سيئًا، فالفصل الدراسي على وشك البدء، ومن غير اللائق أن يترك التدريس فجأة هكذا، لكنّه فعل. فُوجىء رئيس القسم – الذي كان تلميذ درويش منذ خمسة وعشرين عامًا – بقراره، فلم يكن في سلوك أستاذه القديم ما يُوحي بنيته التقاعد. بل على العكس، كان منهمكًا في مشروعات تطوير القسم، ويقود فريق البحث الذي قاده عبر سنوات طويلة بنفس التصميم. لم يشرح السبب في رحيله مكتفيًا بالتصميم عوضًا عن التفسير. حاول رئيس القسم إثناءه لكن درويش لم يترك له مساحة للتفاوض. وهكذا، في خلال أيام معدودة، بعد ثلاث أو أربع مناقشات مع مسئولي الجامعة العريقة، أنهى الدكتور "درويش بشير" مسيرة نصف قرن من الحياة الأكاديمية المتميزة. في الأسابيع التالية صفى بقية ارتباطاته في نيويورك؛ وباع المنزل، وبدأ يُخطط لحياته الجديدة التي أوصاه الأطباء بأنّ تكون أبسط وأقل تعقيدًا.

لماذا لم يقل أي من هذا ليوسف أو ليلى؟ لماذا لم يقل هذا لزميله وتلميذه القديم؟ لماذا لم يقل هذا لأي من معارفه؟ لم يقل لأحد لأنّه لا يريد دراما. يكره الدراما، ويكره أكثر تحميل الضحية عبء التعاطف مع مصابه. ماذا يعني أن يقف أمامك شخص ما ليبدي الأسف على مصيرك؟ بم يفيدك هذا؟ وما المفروض أن تفعله أنت صاحب المأساة: أن تخفّف عنه أسفه؟ لا، شكرًا، لا يريد أيًا من هذا. لا يريد عرضًا لعواطف الناس الذين يعرفونه، صادقةً كانت أو ملتبسة. لا يريد إفساد أيامه الأخيرة؛ نصحه الأطباء بتفادي ما يُضايقه، وهذا التعاطف يضايقه. الحقيقة أنه لا يرى كارثة في دنو أجله بل على العكس، شعر براحة عندما أخبره الأطباء

بذلك، وظلّ يكبت الابتسامة التي تحاول احتلال وجهه حتى انصرف من عندهم. أراد له القدر أن ينتصر حتى النهاية، حتى على الموت. من المفروض أن يأتيك الموت بغتة، لكنّه الآن يعلم بمقدمه. تظاهر بالعبوس لأنّ هذا هو ما يجب فعله في تلك المواقف. لكنه شعر بخفة لم يعهدها، كأنّ عبئًا ثقيلاً حلّ من على كتفه.

يدرك أن رحيله لن يكون له أثر يُذكر. سيموت مثل من ماتوا، سيذكره من يحبونه بود، وسيذكره الآخرون مثلما تشاء لهم أهواؤهم. لا يعنيه من ذلك شيئًا. سيموت مثل كلّ البشر، ليس في هذا ما يفاجئه. درويش في السبعين، ويرى أنها نعمة أن يعرف كم تبقّى له من الوقت. فهي فرصة لترتيب أموره الأخيرة بيده، وكذلك لفعل ما نسيه أو تكاسل عنه. من الآن فصاعدًا لن يفعل شيئًا لا يحبه، لن يجامل أحدًا، ولن يتحمّل أحدًا، ولن يقضي وقتًا مع أناسٍ لا يحبها، ولن يلجأ لحلولٍ وسط أو يخطط لمستقبل بعيد. لم يعد هناك مستقبل بعيد. وسيقوم بكلّ الأمور التي أجّلها: الحياة في منزلٍ مُنعزل على بحيرةٍ في غابة أو جبل، قراءة الكتب التي لم يتح له الوقت لقراءتها، وكتابة الكتاب الذي أراد دومًا كتابته عن مستقبل العرب. عاش حياته يدرس تاريخ العرب ويحلُم بالكتابة عن مستقبلهم ولا يفعل تحسبًا. لم يعد هناك داع للتحسّب. وهاهو يعمل على مشروع الكتاب، وسيلتقي بالناشر في أول الأسبوع القادم للاتفاق معه على التفاصيل، ثم يبدأ الكتابة حين يستقر بالشاليه.

اتصل بليلى في القاهرة، وأرغمها على إرسال سلمى لقضاء شهرٍ معه. حاول في البداية دفعها هي للمجيء لزيارته لكنّها رفضت بشدة،

مثلما رفضت طيلة الأعوام الماضية. فشل في إقناعها بالمجيء، لكنه نجح في إرغامها على إرسال سلمى. جاء بالبنت كي يراها مرةً أخيرة قبل موته، وكي يخرجها من القُمقم الذي تحبسها فيه أمّها المعتوهة، يتيح الفرصة لها لترى الحياة بعيدًا عن الأغلال التي تُقيِّد العقل والروح في مصر. من يدري، رُبّما يغريها الأمر باستكمال دراستها والاستقرار هنا فيما بعد، والنجاة من المستقبل البائس الذي تعدّه لها أمها. وعندما قال يوسف أنه آتٍ للزيارة قرر ترتيب حفلة عيد الميلاد هذه، ودعى بعض الأصدقاء والمقرّبين. قرر دعوة كلّ من يمتّ له بصلة في أمريكا، كي يروا سلمى، وكي يراهم لمرة أخيرة قبل موته ويُرتّب معهم بعض الأمور العملية. يريد أن يمنح مالاً لبعضهم، وأنْ يساعد بعضهم في عمله، وأنّ يودّعهم، على الأقل من ناحيته هو. وفي الثامنة والنصف صباحًا سيرى محاميه، ويضع كلّ ذلك على الورق في وصيته، ويرتّب أمور الجنازة والدفن. وبعد ذلك ينتقل للشاليه، ويتفرّغ لكتابة كتابه الأخير.

كان يودّ الاحتفاظ بكيتي، لكن تعذّر ذلك. فرتّب المكتب العقاري له سيدة تعتني بالشاليه، وتعد الطعام، وتتولّى شراء ما يحتاج. ويمكنها أيضًا أن تقود السيارة حتى سيراكيوز، حين يصبح من الصعب عليه القيادة بنفسه. اشترى قاربًا صغيرًا: يحلُم بالجلوس والتأمل وسط سكون البحيرة دون حركة أو صوت، غير انكسار الأمواج الصغيرة على حافة القارب. ربّما تعلّم الصيد. اشترى شاشة التليفزيون والسمّاعات الضخمة التي رفض شراءها منذ سنوات لفُحش ثمنها، كما اشترى سيارة نصف نقل

تُناسب المناطق المحيطة بالشاليه. كلُّ شيء أصبح جاهزًا للانتقال، عليه فقط فرز الكتب.

حين وقعت عينه على كتاب تاريخ الشعوب العربية لألبرت حوراني لم يتعرف عليه. ظلّ ينظر له للحظات غير متذكّر من أين أتى، أو ماذا كان موضوعه. وفي لحظة واحدة شعر وكأنّه ارتد أربعين عامًا للوراء، وحضرت أمامه جين وريما وزينب وكأنهنّ واقفات معه ببيوت ثلاثة في أزمنة ثلاث، ثم ارتجّ عليه الأمر كلّه، وبدأ يشعر بدوار سريع. مدّ يده يمسك بالمكتبة تاركًا الكتاب يهوي إلى الأرض، لكن الدوّار لم يتوقف. يعرف هذا الدوار جيدًا، لن يتوقف الآن. حاول الجلوس شيئًا فشيئًا على الأرض، لكن الدوار كان أقوى منه. فقد توازنه، حاول التشبّث بالمكتبة وهو يسقط على السجادة الصوف الممتدة على خشب الأرضية. انتظر لحظة وهو ممدّد على السجادة، ثم بدأ يُحرّك أطرافه. كلّ شيء يبدو في مكانه: لم يتحطّم شيء منه بعد. زحف ببطء نحو المكتبة، واستند بظهره إليها، وظلّ جالسًا يلتقط أنفاسه. جال بخاطره أنه أحسن صنعًا حين أصرّ أن تكون الأرضية من الخشب؛ فلو وافق زينب، ووضع سيراميك بدلاً منه لكانت عظامه قد تهشّمت. يأتيه هذا الدوار كثيرًا، و لم يفلح طبيب واحد في علاجه. قالوا له إن ضغط دمه ينخفض فجأةً لكنهم لا يعرفون لماذا! ما فائدة الطب الذي يشرح لك دائمًا مرضك دون أن يفلح في علاجه!

استقرّ على السجادة. جال بنظره في غرفة المكتبة ورفوفها الخشبية البنية اللون المحكمة الأناقة. ستارة بيضاء رقيقة تنسدل أمام النافذة

العريضة وشجر الشارع يبدو من خلفها. لا صوت يصل للغرفة بفضل ازدواج زجاج النافذة. السقف به عروق خشبية من نفس لون المكتبة. لا أثر لحبة تراب واحدة على أى من الكتب. "أحسنت يا كيتي!" نظر للكتاب الملقى على الأرض بالقرب منه. من أين طلع هذا الكتاب بعد كلّ تلك السنوات؟ كيف كان هنا طول الوقت و لم ألحظه؟ خفّت الدوخة شيئًا فشيئًا، فتحرّك على أربع حتى وصل للكتاب، وأمسك به، وعاد ثانية يستند بظهره للمكتبة. قلّب في صفحات كتاب حوراني وهو يبتسم. "كيف نسيت هذا الكتاب؟ هذا الذي كان أهمّ شيء في حياتي في وقت من الأوقات؟" اشتراه من لندن، ليس رغبةً منه في تعلم تاريخ العرب، فهذا هو تخصّصه، وإنّما كهدية لصديقته البريطانية جين. فهو سهل القراءة، ويمكن أن يكون مدخلاً جيدًا لمن لا يعرف تاريخ العرب، ويرغب في تعلم الكثير من خلال كتاب واحد. يبدأ الكاتب بنبذة عن ظهور الإسلام وتعاليمه، ثم يشرح تاريخ انتشاره خارج الجزيرة العربية، ويغطّي المراحل المختلفة للمجتمعات والسياسة العربية وصولاً إلى العصر الحديث، وكلّ ذلك في بضع مئات من الصفحات. أهداه لها ممازحًا بأنّها ستجد فيه الحلّ الشافي لجهلها المطبق.

التقى بجين في القاهرة وليس في لندن رغم أنه قضى خمس سنوات لإعداد درجة الدكتوراة هناك، وكانا يجدان في ذلك الأمر مثارًا للدعابة مع أصدقائهم القليلين. جين جميلة ورقيقة، طويلة، شعرها الكستنائي مُنسدل على كتفيها ما لم تجمعه وتربطه بما تقع عليه يدها – في الأغلب قلم رصاص– وطيبة الخلق. جاءت إلى القاهرة في منحة تدريبية لمدة عام

لتعلم اللغة العربية فازت بها في مسابقة ما، ثم أحبّت المدينة وفوضاها فاستقرت بها. تعارفا وتقاربا حتى صارت شبه مقيمة معه بشقّته بالجيزة خلف حديقة الحيوان. راودته فكرة الزواج منها منذ بداية تعارفهما؛ فجين تجمع كثير من المواصفات التي يبحث عنها. سافر معها لبريطانيا وزارا والديها المقيمين في إحدى ضواحي جلاسجو، سارا سويًا في البرية عند النهر الذي كانت تلعب حوله وهي صبية، ونظرا للمراعي الممتدّة إلى ما يبدو وكأنّه لانهاية. أخذته لبار الضاحية حيث كان الشباب الصاخب يعاكسها وهي مراهقة، والتقيا بجيرانها الذين أتوا "لمشاهدة المصري الذي أحضرته جين". في كلّ ذلك كان يشعر أنها المرأة التي بحث عنها طيلة حياته. لكن شيئًا فيها كان يُثير قلقه، ومن ثم لم يُعرفها على ليلى أو يوسف حتى يحسم أمر علاقتهما.

جين طيبة ومستقيمة الخلق، لكن علاقتها بمصر مرتبكة. شرحت له في لقائهما الأول كيف أحبّت طيبة المصريين، وحرارة العلاقات الإنسانية بينهم، ووجدت فيهم ماكانت تفتقده طيلة حياتها في بريطانيا. ضحك في أعماقه؛ فهو شخصيًا يحب برودة الإنجليز وتباعدهم، ويجد في احترامهم لخصوصية بعضهم البعض ما يفتقده في حياته بمصر. وجدا نفسيهما في وضع معكوس: هو ينتقد الناس والحياة في مصر وهي تدافع؛ "نعم هذه تكذّب، من الناحية القانونية تكذب، لكنّها ليست كذبة حقيقية"، و"هذا ليس ضعفًا، بل تعقُّل"، "لا، هذا السلوك ليس محاباة، بل نوع من العرفان"، و"قطعًا ليس هذا سلوكًا طبقيًا، لكن اختلاف في رؤية الأدوار والمسئوليات". لم يتقبّل أيًا من تفسيراتها، لم يتقبّل أبدًا أن تكون للحياة في

العالم العربي قواعد مختلفة. العرب ليسوا طائفة شاذّة من البشر، وقواعد الأخلاق العامةِ تنطبق عليهم مثل غيرهم. أما القول بغير ذلك فهو نوع من التعالي المتنكّر في شكل تعاطف.

أنْ تقبل الكذب من العرب وترفضه من غيرهم معناه أنّك ترى فيهم نقيصة أساسية تُبيح لهم ما يُحرَّم على الناس الطبيعية، كأنّهم يحملون شهادة جنون. قال لها ذلك، مرارًا، وأصبح تعاطفها مع نقائص الناس في مصر وأخطائهم يستفزّه. طلب منها أن تقرأ تاريخ هؤلاء الناس كي تفهم أنهم ككافة البشر، وأنّ تعرف كيف وصل الحال بهم لما هم عليه، وكي تتأكّد بنفسها أن الحل ليس في تشجيعهم على التخلف، بل العكسِ محاسبتهم كناضجين ومسئولين؛ كي لا يستسهلوا ويستسيغوا هذا التخلّف. قالت إنها لا تجد الوقت للتبحّر في التاريخ مثله، ومن هنا جاء ألبرت حوراني. أعطاها الكتاب وأبدت سعادتها به. قرأت فيه ثم تركته سريعًا، وقالت إنه ممل، وإنّها تفضل التعلّم من خلال مخالطة الناس.

لكنّها لم تتعلّم من خلال مخالطة الناس، بل تمادت أكثر فيما كان يراه تقمصًا لدور السائحة البلهاء. قالت له إن المشكلة تكمن في تفكيره الذي يحول بينه وبين فهم التعقيدات المصرية. فاحتجّ بأنّه هو ابن البلد، ولكنّه يميز بين التعقيدات وبين سوء الأخلاق، وأنّ الناس في مصر يحتاجون لإعادة تربية، ربّما بسبب الجهل أو الفقر أو سوء التعليم، ولكنّ المحصلة واحدة وهي وجود تدهور عام في الأخلاق. قالت له إنه ضحية تعليمه الغربي، وإن السذاجة الأنجلوساكسونية التي تقمّصها هي التي تفترض خطأً إمكانية إصلاح سلوك الناس بقوّة الحجة ومناشدة الضمير، وذلك ما

يجعله يصطدم بالناس طيلة الوقت، لأنّه يعظ ولا يتفهّم.

ضحك وسألها ساخرًا إن كانت هذه تهمًا أم مزايا. احمرّ وجهها من سخريته، وضربت له مثلاً بموظف الجوازات الذي ظلّ يماطل في إنهاء أوراق تأشيرتها حتى غمزته هي بخمسين جنيهًا. احتجّ وقتها، وصمّم أن هذه الرشوة الصغيرة مُساهَمة في الفساد الكلي، وعندما حاولت تذكيره بتعقيدات الظروف – الموظّف الذي يتقاضى مرتبًا رمزيًا تعرف الدولة أنه لن يكفيه، وتفترض أنه "يكمل عليه" من أصحاب المصالح وغير ذلك– رفض هذه التفسيرات باعتبارها حججًا. سألته كيف يُميِّز بين الصواب والخطأ في حالةِ مثل هذه؟ فابتسم ابتسامة المطمئنّ، وربت على كتفها قائلاً إن هذا أوضح مثال على فساد منطقها، فالصواب والخطأ بينان، لا يخلط بينهما إلا شخص تعود على سوء الأخلاق. ردّت بأنّ مايصفه بسوء أخلاق المصريين ما هو إلا نمط آخر من الأخلاق له جماله الخاص. تستفزّه هذه النغمة؛ تُشعره بأنّه مقترن بمعتوهة لا ينقصها إلا أن ترتدي الهلاهيل وتجري خلف أحد المجاذيب. اتهمها بأنها تُعوّض فشلها في التأقلم مع الحياة في بريطانيا بتقمّص هذا الدور الذي يجعلها تشعر بالتفوق، وأنّها ضحية أساطير غموض الشرق، فقالت إنه هو المفتون بأساطير النظام في الغرب. نظر إليها ساعتها في يأسٍ شبه كامل، ثم تعلّل بالمحاضرة التي عليه اللّحاق بها، ومضى.

سارت حياتهما بعد تلك المناقشة في هدوئها المعتاد: هو يدرّس بجامعة القاهرة على بعد خطوتين من المنزل، وهي تعمل بشكلٍ دائم في مشروعاتٍ شتّى مع منظّماتٍ اجتماعيةٍ شتّى، من مساعدة الزبالين إلى رعاية

أطفال الشوارع في وسط البلد. لكن الخلاف بينهما حدَّ من علاقاتهما الاجتماعية، وقلّلت طريقة تفكيرها من رغبته في مشاركتها مشاكله سواء تلك المتعلّقة بالعمل، أم بعلاقته المتوترة بطفليه وأمهم، وهي المسألة التي كانت قد بدأت تأخذ حيزًا متزايدًا من حياته. فكلّ فكرة كانت تستدعي شروحًا ومناقشات وخلافات لا يمكن جسرها. اعترف لها يومًا أنه يجد صعوبة في التعامل مع الطفلين. فيوسف عنيد ولا يستجيب لتوجيهاته؛ يتجاهل ما يقوله له أو يتظاهر بأنّه لا يفهم. أما ليلى فتلجأ للدفاع عن نفسها، وعن أمها كلّما وجّه لها أبسط ملاحظة، بما يجعلها دائمة التحفّز بل وعدائية أحيانًا. سألته جين لم يوجه لهما كلّ هذه الملاحظات، فرد بأنّ سلوكهما العام لايليق بهما، وهو لا يستطيع تقويم الأم مصدر هذه السلوكيات، ومن ثمّ يحاول استغلال الوقت الذي يقضيه مع الطفلين في تقويمهما. اقترحت جين عليه أن يتعلّم قبولهما كما هما بدلاً من محاولة تقويمهما. حاول شرح اعتراضاته فلم تفهم، وظلّت تُردّد ماقالته حتى سكتُ تفاديًا لمزيدٍ من الخلاف، وصار يتجنّب إثارة هذا الموضوع. ثم بدأ يتفادى مناقشة الموضوعات الأخرى، وأخذت دائرة الموضوعات التي يتفادى الخوض فيها تتّسع حتى شملت كلّ شيء، وانتهى الأمر بهما لصمتٍ مطبق. لم تطل الحياة بينهما بعد ذلك كثيرًا. ابتسم وهو يتذكّر كلّ ذلك، ويمسح التراب عن غلاف الكتاب الأبيض؛ "هل يمكن أن ألقي بهذا الكتاب إلى العدم؟ هذا الكتاب الذي كان علامة النجاح والفشل لنسائي، أينتهي به الأمر إلى القمامة أو على أفضل الفروض إلى إعادة التدوير؟ أخذ يتخيّل صفحات الكتاب وهي تغرق في محلول يُزيل كلماتها شيئًا فشيئًا

حتى تغدو مجرد صفحات بيضاء طافية. أهكذا ينتهي الأمر بالكتاب؟ ماذا ستقول جين لو عرفت بمصير الكتاب: أستقول إنها كانت على حق حين رفضت قراءته؟

ربما قرأت الكتاب. كانت جالسة في غرفة المكتب بشقّته الجديدة بالمعادي حين مدت يدها وسحبت الكتاب من على أحد الأرفف. نظرت إليه وصاحت جذلة بأنّ هذا بالضبط هو ماكانت تبحث عنه. حدّق فيها مُستغربًا فأسرّت له وهي تتلعثم لأيّ مدى تجهل تاريخ المنطقة، رغم أن حياتها وحياة عائلتها شكّلها هذا التاريخ. أضافت، وكأنّها تزيح من على صدرها عبئًا باعترافها - أنها تجهل حتى الأشياء الأساسية، كالفارق بين الخلافة الأموية والعثمانية. تملكته الدهشة، ونظر إليها مُحاولاً إخفاء صدمته بابتسامة مغتصبة. سأل نفسه إن كان به خلل نفسي ما يجعله ينجذب للجاهلات دون وعي منه. لكن ربما أستاذة في القانون الدولي لا عارضة أزياء! لم يقابلها في بار، بل في مؤتمر علمي قدمت فيه بحثًا عن التحكيم الدولي. كيف حصلت على درجاتها العلمية؟ ولماذا أخذت هذا الطريق مادام لا يُثير اهتمامها؟ ظلّ بعد ذلك بفترة طويلة يفكّر في معنى هذا، وما إذا كان مؤشرًا على مشاكل أكبر في شخصيتها. فكّر في الافتراق عنها قبل أن تتطوّر الأمور بينهما، لكنّ الأمور كانت قد تطورت بالفعل؛ وتركت ربما مركز البحوث الذي تعمل به ببيروت، وانتقلت للقاهرة كي تكون معه، ومن ثم كان يجب عليه المحاولة على الأقل. اقترح عليها قراءة كتاب حوراني كبداية لعملية إعادة تأهيلها التي أخذ على عاتقه متابعتها. قال لنفسه إنه مادام يستطيع تعليم المئات من الطلبة الجهلة الذين يردون

عليه كلّ عام، فلابد وأنّه قادر على تعليم امرأة تحبّه، خاصة وأنّها هي التي أبدت إعجابها بالكتاب، وأعلنت رغبتها التخلّص من جهلها.

لم يرد تكرار قصة جين وفرض الكتاب عليها، فسألها مباشرة إن كانت تريد مساعدة في "سد هذه الثغرة" في تعليمها، فرّحبت وشكرته. أعطاها الكتاب وبعدها بشهر سألها عن رأيها فيه، فأبدت إعجابها الشديد به مستشهدة ببعض أجزائه. لكنّه حين ناقشها بعد ذلك بأسابيع في موضوعات ذات صلة بالكتاب اكتشف أنها لم تقرأ منه سوى شذرات، وكانت تقفز فصولاً بأكملها وتدّعي أنها قرأتها. صدم. سألها لم تفعل ذلك؟ فأجابت في انكسار أنها خشيت على مكانتها في عينيه إن اكتشف كم وجدت الكتاب صعبًا على الفهم. صُدم أكثر؛ كيف تجده صعبًا وهو من أيسر الكتب؟ ثم كيف تقدم على الكذب في أمر كهذا؟ والأسوأ من كلّ ذلك هو كيف تخاف منه لهذه الدرجة المهينة؟ وإن كان هذا حالها فَلِم تقبل أن تعيش معه وهي تشعر بالضآلة؟ أيّ نوع من النساء هي لترتضي لنفسها هذه الحياة؟!

لكن ربما لم تكن بالخنوع الذي ظنّه؛ كانت عاشقة ومستعدّة للتضحية بأيّ شيء من أجل البقاء معه. وعندما فهمت أنها قد خسرت تقديره الفكري لها لجأت لشيء آخر لاستبقائه. كلّ من يعرف درويش يدرك سريعًا أن علاقته بطفليه هي نقطة ضعفه، فهو يفتقد الحياة معهما منذ انفصاله عن أمهما، ويشعر بالحنق على أمهما لأسلوب تربيتها لهما. حاول جعلهما يقضيان شهور الصيف معه؛ لكن الأم كانت تجد وسيلة ما لعرقلة ذلك، وشيئًا فشيئًا بدءا في الإعراض عن الإقامة معه، إمّا تَعَوُّدًا

على الحياة مع الأم، أو تجنبًا للتنقل الدائم بما يجره عليهم من عدم استقرار نفسي وعائلي، وأسئلة من قبل أصدقائهم، أو تأثرًا بما يسمعونه. وحين يأتيان لزيارته أو لقضاء بعض الوقت معه يسود التوتر علاقتهم. يوسف، الغارق في عالمه الخاص، بادي العداء. وإن لم يُوجّه عداءه له مباشرة فهو يصبه على كلّ ما حوله. لا الطعام يعجبه ولا الشراب، ولا الخروج ولا الدخول، ولا النوم ولا اليقظة. دائم الشكوى وسريع الغضب والانزواء، ويجد دائمًا سببًا لإفساد أيّ بهجة تجمعهم هم الثلاثة. أما ليلى فقد تحوّلت من الدفاع إلى الهجوم، بسيل من الاستجوابات حول فشله وأمّها في الحفاظ على الأسرة التي خلقاها سويًا. كانا غاضبين، كل بطريقته. حاول تفكيك غضبهما فلم يستطع: يوسف مغلق بالضبة والمفتاح، لا يرسل شيئًا، ولا يبدو أنه يستقبل شيئًا. وليلى تقول أشياء كثيرة لكنّه لا يعرف ما إذا كانت تعني ما تقول، وما إذا كانت تُدرك حقيقة مشاعرها. رغم ذلك واصل المحاولة، وقال أشياء كثيرة على أمل أن ينفذ بعضها لهما كي يشعران لأى حد يحبهما. لكنّه لم يعرف ما ينفذ إلى نفسيهما. وشيئًا فشيئًا استقرّ بينهم هم الثلاثة روتين يقوم على حب جارف ومُحبط من ناحيته، وغضب ممزوج بالحب من ناحيتهما، وألم شديد للثلاثة اتفقوا ضمنيًا على تحميله مسئوليته.

فهمت ريما هذه المعادلة المعقّدة بسرعة، وعملت على استغلالها للتمترس في حياة درويش. دبّرت أمرها بحيث وجد نفسه مضطرًا لتقديمها ليوسف وليلى. وبخبرتها النسائية نجحت في التسلّل لقلب البنت المغلق والرافض لارتباط أبيها بأية امرأة. كانت ليلى قد بلغت الخامسة عشرة، ورأت ريما

على الفور كيف يمكن النفاذ لها؛ أخذتها لبيروت في رحلة حريمي بعد أن انتزعت موافقة درويش بمزيج من توسّل ليلى والطمأنة من جانبها. وهناك بهرتها بإمكانيات الجمال والأنوثة، وأرتها عالمًا أسر قلبها المراهق. ظلت ليلى مبهورة حتى بعد عودتها وهي تريه الصور. لم تكن هذه الرحلة سوى عيّنة مما يمكن أن تفعله ربما لها، كما أفهمتها. ليلى رأت فيما فعلته ربما علامة على إمكانية دخولها لعالم الجميلات الذي طالما اعتقدت أنه مُخصّص لغيرها من البنات، العالم الذي لاتستطيع أمها مساعدتها على دخوله. وبهدوء نقلتها البنت من خانة الأعداء لخانة الحلفاء.

بعد التحالف مع ليلى، مدت ربما نفوذها لبقية مناطق حياته، بدءًا بيوسف وانتهاءً بملابسه هو وحياته اليومية. شيئًا فشيئًا أعادت تشكيل العالم الذي يعيش فيه، واستراح لهذا، فطالما أراد امرأةً تتولّى ترتيب حياته المشعثة. وكانت ربما بارعة في ذلك. لكنّه ظلّ غير مرتاح لجهلها، ليس فقط بتاريخ العرب، فقصتها مع كتاب حوراني كانت إشارة لجهلٍ أوسع وأشمل. لكنّه حاول التغاضي عن ذلك والحفاظ على علاقتهما، وظل يفكر جديًا في الزواج منها. وتفاديًا لاصطدامه بجهلها عمل على إبقاء أحاديثهما في إطار الأمور العملية فقط – من سيذهب؟ أين، ومتى؟ وأي فيلم يشاهدون؟ وماذا يأكلون؟ وأين يقضون العطلات؟ ومن من الأصدقاء يدعى لأي مناسبة؟ وكيف تحل مشكلة يوسف مع المدرسة أو ليلى مع صديقاتها؟ وغير ذلك من الموضوعات الحياتية. وكلّما تطرقت ربما لأمرٍ يتعلق ببحوثه الجامعية أو بأمرٍ عام أنهى الحديث بسرعة. سارت الأمور بينهما بهدوء، لكنها كانت تدرك عواقب عدم مشاركتها له عالمه

الأثير وتحاول من وقتٍ لآخر الدخول في هذا العالم، وكلّما فعلت كلّما اتضح جهلها أكثر، وازداد ضيقه أكثر، فتجزع هي أكثر، وتسعى لمواجهة الخطر بزيادة تغلغلها في حياته وفتح الباب الموصّد أمامها، مما يدفعه لمزيدٍ من الضيق بها، وهكذا حتى وصلا للنهاية المحتومة.

ظهره يؤلمه. هل تأذّى من هذه السقطة البسيطة؟ تؤلمه جلسته على الأرض. الأرضية الخشبية ليست مُريحة بالقدر الذي ظنّه. هذه أول مرة يجلس فعليًا على الأرضية رغم كلّ الخلاف بينه وبين زينب حولها. ماذا كانت أهمية الخشب إذًا؟ الساعة تقترب من السادسة، ولم يفرز ما يكفي من الكتب. شعر مرةً أخرى بالفشل في استغلال الوقت بشكلٍ أمثل، لكنّه عزّى نفسه بأنّه سيحظى بوقتٍ كافٍ حين ينتقل للشاليه. يجب أن يضع هذا الكتاب المشئوم وذكرياته جانبًا، ويعود لفرز الكتب. بوسعه فرز عدة مئات من الكتب خلال الساعة المتبقية على وصول يوسف. هل يعطي يوسف هذا الكتاب؟ هو لا يحبّ القراءة، لم يحبّها في يومٍ من الأيام، وربما عمل في منظمات الإغاثة الدولية كي يتفادى القراءة، فتوزيع أجولة الطحين لا يحتاج لقراءة كثيرة ولا شك! لكن لو طلب منه الاحتفاظ بهذا الكتاب فسيفعل. لكُن ماذا سيفعل يوسف بالكتاب؟ يعطيه لزوجة المستقبل أم لصديقاته كي يقرأنه؟ وأين هي هذه الزوجة وهؤلاء الصديقات؟ لماذا لم يقابل أيًا منهنّ أو يسمع عنهنّ؟ هل أفقده الأمل في النساء لهذه الدرجة أم أنه يُحمّل نفسه ذنبًا لا مبرر له؟ ربّما هو صمته الذي يدفعهنّ عنه. ربّما كراهيته للقراءة؛ من يدري، ربّما يقع في غرام نساء يعطينه ألبرت حوراني كي يقرأه ولا يستطيع فيتركنه. أمسك

بالكتاب بين يديه يقلبه: "ماذا أفعل بهذا الكتاب؟ ولماذا لا أستطيع أن أحمل نفسي على التخلّص منه؟"

زينب قرأته، أو على الأقل بدأت في ذلك، وظلّت تقرأ فيه لسنوات طويلة بإمعان ودقة ولكنّ ببطء لا يصدق، ولم تنته منه حتى وفاتها. فهم درويش منذ نهاية العام الأول أنها لن تُنهيه أبدًا، وبدأ عملية اليأس منها. ماتت المسكينة قبل أن تنتهي من حكم المماليك. ما الذي يجعله يبتسم الآن وهو يتذكر ذلك؟! يسأل نفسه ولا يجد إجابة. الحقيقة أنه لا يفهم الكثير من ردود أفعاله الخاصة بزينب، بما فيها زواجهما. لماذا تزوجها رغم اختلافها البين عن النموذج الذي كان في ذهنه للمرأة التي يريد الاقتران بها؟ لا يعرف، رغم كلّ هذه السنوات، ولم يفهم أحد سر زواجهما؛ لا ليلى ولا يوسف ولا أصدقاءه ولا أقرباءه أو زملاءه، بل ولا زينب نفسها.

التقى بها في المستشفى الذي تعمل به حيث كانت أمّه تخضع للعلاج. لطيفة ورقيقة وجذابة وذكية؛ لكنّها تعتذر طيلة الوقت وتصمت إن حدّثها أحد. حاول التحدث معها عدة مرات، لكنّها كانت قليلة الكلام، وكلّما سعى لإطالة الحديث معها كلّما احتمت هي بالصمت. قالت له بعد ذلك إنها كانت تلوم نفسها فور مغادرته مكتبها على هذا الصّمت، وتظلّ تفكّر في كلّ الأشياء التي كان يتعين عليها قولها وصمتت عنها، وتقسم أن تقول هذه الأشياء في المرة التالية، لكنّها لا تفعل. وظلّا هكذا حتى غادرت أمّه المستشفى. لكن بعد عدة شهور أصبحت الأم عاجزة عن الحركة، فاتصل برئيس القسم، وطلب منه إرسال أحد شباب الأطباء

لرؤيتها بالبيت، واقترح زينب، وهكذا أصبحا يتقابلان في بيته عندما تأتي لزيارة أمّه مرة كلّ أسبوع، ثم تطورت الأمور بينهما بسرعة.

كان يشعر بانجذاب شديد لها، لكنّه أيضًا يعي أن عشرين عامًا يفصلون بينهما، وعشرين شيئًا آخر. حين تطورت العلاقة بينهما بعد ذلك ظلّ يُشير لفارق السنّ بينهما، وهي تتندّر عليه قائلة إنه سيمشي في جنازتها. لكنّ السن لم يكن الفارق الوحيد بينهما: فهو سريع وهي بطيئة، هو شديد التركيز وهي تائهة، هو حادّ الطباع وهي حساسة، هو طموح ومصمم وهي حالمة ومتشائمة، هو شديد الاهتمام بالأمور الفكرية وهي لا، هو شديد الكبرياء لدرجة الغرور وهي شديدة التواضع لدرجة التهاون، هو حريص على حماية صورته أمام الناس وهي مستسلمة لاستهانة الناس بها، هو يكره الناس لكنه يجبر نفسه على الانخراط معهم وهي تحب الناس لكنّها تنأى عنهم، هو مناور وهي صريحة، هو يلمع وهي هادئة، هو خبير بالحياة وهي مبتدئة. لم يكن متأكدًا أن علاقتهما يمكن أن تدوم، أو أن ارتباطهما فكرة سديدة، لكنّه وجد نفسه منجذبًا إليها بشكلٍ لا يقاوم.

ذات يوم قرر أن يسير خلف مشاعره. كان مريضًا ونائمًا بتأثير الحمّى والدواء، وعندما أفاق وجدها جالسةً بجواره تمسح على وجهه بمنديل مبلل. أمسك بيدها وقبّلها. تحسّست شعره، ثم قبلته بحنان على يده، وسألته مباشرة إن كان يحبّها. ابتسم وقال يبدو هذا. ابتسمت قائلة إنها تحبه منذ رأته، وإنّها لا تعرف كيف ستعيش بعد أن يتركها. سألها لم تفترض أنه سيتركها فأجابت بأنّها ليست عبيطة، وأنّها تعلم أنها ليست جيدة بما يكفيه، وأنّه تاركها لا محالة. ابتسم وقال لها إن ذلك سيكون

من حسن طالعها، فهو شخصية مُتعبة – مفتري قليلاً ومجنون شويتين. صمتت، وقالت ببطء وتصميم إنها تعلم ذلك، لكنّه لا يخيفها. مال عليها، وسألها إن كانت تقبل الزواج به، فطبعت على شفتيه قُبلة طويلة ودافئة، وقالت "نعم".

ما الذي جعله يتزوجها؟ جاءه هذا السؤال من ليلى مصحوبًا بغضب، ومن يوسف مصحوبًا بتشكّك، ومن بقية الأصدقاء والمعارف مشوبًا بالتعجب. وقد أسعفته حنكته بإجابات شتّى لكل منهم، وأعطى زينب كلّ هذه الإجابات معًا كلّما سألته، وكانت تسأله كثيرًا وكأنّها تختبر صدق إجاباته، لكنّه لم يجد إجابة تُقنعه هو نفسه. تزوجا، وبعد وقت قليل جاءه عرض من جامعة نيويورك للعمل بها. كانت سمعته قد بدأت في التوطّد كمؤرّخ جاد، ونشر عدّة أبحاث في دوريات علمية مرموقة. جاءه هذا العرض فلم يتردّد كثيرًا.

كان قد مرّ على عودته لمصر من لندن سبع سنوات ترسّخت خلالهم قناعته بألّا فائدة في البقاء بهذا البلد. عاد من بريطانيا بعد الدكتوراة لأنّه شعر بمسئولية إزاء أهله ووطنه، لكن سبع سنوات من التدريس لطلبة جهلاء لا يفقهون ولا رغبة لديهم في التعلّم جعلته يغيّر رأيه. سبع سنوات من الفشل في تطوير التعليم بالقسم، رغم الوعود ورغم التمويل ورغم التصريحات، أقنعته ألاّ فائدة. سبع سنوات من النقاش العقيم مع زملاء أساتذة وكتاب فقدوا المنطق و لم يعودوا قادرين على وصل الأسباب بالنتائج أقنعته بضرورة الرحيل. سبع سنوات من التعامل مع مجتمع أدمن مشاكله ووضعه كضحية وصار يُعادي من يحاول لفت النظر لضرورة

الخروج من هذا الوضع أقنعته بأنّ هذه أمة في سبيلها للغرق ولن ينقذها شيء أو أحد. ومن ثمّ قرر النجاة بنفسه. زينب وافقت على الرحيل من مصر التي قالت إن الحياة فيها خانقة للنساء. أما ليلى فقد رفضت البعد عن أصدقائها وقرّرت البقاء مع أمها، ودفعت يوسف بالتبعية للبقاء.

رحل درويش مع زينب تاركًا الطفلين وهو عازم على استمالتهما للانتقال معه لاحقًا. ناسبته الحياة في نيويورك وكأنّها خُلقت على مقاسه. ووجد في الجامعة المناخ الذي طالما تاق له. استقرّ بها وازدهر عمله وتألّق. أما زينب فوجدت الحياة في نيويورك قاسية. في البداية تعين عليها اجتياز اختبارات شتّى لمعادلة شهاداتها الطبية، رغم أنها كانت تمارس الطب فعليًا في إحدى كبرى مستشفيات مصر. وأخذت هذه الاختبارات الكثير من وقتها وطاقتها التي تحتاجها للتأقلم مع بقية جوانب الحياة الجديدة. وأثر ذلك سلبيًا على حالتها النفسية وقدرتها على مواجهة مسئوليات البيت والزواج. لم يعجبه ذلك، لم يعجبه البتة. وعبّر عن امتعاضه بوضوح. لم تجد زينب الوقت الكافي للعناية به، أو بالمنزل العتيق الأنيق الذي اشتراه في الناحية الغربية للمدينة وكان فخورًا به. فشلت في الوفاء بوعودها الخاصة بالعناية بالديكور والأثاث، بل حتى باختيار ألوان وأنواع الستائر. لم تكن زينب في يوم من الأيام خبيرةً بهذه الأشياء، ولكنّها زعمت أنها ستتقنها في نيويورك، وطبعًا لم يكن هناك وقت كاف لتعلّم أي شيء. كلّ صباح تُواجه بقرارت عليها اتخاذها فورًا ودون معرفة كافية بالعواقب؛ إن أحجمت توقّفت أمور الحياة مما يثير حنقه، وإن أخطأت – وهو ما يحدث كثيرًا – زاد حنقه أيضًا، وإن

تظاهر بتفهّم الأمر. لكن محاولاته لم تنطلِ عليها، كما صرّحت بعد ذلك في مشاجراتهما العديدة.

لم يقتصر إهمالها على شئون البيت، بل امتدّ لكلّ شيء آخر، فلم تعد تجد الوقت للاهتمام بنفسها، ولا أن تكون جزءًا من حياته الاجتماعية في نيويورك، وأصبحت تميل للانعزال والاكتئاب. تحوّلت امتحانات المعادلة إلى هم مُقيم، تصحو في الصباح ووجهها منقبض وكأنّ أحدًا دهس كلبها لتوه. ثم تُبدّد الصباح مُتنقّلة بين أرجاء المنزل دون أن تفعل شيئًا مُحددًا. وبحلول الظهيرة تكون قد استنفذت كلّ وسائل التسويف المعقولة والغير معقولة، فتضطر للبدء في المذاكرة، وتظلّ تناضل مع مواد وأشياء غير مفهومة لها حتى الخامسة، فتقوم لتعد العشاء. لكنّ شيئًا ما ينحو نحو الجهة الخطأ، وإن أبدى أقل ملاحظة على ماتفعله سقطت في الصّمت والتعاسة.

قالت زينب إنها بطيئة، لكنّها ليست غبية. وكانت شاشات الرادار لديها تسجّل بدقة تدهور تقديره لها. تحدثا في ذلك كثيرًا. قالت إنها تفهم أسبابه، لكنّها لا توافق عليها. حاولت شرح الأمر من وجهة نظرها، وكيف أنها تحتاج للشعور بالحب والإعجاب كي تزدهر وتتألّق. قالت إنها لا تطيق ميله للحكم عليها طيلة الوقت، وإن مراقبته المستمرة لها تجعلها ترتبك وتتعثّر. ذكّرته عشرات المرات باختلافهما، وبحبّه لها، وسألته عشرات المئات لم يقول إنه يحبها إن كان يبغض كلّ هذه الاختلافات ولا يطيقها! حاوَل أن يشرح لها أنه يفهم منطقها، لكنّه لا يسيطر على شعوره بالضيق من أخطائها. وعدها بأنّ يحاول، وقالت إنها ستحاول

هي أيضًا، لكنّها لم تجد في نفسها القوة للمحاولة، و لم يستطع هو إخفاء حنقه عن رادراتها المتقدّمة. ومع استمرار التدهور هدّدته بالرحيل إن شعرت بفقدانها لحبّه. ضحك وسألها أين ستذهب، فقالت ببساطة إنها ستختفي. وبالطبع لم يصدّقها.

ذات صباح أعلنت أنها قررت الانسحاب من امتحانات المعادلة أو "تأجيلها". اعترض لعلمه بأهمية الأمر لها، لكنّها أصرت. قالت إن استعادتها لسيطرتها على حياتهما وتجنّب استمرار التدهور في علاقتهما أهم من أيّ شيء آخر. واصل الاعتراض، فماذا يبقى لها إن تخلّت عن الطب؟ لكن ردودها كانت واضحة ومقنعة. نعم هي طبيبة وهذا هو الشيء الأساسي الذي يُميّزها عن غيرها، لكنّها أيضًا امرأة وزوجة محبة، ولا تستطيع تعريض زواجهما للخطر. ستستعيد سيطرتها على حياتها أولاً، ثمّ تعود لهذه الامتحانات اللّعينة في العام القادم أو الذي يليه. لم يوافق على قرارها، وسألها ساخرًا عمّا إذا كان الأمر سينتهي بها ربة بيت، فاغتصبت ضحكة، وقالت إنها ستدرس أشياء أخرى وستقرأ عن الموضوعات التي ظلّت طيلة عمرها تريد تعلّمها و لم تتح لها الفرصة. سألها مُتهكمًا مثل ماذا؟ فأجابت ببساطة: "الموضوعات التي تدرسها أنت، تاريخ العرب مثلاً". لم يعرف بم يجيب، خطر على باله أن يقترح عليها كتاب حوراني المشئوم ثم عدل فورًا عن ذلك. لكنّها عادت بعدها بيومين، وسألته إن كان لديه كتاب عن تاريخ العرب، فقام وأحضره ووضعه في يدها دون أن ينبس بكلمة.

ثم جاءت ليلى ويوسف للاقامة معهما بعد موت أمهما. طول عمره

يعتقدِ أنه من الأفضل له وللأطفال أن يعيشوا سويًا. فمن ناحية يُداوي جرحه القديم، ومن ناحية أخرى يساعدهما على تجاوز عقدة الانفصال وحلحلة علاقتهم المعقدة. جاء موت الأم مباغتًا للجميع وكان أفضل شيء هو سفر الأطفال كي يغيروا الجو كلّه، كما أن جامعات نيويورك ستفتح عقليهما ونفسيهما على آفاق أرحب. ما لم يدركه وقتها هو أن الأشياء والناس لا تسير بالضرورة وفقًا للمنطق، بل تتبع آلياتها الخاصة. ليلى أعلنت حرب التحرير فور وصولها، في حين أعلن يوسف الاستقلال. ليلى التي قررت الحلول محل زينب في حياة أبيها قالت إنها لا تفهم سر اختياره لهذه المرأة وإن ربما كانت أفضل منها وأنسب. وكلّما بذل جهدًا في شرح مميزاتها لليلى كلّما أمعنت في التحقير من شأنها. وعلى عكس توقعاته، لم تفلح الحياة المشتركة، ولا الظروف اللّطيفة التي توفّرها الحياة في نيويورك لفتاةٍ في سن ليلى بأنَ تغيّر أو تخفّف من عدائها لزينب. بل على العكس، بدًا أن هذا العداء يتزايد ويتحوّل لنزالٍ مستمر حتى ساد التوتر البيت، تكاد تلمسه باليد في كلّ كلمةٍ وحركة صغيرة؛ تغيير قنوات التليفزيون، تشغيل الموسيقى، درجة الإضاءة، مواعيد النوم، أماكن الجلوس والمذاكرة، اختيار فيلم في السينما، اختيار الطعام، إبداء الرأي. كلّ شيء تحول لنزالٍ تسعى من ورائه ليلى للتقليل من شأن زينب في حين تحاول تلك الدفاع عن نفسها وإثبات جدارتها. أما يوسف، فقد دخل ما قيل له إنها غرفته عند وصوله، و لم يخرج منها حتى أنهى دراسته الجامعية بعد ذلك بأربعة أعوام إلا للطعام أو الخروج من البيت. لم تفلح محاولات أبيه المستمرة في جعله يجلس خارج غرفته: يناديه لا يرد. يذهب للبحث عنه،

فيجد سمّاعات الكمبيوترِ مستقرة على أذنيه. ينظر يوسف له مستفهمًا وهو يزيح السماعات قليلاً: إن وّجه له سؤالاً أجاب عليه باختصار، وإن كان لدى الأب معلومة استمع إليها وأومأ أو علّق عليها باختصار، ثم ابتسم ابتسامة موحدة لجميع الأيام والأوقات، وأعاد السماعات لأذنيه، واستغرق فيما كان بصدده.

فشلت الحياة المشتركة في كسر الحواجز بينهم، و لم يعد يعجبهما شيء. امتدّ سخط ليلى وصمت يوسف فشمل الجيران والجامعة ونيويورك نفسها. وفشلت زينب بطبيعة الحال فيما لم ينجح هو فيه. ضاق بذلك. تمنّى في سرُه أن تكون زينب ساحرة، تستطيع بحركة من عصاها أن تأسر قلبي يوسف وليلى. وفي حين أدركت زينب مدى ألمه فإنّها شعرت بلومه السري لها، و لم تفهم لم يلومها. لم يلومها على كلّ شيء؟ تنظر إليه وترى ضيقه بحياته وبها يزيَد، ويُشعرَها ذلك بالظلم وبالفشل معًا. تناقشه، ويتشاجران، ويتصافيان، لكن جرحًا ما يظل. ومع كلّ مرة كان اليأس من تغيير الوضع يتزايد.

استقرّت الأمور في المنزل عند درجة الغليان، وأصبح الطابق الأرضي للبيت ساحة حربٍ مستمرة، تُعرّض حياتك للسهام إن خطوت من المطبخ لغرفة المعيشة. انتهى به الأمر لليأس من الثلاثة، ومن ثم حذا حذو ابنه، واحتمى بغرفة مكتبه ورفوف كتبه في الطابق العلوي، وصار يقضي أوقاتًا أطول في الجامعة. واتخذت ليلى من غرفتها في الطابق الأرضي مركزًا للعمليات: تقضي بها معظم الوقت وهي تتربّص بالمارين، فإن لمحت زينب أو لمحته تحرّكت على الفور للساحة طلبًا للنّزال. وبعد عدة

شهور، شعرت زينب بالإنهاك، وبأنها تحارب على كلّ الجبهات في وقتٍ واحد دون نصيرٍ أو حليف ودون سببٍ واضح يدفعها للصمود. لم تعد تريد إثبات جدارتها لأحد: لا لليلى الغاضبة، ولا ليوسف المغلق، ولا لزوجها الذي انسحب. أدركت أنه قد يأس منها، ولم ينكر عندما سألته فهبط عليها يأسها الخاص. استسلمت، وبدأت عملية الذبول الطويلة التي أودت بحياتها. ذبلت شيئًا فشيئًا، وهو يرقب ذبولها، ويزداد حنقه عليها. يحمّلها في سره مسئولية كلّ ماحدث، بما في ذلك ذبولها. وحين رحلت ليلى لكاليفورنيا في منحة لدراسة الماجستير، ثم رحل يوسف في منحة مشابهة لمونتريال، لم يبق بالبيت سوى صمته وذبولها. لم تدخل امتحانات المعادلة أبدًا؛ رفضت هازئة حين ذكّرها، وغضبت حين ألح. اتفق مع طالبة تدرس التصميم الداخلي على إعادة ترتيب المنزل—وألقى بالستائر القبيحة التي كانت قد اختارتها على عجل في القمامة— واستخدم كيتي لتولّي مسئولية التنظيف وإعداد الطعام. أصبحت زينب تقضي يومها بين الأريكة وبعض المجلّات وشاشة الكمبيوتر أو التجول في الأسواق دون شراء يذكر، لكنّها واظبت على قراءة كتاب حوراني. تقرأ فقرة أو اثنتين كلّ يوم، وتكتب ملاحظات في كراسة بجوارها. كلّما عاد زوجها من الجامعة وجدها في إحدى الأرائك نائمة، والكتاب فوق صدرها. يوقظها، فتجفل ثم تجمع حاجياتها مرتبكة وتذهب للفراش، حتى عاد ذات مساء وأيقظها، فلم تستيقظ.

خمسة وعشرون عامًا. مرّ على ذلك خمسة وعشرون عامًا. واجه رحيلها بجدارٍ من الحديد. لم ينفجر باكيًا، بل أتى حزنه في صورة سكون

وإذعان، كأنه امتداد لليأس الذي أصابه منها. لم يعد للنساء بعد زينب؛ لم يتّخذ قرارًا واعيًا بذلك، وإنّما عزفت نفسه عن النساء والعلاقات الحميمة بشكلٍ عام. لم يفكر كثيرًا في رحيل زينب، تفادى التمعّن فيه وفي معناه، ربّما كان رحيلها أكبر من قدرته على التحمّل، وكانت هذه طريقته في التعامل معه، بإخفائه أو تجاهله، أو بإغلاق الموضوع برمّته. لم يستخدم كلمة الموت مرة واحدة؛ قال رحلت، غادرت، مرت، ولم يقل أبدًا زينب ماتت. لم يعد يفكّر فيما حدث، وإنّما طواه ووضعه في مكانٍ ما وتركه هناك، مثل بقية أموره العاطفية، مثل هذه الكتب، مثل أشياء أخرى كثيرة. كأنّ حياته العاطفية ساعة توقّفت عن العمل. دخل هذا الجزء منه في حالة بيات شتوي طويل، وبقي الجزء الآخر الذي يعرفه ويسيطر عليه: التدريس والبحث والكتابة. أصبح أكثر اهتمامًا بطلبته، ويقضي وقتًا أطول معهم في الشرح والنقاش، وتطوّع للمشاركة في كلّ اللجان الممكنة بالجامعة، وقبل الإشراف على الرسائل العلمية لكل من طلب منه ذلك، وأفرغ بقية وقته في البحث والكتابة حتى ذاع صيته، وأصبح قبلة المؤرّخين في أمريكا الشمالية كلّها. جاءته بعض العروض من مصر للعودة والتدريس بها. جاءته عروض أخرى من دول ودور نشر عربية، للتدريس ولو لعام، للكتابة أو النشر، ورفضها كلّها. لم يكن يرى أيّ فائدة في هؤلاء الناس أو في محاولة تعليمهم أو تغييرهم. لم يعد يرى فائدة في محاولة تغيير أيّ شيء. لم يعد حتّى يحاول. حلّ محلّ السعي شعور هادئ بالرضا بما في يده، دون مطمع فيما يقع خارج سيطرته؛ لا يفرح بما أُوتي، ولا يحزن لما حُرم.

استسلم حتى فيما يتعلق بليلى ويوسف. قبِل بعجزه عن إخراج

ليلى من غضبها ويوسف من قوقعته. أنهت ليلى دراستها العليا ببركلي و لم تعد لنيويورك، فلم يحاول الضغط عليها لتعود. عملت كمحامية عدة سنوات في لوس أنجيليس، ودخلت في عدة علاقات لم تدم أية منها. يتصل بها من وقت لآخر، يسمع أخبارها ويعلّق بشيء أو بآخر، وينتهي الحديث بغضبٍ مكتوم، لا شيء أكثر من ذلك. بعدها بسنوات قليلة عادت ليلى لمصر رغبة منها في "عمل شيء مفيد". أبدى امتعاضه لكنه لم يمنعها. اتصلت به بعدها من مصر، وقالت إنها تعرفت على طبيب مصري، لقمان، ثم تزوجته وأنجبت سلمى. صارت تأتي هي وسلمى – وأحيانًا لقمان – لقضاء الصيف في نيويورك. يقيمون معه بالبيت، لكنّهم لا يقضون وقتهم معًا، وكأنّهم يتشاطرون فندقًا. تكاد كيتي تكون حلقة الوصل بينهم. أحبَّ سلمى، لكن ليلى كانت تحرص على عدم تطور علاقتها به إلى ارتباط. أبقت الكلّ بعيدًا، وهو يرى ذلك ولا يحاول حتى مقاومته. ثم أخذت هذه الزيارات تقصر وتتباعد حتى توقّفت منذ سنوات. انفصلت ليلى عن زوجها – تُرى هل غفرت له ساعتها انفصاله عن أمها؟ – وعرف بعدها أنها تحجبت وتشدّدت في حياتها؛ قال لها في التليفون شيئًا أو شيئين اعتراضًا على ذلك، فتوتّرت المحادثة بينهما وتوقفت، وأذعن. أما يوسف فوجد لنفسه وظيفة مع الأمم المتحدة أخذته لبؤر الصراع في أفريقيا واحدة بعد الأخرى، وظلّ دومًا بلا زواج. لم يحاول إثناءه عن هذا العمل الذي وجده مَضيعةً للوقت والحياة، و لم يحاول دفعه للزواج. من هو كي يفعل أيًا من هذا؟ وحين ترك يوسف

عمله بلا سببٍ واضح، وعاد ليعيش في مونتريال بلا وظيفة تحت دعوى العمل على كتاب لم يقل درويش لابنه شيئًا. ما الفائدة؟ ليس الأمر أنه لا يهتم بأمرهما، لكنه لم يعد يُحاول توجيه حياتهما. لم يحاول وقف ليلى أو تعقيل يوسف، لم يحاول جمع شملهم من جديد أو حلحلة عقدهم القديمة. استسلم؛ لا أحد يغير أحدًا.

خمسة وعشرون عامًا وأكثر منذ أذعن للدنيا. فماذا حدث له الآن وهو جالس على الأرض الخشبية أمام مكتبته القديمة؟ يمسك بكتاب حوراني وكأنّه عثر على أداة الجريمة، ويرى الأشياء فجأة في ضوء آخر. بهدوء ودون دراما يشعر أنه فهم، كأنّه يفيق من حُلم طويل. "أهكذا يكتشف المرء حياته: جالس على الأرض يفرز كتبه القديمة قبل إلقائها في القمامة؟" يسأل نفسه: كيف لم يفكّر في هذا من قبل؟ بعد خمسة وعشرين عامًا من موت زوجته يخرج النّور من بين صفحات كتاب قديم؟ يرى زينب كأنها أمامه؛ تبتسم ابتسامتها المحبّة الواسعة، وفي عينيها رجاء. هذه النظرة هي أكثر ما أحبّ فيها. رآها كثيرًا، لكنّه لم يفهمها. يراها الآن ويفتقدها، فجأةً وبشدة. أيأتي كلّ هذا من كتاب حوراني! لم يلمس هذا الكتاب أو يره منذ وفاتها. هل هو الذي أعاد ذكرى زينب إليه الآن؟ يحنُّ إليها من جديد، مثلما كان يحنُّ إليها وإلى صحبتها حين قابلها، وحين سألها أن تتزوجه. لو كانت هنا الآن لسألها الزواج من جديد. وقتها أدرك أنه يريد قضاء بقية حياته معها هي ولا أحد سواها، والآن عاوده نفس الشعور. هذا الشعور الذي اختنق تحت وطأة الستائر القبيحة والفوضى وامتحانات

المعادلة والفشل المشترك ثم مات مع موتها. لكن لم يعد الآن للحياة؟ ألأنّه ذاهب إلى موته هو الآخر؟ أم هو الغطاء الحديدي الذي وضعه فوق قلبه منذ ماتت ينزاح الآن، فيُخرج ماكان تحته؟

يحاسب نفسه الآن: أيكون قد اقترف الخطيئة التي يعظ ضدها كلّ يوم؟ هو الذي يعلّم الشباب كيف يراجعون مسلّماتهم ويشكّون فيما تعلموه ويبدؤون من جديد، متى راجع مسلّماته؟ متى وضع نفسه محلاً للشك أو للتساؤل؟ فيم كان كلّ هذا الاهتمام بمعرفة نسائه بتاريخ العرب؟ كيف ترك حوراني يقررّ مصير حبه؟ كيف ترك القواعد والمعايير تخنق المرأة الوحيدة التي أحبّها وتخنق حياته معها؟ كيف لم يفهم، طيلة هذا الوقت، أنه تزوّجها لأنّه أحبّها؟ أحبّها رغم عدم مطابقتها للنموذج المرسوم في ذهنه، فلِم ترك النموذج يقود حياته معها؟ لِمَ لم يستسلم للحب؟ أليس هذا ما حاولت زينب أن تشرحه له حين كانتَ تسأله عن سبب زواجه بها إن كان معترضًا على كلّ ماتفعله؟ لم يسمعها. الآن يدرك أنه لم يسمعها، أنه كان يعظها. مثلما كانت جين تقول؛ يعظ. لا يصدّق أنه وقع في هذا الخطأ الساذج: رجل لا يستمع لما تقوله زوجته، ياللتفاهة! لكن لماذا لم يستمع؟ يتساءل إن كان قد فعل ذلك تحت ضغط ضغينة الأولاد ضده وضدها؟ أيحاول الآن لومهما على أخطائه؟ لا، هو المسئول عن أخطائه، بل وعن أخطائهما. هو الذي زرع فيهما بذرة ما كان يشكو منه وأنشأهما ليتبعا نفس الطريق. ليلى النابغة، موتورة وتعيش وحدها في غضب. أحبت أربع شباب وهي في الجامعة، وتزوجت بالخامس، وفي كلّ مرة كانت تصرخ لأبيها أنها "وجدت الرجل الذي تبحث عنه". الرجل الذي تبحث عنه/

المرأة التي يبحث عنها! من يدري، لعل لديها نسخة من كتاب حوراني. ويوسف الأعزب الأبدي، تُرى ماذا يحمل في جُعبته؟ يحاسب نفسه الآن؛ كيف سمح بكلّ هذه الفوضى؟ بل كيف لم يسمح ببعض الفوضى؟ أترى لو أنه لم يسعَ للسيطرة على كلّ شيء بهذه الدرجة كانت الأمور ستكون أفضل؟

نظر في ساعته. تقترب من السابعة ويوسف على وشك الوصول. لا جدوى من مواصلة فرز الكتب؛ فلتذهب كلّها للجحيم. ما الفارق؟ سيتصل بليلى ويطلب منها المجيء لنيويورك، وإن رفضت هذه المرة سيقول لها إنه يموت، ويريد أن يراها لمرة أخيرة. لو استطاع لذهب لزيارتها في مصر، لكنّه لم يعد يقدر. ربّما يمكُنه استبقاء سلمى حتى تأتي أمها، ربّما أقنع الأم بترك سلمى تلتحق بالجامعة هنا، من يدري، ربّما بقيت ليلى هنا أيضًا ولو بعض الوقت. وسيحاول إقناع يوسف بقضاء فصل الشتاء معه بالشاليه. يمكنه العمل على كتابه المزعوم هناك، أفضل من برد مونتريال القارص. سيعترف لهما بمرضه وموته الوشيك. سيصدمهما ذلك، وربما يغضبان لإخفائه الأمر عنهما أو حتى لأنّه مريض وعلى شفا الموت، فهما يتوقعان منه أن يكون قويًا وصلدًا وأبديًا. هذه هي الصورة التي طبعها في مخيلتهما، هذا هو المثال الذي وضعه لهما ودفعهما كي يقلّداه. سيغضبان ويشعران بأنّه يتخلّى عنهما بموته الوشيك. لكنّه سيفتح قلبه لهما، ويعترف بأنّه أخطأ في تربيتهما: لن يحاول التهرّب من المواجهة، سيعترف بأنه أخطأ، وبانه يُخطئ، وبأنّ الكل يُخطئ. سيحاول أن يكون إنسانيًا أكثر، ربّما يدفعهما لمراجعة أنفسهما هما الآخران. هذه هي فرصته الأخيرة:

ربّما تفتح الصدمة قلبيهما، ومع بعض الإلحاح قد ينجح في حملهما على الحديث إليه بجد، على إخراج ما يدفنونه في أعماقهما. ربّما تنجح الصدمة في دفعهما للتفكير في حياتهما بشكلٍ مختلف، للتفكير في أخطائهما وفي مسئوليتهما عمّا حدث لهما فلا يُكرّران أخطاءه. يدرك أنه لن يستطيع فعل كلّ هذا في حديثٍ واحد، أو في زيارةٍ واحدة، بل سيتطلب الأمر مثابرة ووقتًا. مازال أمامه عام، أو اثنان.

إن نجح سيكون ذلك أفضل ما يتركه لهما. لا يريد منهما تعبيرًا عن الحبّ، لا يحلُم بحياةٍ مشتركة سعيدة في المستقبل، فلم يعد هناك مستقبل. كلّ ما يطمح إليه أنْ يساعدهما على تجاوز أخطاء الماضي. ومن يدري، ربّما يأتي يوسف وليلى لقضاء بعض الوقت معه في الشاليه، ولو لبعض الوقت. وربما بعد أن يموت على ضفاف تلك البحيرة، يتذكّران أوقاتهما الأخيرة معه أكثر من تذكّرهما لجراح الماضي، وتكون أيامهم الجديدة تلك هي كلّ ما يبقى لهما.

قرر أن يفعل ذلك، الليلة. سيبدأ بالحديث مع يوسف، لن يتركه يلوذ بالصمت. ثم سيتحدث مع ليلى بالتليفون، ربّما في الصباح، بعد أن يتحدث مع سلمى عن فكرة بقائها هنا للدراسة. نظر في ساعته ووجدها قد تخطّت السابعة. شعر بغُصّة: مالذي أخّر يوسف كلّ هذا الوقت؟ سيصل المدعوون في الثامنة، ويعني هذا أنهما لن يُتاح لهما الوقت الكافي للحديث. سيضطر لتأجيل الحديث معه للصباح إذًا، ثم يتحدّث مع ليلى في مساء الغد. لكنّه سيقابل المحامي في الثامنة والنصف صباحًا، ولا يمكنه تأجيل هذا الموعد. قال يوسف إنه سيرحل عائدًا لمونتريال في

قطار العاشرة، ومعنى ذلك أنه لن يُتاح لهما الوقت للحديث في الصباح. لم يذهب لمونتريال بالقطار بحق الجحيم، من يفعل هذا؟ وما الذي أخّره هكذا؟ ألم يتعهّد أن يأتي في السابعة ليتولّى التأكّد من تمام شئون عيد الميلاد؟ ألا يستطيع أن يأتي في موعده ولو مرة، مرة وحيدة قبل وفاة أبيه؟ هل يحادثه أثناء العشاء؟ يمكنه أن يتنحّى به جانبًا ويحادثه، لكن ذلك سيجعل الآخرين يشعرون بحرج، لا، لا يليق ذلك. سيطلب منه تأجيل سفره كي يُحدِّثه في الغد؛ سيقول له ذلك عندما يصل، هو الذي تأخر وعليه تحمّل نتائج أفعاله. ثم لماذا لا يسافر بالطائرة مثل البشر؟ ما قصّته والقطارات؟ نعم، سيطلب منه ذلك ويُحادثه في الصباح بعد رؤية المحامي. سيسير كلّ شيء على مايُرام، طمأن نفسه، فقط عليه الآن أن يقوم من على الأرض، ويضع كتاب حوراني مكانه، ويستعدّ لاستقبال يوسف والضيوف.

2

اللجوء إلى مارك

عندما لمح رامي المحصّل يفتح باب العربة عدل ياقة قميصه بسرعة، فهو دائم القلق من أن تكون فانلته الداخلية ظاهرة. شد ياقة الجاكيت ليتأكد من تغطيتها تمامًا. مرّ المحصل دون أن ينظر إليه، فهو جالس هنا منذ ساعتين. توقّف المحصل عند الراكبة الشابة التي صعدت للقطار في آخر توقّف وفحص تذكرتها ثمّ مضى عائدًا نحو عربة المقصف. القطار ممتلئ بالركاب الذاهبين لنيويورك في عطلة نهاية الأسبوع. هذا هو وقت الذروة في أسعار السفر؛ كلّفته التذكرة مائة واثنين وعشرين دولارًا كاملة. لو كان قد أجّل سفره لصباح الغد لوفّر أربعين دولارًا، لكنّه كان سيفوت عشاء الدكتور درويش، وهذه أول مرة يدعوه لمنزله منذ سنوات. اشترى

التذكرة الأغلى، ثمّ فاته القطار حين نام كالغبي في محطة واشنطن وفاته القطار. لا يصدّق أنه فعل ذلك. لكن بعد اثنتين وعشرين ساعة جلوس في القطار القادم من ميامي كان مُتعبًا، ولايدري كيف نام على رخام محطة الاتحاد في واشنطن لكنّه نام. وعندما استيقظ أدرك أن قطاره قد رحل، ومعه موعد العشاء وكلّ الترتيبات التي أجراها. وقبل أن ينهار تمامًا أسرع وأخذ القطار الأخير الذاهب لنيويورك. لا يعلم ما سيفعله هناك بالضبط، لكنّه سيفكر في الطريق.

باق حوالي ساعة ونصف ويصل نيويورك. لابدّ وأنّ هذه الفتاة ذاهبة لنيويورك أيضًا. تبدو في عمر ساشا ابنته. وضعت سماعات في أذنيها فور جلوسها وبدأت تستمع للموسيقى، لكنّها أبقت الصوت منخفضًا. مالت عليه وسألته إن كان الصوت يضايقه فنفى. فتاة لطيفة. هكذا تبدو، لكن من يدري، لعلّها تسرق أبويها. تحسّس الأربعة عشر دولارًا الباقية في جيبه، وابتسم لنفسه في سخرية. لم يعد يشعر بالضغينة؛ حدث ما حدث ووصل إلى النقطة التي وصل إليها. لا يحمل ضغينةً ضد أحد، لا ضدّ ربّ العمل، ولا ضد زوجته ولا ابنتيه. فعل كلّ منهم ما جُبل عليه، فما فائدة الضغينة؟ لكنّه حزين؛ لم يتوقّع كلّ هذا الجفاء. وغاضب على نفسه، فلو أنه ربّى بناته بشكل أفضل، لو كان أقل تسامحًا أو تهاونًا معهم لربّما عاملوه بشكلٍ أفضل. فكر في ذلك كثيرًا في الشهور الماضية، لكن في كلّ مرة يفكّر في الموضوع ينتهي لنفس النتيجة، وهي أن أوان هذا الكلام قد فات. تُرى ما هو حال سلمى؟ أتكون مثل ابنتيه، أم أن تربيتها بمصر جعلتها مختلفة؟ لم يرَ سلمى منذ كانت في العاشرة من عمرها، والبنات

يتغيّرن بسرعة في هذه السن. يتغيّرن بسرعةٍ لا تُصدَّق. نظر في ساعته ثمّ في التذكرة: سيصل القطار إلى نيويورك قُرب منتصف الليل، وسيتوجه مباشرة لمنزل الدكتور درويش، ثمّ يأتي مارك ويأخذه من هناك بعد العشاء ليقيم معه في بروكلين. وبمجرّد أن يستقر عند مارك سيُعيد التفكير في كلّ هذا.

رامي الجالس في عربة القطار وفي جيبه أربعة عشر دولارًا لم يكن دائمًا هكذا. كان ربَّ أسرة، ولديه ابنتين في سن الزواج، يعمل في شركة كبرى للعلاقات العامة بوظيفة مرموقة تُدرُّ عليه دخلاً جيدًا سدّد منه كلّ أقساط البيت الكبير الذي يسكُنوه بميامي. يعيش حياةً هادئة ومستقرة، وعلاقته جيدة بجيرانه وزملائه بالعمل. لم يكن أبدًا شخصًا مثيرًا للاهتمام أو محطَّ أنظار الزملاء أو الجيران، ليس النّوع الذي تدعوه للعشاء في منزلك كي تفاخر به بقية المدعوين، لكنه شخص محترم ويُعتمد عليه هادئ، وودود، مُحافظ في عاداته وأخلاقه؛ لكنّه يقبل بالاختلاف ولا يدسّ أنفه في شئون غيره. تخرّج من قسم الدراسات العربية بجامعة نيويورك، ثمّ عمل مع الدكتور درويش في مشروع بحثي لمدة ثلاث سنوات. كان درويش يحبه ليس فقط بسبب القرابة البَعيدة التي تجمعهما (ابن عم رامي متزوج من ابنة خالة درويش) وإنّما بسبب طيبته وصراحته.

كان رامي أيضًا مُثابرًا في عمله وهي صفة فارقة في حياة أيّ باحث، وتنبّأ له درويش بمستقبلٍ واعد إن واصل الحياة الأكاديمية. لكن وظيفة كبيرة بشركة مشهورة للعلاقات العامة والتسويق جعلته يغيّر رأيه. وجد أن المرتب الذي سيحصل عليه في شهرٍ يفوق ما يمكن أن يحصل عليه في عامٍ

بالجامعة حتى لو صار أستاذًا بها، فقبل. لم يُعجب قراره الدكتور درويش وقتها. استغرب مجرد تفكيره في العرض وترك الجامعة. وغضب لأنّ رامي تنازل عن الفرصة التي أتاحها له. كان درويش يحب رامي ويقدّره، لكنّه شعر أنه خصّه بتكريم وتشريف العمل بجانبه، ثمّ تركه رامي من أجل حفنة دولارات: ياللرخص! تركه يرحل في امتعاض، وظلّ رامي يسأل عليه مرة كلّ عام، ويتلقّى منه إجابة مُقتضبة. لم يبادر درويش قط بالسؤال عليه، لكنّه سمح لرامي بمواصلة السّؤال عنه، ودعاه لمنزله في كلّ مرة أتى فيها لنيويورك. هكذا قابل سلمى حفيدته. كانت سلمى طفلة حبوبة، تسعى لصداقة من لا تعرفهم ولا تخشى الغرباء. وحين كان رامي يزور أستاذه في الصيف كان عادةً ما يجد سلمى التي تقضي الأجازة مع أمها بنيويورك. أحيانًا كان رامي يأتي بابنته ساشا معه ويأخذ سلمى معهما للسينما أو لنزهة. لكن كلّ ذلك انقضى. لم يعد يذهب لنيويورك في الأعوام الماضية، وحين فعل لم يعد درويش يدعوه للزيارة. وانحصرت علاقتهما في المعايدات السنوية من قبل رامي ورد درويش المقتضب عليها. لذا كانت دهشته كبيرة حين دعاه لهذا العشاء. وطبعًا حرص على تلبية الدعوة حتى لو كلّفه الأمر الدولارات الأخيرة في جيبه.

منذ رحل لميامي للعمل في تلك الشركة وحياته طيبة ومستقرة. وجدت زوجته ماريا، الكوبية المولد والتي تأتي عائلتها من أصول لبنانية، عملاً كمدرسة للغة الأسبانية بمدرسة خاصة قريبة من المنزل، واستطاعا إلحاق ابنتيهما بجامعة ستانفورد المرموقة، بل وحصلت الكبرى، ساشا، على منحة دراسية تُغطّي مصروفاتها بالكامل. كلّ ما كان يُنغّص على رامي

حياته هو شعوره بالوحدة. لم يكن قادرًا على شرح حقيقة ما يشعر به لأحد، وعندما يحاول أن يشرح لزوجته ماريا ما يقصده بالوحدة ينتهي الأمر بمشاجرة. لجأ لساشا، الكبيرة والأكثر عقلاً من مارتا، وحاول أن يشرح لها ما يعنيه بالوحدة، لكن الكلمات لم تسعفه. هو المترجم لم يجد من الكلمات الإنجليزية ما يُعبّر به عمّا يقصده بالضبط. وساعتها اغتمّ أكثر، اجتاحه الشعور بأنّ الوحدة هي بالضبط هذا، أن تشرح لابنتك شيئًا بلغة ليست لغتك، ألاّ يمكنها فهمك إن تحدّثت بلغتك. صمت تلك المرة وغيّر الموضوع، لكن ساشا كانت في تلك المرحلة التي تحاول فيها البنت أن تكون كبيرة، وأنّ تستمع لأبيها وأمها وتُحادثهما في أمور الكبار؛ كي تُبعد نفسها عن الصورة النمطية للمراهقة التي لا تتحدث إلا عن نفسها ولا تستمع لأحد. ظلّت ساشا تطارده، وأمام إصرارها بدأ يحكي. في البداية قال لها إنه يشعر بالوحدة بمعنى أنه يعتمد في حياته على نفسه كلية. ذكّرته بأنّ هذا هو وضع الجميع في أمريكا فأمّن على كلامها، لكن هذا ليس العالم الوحيد الذي يعرفه، فهناك عالم آخر مازال يذكره:

– عالم به أهل وأصدقاء يساعدونك في الشدّة، تكونين متأكّدة أنهم هناك، وأنّهم سيقفون بجانبك حين تحتاجين لهم، سواء كان هذا الاحتياج عاطفيًا أم ماديًا.

قص عليها قصصًا كثيرة من حياة عائلته التي كان يزورها وهو طفل في الأجازات، ومن حياة الأقارب والأصدقاء والجيران الذين بنى معهم علاقات ودّ أثناء العطلة الصيفية، يعود كلّ عام فيجدها قوية، وكأنّه تركهم بالأمس فقط. قالت له إن الانسان يبالغ دائمًا في تجميل صورة الماضي فهز

رأسه نافيًا في أسى. حكى لها كيف أنه لم يكسب أصدقاءً حقيقيين في أمريكا التي عاش فيها طول حياته، بقدر ما كسب أصدقاء في مصر التي لم يقم بها سوى خلال عطلات المدرسة. البعض يلوم ضيق الوقت لكن الحقيقة أن أسلوب الحياة نفسه هو السبب. سألها إن كانت تستطيع زيارة أى من أصدقائها دون الاتصال مُسبقًا، دون ترتيب موعد، وشرح لها كم يبدو ذلك مضحكًا إن حدث في مصر. الصديق هو من تعرفين أنّك يمكن أن تهبطي عليه في أية لحظة.

ظلّ يحكي وهي تستمع، وتُقاطعه من حينٍ لآخر بأسئلة، كلّما سألته كلّما انفتح في الحديث معها أكثر، حتى اعترَف لها أن الوحدة تشمل التحدّث لبناته وزوجته بلغة غير لغته الأم، تشمل ألاّ يمكنهم مشاركته في الفرجة على أفلام شادية وسعاد حسني وماجدة، أو الاستماع لعبدالحليم سويًا، أن يحتاج للترجمة حين يتحدّث معهم، كأنّه مازال في الشركة، ترجمة بالنهار وبالليل، وليس فقط للكلمات بل ترجمة للمفاهيم. يجب أن يشرح حين يتحدّث عن شيء يحبّه أو يكرهه، أو حين يحكي لهمِ عن شيء جرى أو يجري في مصر. الوحدة أن يكون المرء في مكانٍ وكلّ من يحب في مكان آخر، وعليه أن يُحاول العبور لهم في كلّ مرةٍ يحدثهم. لم يكن رامي يخطَط أن يقول كلّ ذلك لابنته، بل لم يكن يعلم أن هذه هي حقيقة مشاعره، لكنّها لما سألته وأجاب وشعر بالحنان والأمان استرسل في الحديث حتّى انفتح باب في نفسه وخرج منه كلّ ذلك. عندما قال رامي هذه الكلمات لابنته الكبيرة العاقلة ساشا لم يكن يعلم أنه قد بدأ سلسلةً من التفاعلات ستنتهي بانهيار حياته بالكامل.

لم تنهار حياة رامي مرة واحدة، بل خُطوة خطوة في سلسلةٍ لم يكن من الضروري أن تفضي بعضها لبعض. بل على العكس، تبدو بعض هذه الأحداث غير مترابطة وغير مبررة، لكن هكذا تسير الأمور أحيانًا، فليست كلّ قراراتنا نتيجةً حتمية لما سبقها؛ أحيانًا نكون مُوزّعين بين اختيارين، ونجد أنفسنا وقد انجرفنا في طريق، ثمّ يسلمنا هذا الطريق لقرارٍ جديد وهكذا. بعد عامٍ نجد أنفسنا في مكانٍ لم نُخطّط إطلاقًا أن نصل إليه؛ أحيانًا نتراجع، ولكن في معظم الأوقاتِ لا يمكننا فعل ذلك فنواصل التقدم. وأحيانًا نكون مُصمّمين على المضي في طريق، ونكون مستعدين للتضحية بالغالي والنفيس في سبيله. ونرد على أصدقائنا إن حاولوا ثنينا عن قرارنا بأنّنا نعلم الثمن الذي علينا دفعه ولكنْ لا مناص، فهذا الأمر ضروري لنا كي نظلّ أوفياء لأنفسنا، كيلا نفقد ذاتنا أو كيٍ نحققها، أو كي هذا أو كي ذاك، وبعد عشرين عامًا ننظر خلفنا ولا نتذكّر أصلاً لماذا فعلنا ذلك.

سلسلة الأحداث التي قادت لتدمير حياة رامي من هذا النوع: سلسلة من القرارات العارضة التي يتخذها المرء دون كثير تفكير، قاد كلّ منها للآخر وفي النّهاية إلى انهيار حياته التي بناها عبر ثلاثين عامًا. باح لابنته الكبرى العاقلة بمكنون نفسه، وبشعوره بالوحدة الذي يفتك به منذ جاء لأمريكا، وأدى ذلك البوح لأمرين: الأول أن ساشا، الكبيرة العاقلة، صُدمت من كلام أبيها، وأكّد لديها اعترافه ماكانت تشك فيه سرًا منذ وقتٍ طويل، وهو أن الأب لا يحبّهما حقيقةً، وإنّما وجد نفسه في حياةٍ مشتركةٍ معهم فواصل هذه الحياة. وأنّها وأختها وأمهما في جانب، والأبُ الصامت الذي ليس

لديه شيء يقوله لهنَّ في جانب آخر.

أكدّ اعترافه ماكانت تشك فيه سرًا ولاتجرؤ حتى على أن تقوله لنفسها، وهو أن الأب من نوع آخر غيرهنَّ الثلاثة. هنَّ الثلاثة "طبيعيات" ومندمجات في الحياة حولهن، أما الأب فهو دائمًا الطرف غير المنسجم، الطرف الغريب، منذ كانا في المدرسة وحتى الآن حين تدعو زميلاتها للبيت. الأم الجميلة القوية، صاخبة بعض الشيء ولكنها تتصادق على كل زميلاتها وتغدق عليهن الطعام والرعاية والأسئلة، ومشهورة بين عائلات صديقاتها. الأخت مجنونة لكنها لا تختلف عن البنات مثيلاتها في هذا السن. الأب هو الشيء الغريب في حياتهنّ، هو العربي المهاجر، هو الذي لديه مشكلة في التأقلم دائمًا. ساشا لم تتعاطف يومًا مع منطق المهاجرين الذين يتركون بلادهم طوعًا لمكانٍ آخر ثمّ يشتكون من غربتهم. طول عمرها تشعر سرًا أن أباها ثقل يسحبها بعيدًا عن الحياة الطبيعية التي تريدها، والآن يبدو أنه يريد أن يشدّهم إلى ماهو أبعد. لم تقل لنفسها كل هذا الكلام، لكنّه مرّ في خاطرها، ثمّ سألت نفسها السؤال المنطقي التالي: ماذا يريد بهذا الحديث؟ إلى أين يريد أن يقودنا؟

الأمر الثاني الذي نتج عن هذه المحادثة هو إدراك رامي نفسه للأبعاد الكاملة لما كان يشعر به في قرارة نفسه منذ سنوات، و لم يلحظه أو يصيغه في كلمات، أو حتى أفكار واضحة. وبعد أن فعل فوجيء بحجم الهُوّة التي تفصله عمّا يريد. فُوجيء بأنَّ حياته كلّها سارت في طريقٍ لم يريده، طريق صعب على نفسه احتماله. سأل نفسه لماذا لم يفكر في الأمر بهذه الطريقة من قبل؟ فكر قليلاً، ثمّ خلص إلى أنه ربّما فكر في الأمر و لم يعره

كبير اهتمام، فقد كان مشغولاً. كان يبني حياته، يبحث عن الاستقرار والتقدّم المهني، ثمّ تأمين وضعه المالي ووضع أسرته، وقبل كلّ ذلك يرعى زوجته وابنتيه ويهتم بتعليمهما وتربيتهما، والبيت، ومن بقي من أهله في مصر ومقتضيات المساعدة في الوفاء ببعض احتياجاتهم، كلّ ذلك كان أشدّ إلحاحًا وضغطًا على حياته اليومية وتفكيره من أن يترك له الفرصة للتفكير في وحدته. الآن، ومنذ رحيل الفتاتين للجامعة وشعوره بالوحدة يتزايد. في البداية فسرها بأنّها تلك الوحدة التي تصيب الآباء بعد رحيل أولادهم، لكنّه لما حاول الفضفضة لزوجته وفشل، ثمّ بحث عن أصدقاء ليشاطرهم الحديث، ولاحظ أنه ليس لديه أصدقاء حقيقيون أدرك أن المشكلة أعمق وأكبر. ثمّ جاءت ساشا بأسئلتها وحنانها اللذين أطلقا لمشاعره العنان. ومن ساعتها وإحساسه بالوحدة وبالغبن لاضطراره أن يعيش أسير هذه الوحدة يتفاقم، ويحتل مساحةً أكبر فأكبر من تفكيره ومن تركيزه. وكلّما فكّر في وحدته تلك أكثر كلّما زادت أهميتها في نظره، حتى لم يعد يفكّر في شيء سواها.

الأمران الناتجان عن عملية البوح لساشا العاقلة أحدثا أثرًا ثالثًا، عند ماريا. فعندما استبدّ القلق بساشا في أعقاب هذه المحادثة، و لم تستطع أن تستنبط وحدها هدف الأب من طرح هذه الأفكار الغامضة، قررت أن تُشرك أختها الأقل عقلاً، مارتا. فزعت الصغيرة، التي قبل الجميع دورها كمجنونة العائلة، لما سمعته، وصرخت في وجه أختها أن ذلك يعني ولاشكّ أن الأب يريد أن يأخذهم من أمريكا ويرسلهم ليعيشوا في مصر. استبعدت ساشا هذا الأمر باعتباره جنونًا مارتاويًا، لكن مارتا لم تسكت،

وظلت تشرح لساشا العلاقة بين الأمرين. الأب في السابعة والخمسين من عمره، لم يعد لديه ما يطمح لتحقيقه في أمريكا، وبعد رحيلهما من البيت يشعر بوحدة، وهو شيء طبيعي. كما أن علاقته بالأم باردة بعد عقود من الرّتابة الزوجية، وهو شيء طبيعي أيضًا. ماذا يفعل؟ سألتها مارتا في تحدّ، وأجابت دون انتظار رد أختها: الناس الطبيعيون يدخلون في علاقاتٌ حب جديدة أو يخونون زوجاتهم، أما المهاجرون غريبو الأطوار مثل أبيهما فيفكّرون في العودة لبلادهم الأصلية. لم تقتنع ساشا، فهذه ليست أول مرة تخرج عليها مارتا بتفسيرات غريبة لأمورٍ في غاية البساطة. فذكّرتها مارتا بما حدث لميرنا ولورا منذ عامين، وهدى التي فرّت من بيت أبيها عندما حاول إعادتها بالقوة لسوريا، وغيرهنّ من أصحاب القصص المشابهة. ثمّ عاجلتها بالحجّة القاضية: "كلهم آباء لبنات في سننا، قلقوا فجأة مما سيحدث لبناتهن عندما يقتربن من سن الزواج، وكلهم رحلوا أو حاولوا الرحيل في هذا الوقت". لكن ساشا لم تقتنع بعد بالرغم من حجة مارتا القاضية.

كان من الممكن أن ينتهي الأمر هنا، لو أن مارتا المجنونة لم تهرع لأمها الفطنة كي تحذرها من المصيبة التي ستحل عليهن جميعًا، وما لم يكن الشك قد تسرب لنفس ساشا في نفس الوقت، حتى وإن لم تسلم بفكرة مارتا. كان من الممكن أيضًا للأمر أن ينتهي هنا لو أن الأب، السيد رامي نفسه، لم تأخذه الحماسة فجأة، ويقترح على ماريا القلقة أن يقضوا شهور الصيف الثلاثة في مصر، هم الذين لم يقضوا في مصر أكثر من أسبوعين متصلين. ماريا، التي تحب أن تصف نفسها بأنّها مزيج ثلاثي من العملية الأمريكية،

والفتوة الكوبية، والشطارة اللبنانية، قررت أن تأخذ بزمام الأمور في يدها. وقد أدى قرارها ذلك لتسريع سلسلة الأحداث التي ستؤدي، بعد تسعة شهور من ذلك اليوم، إلى طلاقها من رامي وتجريده من كلّ ما يملك، ومن الحقّ في رؤية ابنتيه.

لم يكن يريد أن يتأخرّ على الدكتور درويش فهو مهووس بالدقة. وليس معه تليفون محمول كي يتصل به ويعلمه أنه لن يأتي. تخلّى عن المحمول مع الأشياء التي وجب عليه التخلّي عنها نهائيًا خلال الشهور الثلاثة الماضية. سيصل نيويورك عند منتصف الليل، ثمّ ماذا؟ سيكون العشاء قد انتهى، ولن يرى سلمى، ومارك سيذهب لمقابلته عند منزل الدكتور درويش. عليه أن يكون هناك في الثانية عشرة بالضبط وإلاّ فلن يستطيع العثور على مارك. بحث في التذكرة وفي الشاشات المعلّقة عن علامة يقيس بها تقدم القطار فلم يجد. وعندئذ خلص إلى أنه لا مفر من السؤال إن كان يريد أن يعرف ما إذا كان القطار سيصل في موعده. فكّر أن يسأل الراكبة الشابة الجالسة إلى يساره، ثمّ تراجع. على الأرجح أنها لن تعرف. قرر أن يسأل المحصل، وظلّ يتحين عودته للعربة لكنّه لم يأت. بعد دقائق استجمع شجاعته، وقام متوجهًا لمقصف القطار؛ ليسأل أحد المحصّلين الجالسين هناك. مرّ بين العربتين وأفكارًا سوداء تعبر رأسه عن وقوعه على القضبان كالعادة عندما يمر بين عربتي قطار، ثمّ دخل المقصف، وتوجّه للمحصّل يسأله. يهاب هذه اللحظة، لا يحب أن يسأل الغرباء، وبالذات الأسئلة التي يستشفّ منها جهله بالنظام. لام نفسه وهو يهمُّ بالسؤال: لو كان يعرف نظام مواعيد القطارات لما وضع نفسه في هذا الموضع. المحصل

ينظر إليه بتحفّز مُنتظرًا السؤال. يتلعثم رامي قليلاً ثمّ يطرح سؤاله.

أجابه المحصّل دون اهتمام بأنّ القطار سيصل نيويورك متأخرًا سبع دقائق. شكره رامي بحرارة لم يلتفت لها المحصل، وشقّ طريقه عائدًا. ينظر في الطريق للركاب الجالسين في مقاعدهم، ويحاول قدر استطاعته أن يبدو أليفًا. شدّ ياقة الجاكت مرة أخرى كيلا يبدو هندامه مُهلهلاً، وابتسم لطفلٍ نظر إليه بحدّة ولم يجبه الابتسام، ثمّ عاد لمقعده وجلس ينتظر.

عندما يعيد رامي التفكير فيما حدث يجده طبيعيًا ومنطقيًا، بل وضروريًا. كان لابدّ – في رأيه هو – لكلّ هذا أن يحدث؛ المسألة كانت مسألة وقت، ولو كان حصيفًا لأعدّ العدّة لذلك بدلاً من أن يفقد السيطرة على الأمور، ويجد نفسه بلا مأوى وبأربعة عشر دولارًا فقط من كلّ ما ادّخره طيلة ثلاثين عامًا من العمل. ما يحزّ في نفسه هو البنتان، وموقفهما الذي لم يجد له تبريرًا. وجد له تفسيرًا، لكنّه ليس تبريرًا. لم يكن عليهما أن يفعلا ما فعلاه، ولا أن يقولا ماقالاه له، خصوصًا ساشا. مارتا طول عمرها مجنونة ويتوقّع منها هذه الأمور، أما ساشا، العاقلة، فكيف تفسّر سلوكه ومشاعره بهذه الطريقة، وكيف تظن أنه يمكنه أن يلحق بها أو بأختها الأذى؟ هذا ما لم يفهمه ولا يتقبّله إن فهمه.

يسأل نفسه كلّ يوم تقريبًا كيف يمكن لبنتيه أن يلومانه على مشاعره، على رغبته في الرحيل لمكانٍ يكون فيه أسعد حالاً، هو الذي لم يفعل في حياته سوى تشجيعهما على البحث عمّا يسعدهما. كيف يكون بحثه عن سعادته تهديدًا لهما أو لأمهما. وإذا كان قد اختلف مع ماريا، فهذا

شأنه هو، لم تأخذ البنتان جانبًا في مثل هذا الخلاف؟ لامهما كثيرًا، ولام على نفسه أكثر عدم قدرته شرح موقفه لهما بما يجعلهما يفهمانه. لكنّه لم يكن جيدًا في شرح مشاعره يومًا، وكلّما همّ بالتحدث معهما انعقد لسانه وطارت الكلمات. يريد أن يقول أشياءً كثيرة، لكنّها تنتهي دومًا بأنّ تخرج من فمه في كلمات قليلة وغير محفّزة على النقاش، فترد البنت بكلمات قليلة مثلها، وتموت المحادثة. شيء ما في طريقته يطفيء المحادثة، هذا ما قالته له ماريا ألف مرة على الأقل، وهو يعلم أنها محقّة في هذه النقطة.

الأمر الذي لا يجده رامي منطقيًا أو ضروريًا، أو حتى طبيعيًا هو فقدانه عمله في نفس الوقت. صحيح أن المثل يقول "إنّ المصائب لا تأتي فُرادى"، لكن هناك أمثلة كثيرة، مثل "إنّ الضائقة تنفرجِ حين تستحكم حلقاتها"، فلماذا تحقّق هذا المثل بالذات في حالته. بعد كلّ هذه السنوات من العمل في الشركة، وبعد الصّعاب التي مرّ بها والمكاسب التي حققها للشركة، والعلاقات التي نمّاها مع زملائه ورؤسائه بل وأعضاء مجلس الإدارة، بعد كلّ ذلك يتمّ فصله، هكذا دون مقدّمات، مثل فيلم رخيص. رامي مترجم، وإن كان المسمّى الوظيفي لمنصبه أكثر فخامة؛ كاتب كبير. كبير هي ترجمة غير دقيقة لكلمة SENIOR التي فشل رامي في العثور على ترجمة دقيقة لها في هذا السياق، وهي في حدّ ذاتها مفارقة ظلّت تُذكّره بعبث الوظيفة التي يقوم بها. ما يفعله ككاتب كبير هو أساسًا ترجمة مواد إعلانية وترويجية من الإنجليزية للعربية، مع تحويرها بحيث تُلائم السوق العربي وذوق المستهلك. وهو يفعل هذا لعددٍ غير محدود من الشركات

المتعاقدة مع شركتهم، أحيانًا لكلّ منتجاتها وأحيانًا لمنتج واحد. ومن ثمّ فعليه كتابة مواد ترويجية لأشياء متنوعة قد تكون حفّاضات، تليفونات محمولة، مشروبات غازية، مشروعات عقارية، جلسات تخسيس وتدليك، ساعات، شيكولاتة، سيارات، وعشرات السلع والخدمات الأخرى. يدخل مكتبه في الصباح وهو لا يعلم ماذا سيهبط عليه في ذلك اليوم؛ قد يكون طرازًا جديدًا من السيارات أو لبوسًا خافضًا للحرارة. لا يهم، وعليه أن يكون خلاقًا ويجد شيئًا جاذبًا في هذا المنتج. يأتي المنتج ومعه ملف يتضمّن موادًا ترويجية بالإنجليزية، وعليه أن يقدح ذهنه في ترجمة الرسالة الإعلانية لشيء يمكن استخدامه في السوق الخليجي، أو المصري أو الليبي، على حسب.

برع في الأمر، بل ونجح في مرات أن يُوسّع السوق، ويأتي بعملاء جدد من أسواق الشرق الأوسط. فعل ذلك مثلاً مع مارك منذ عدة سنوات عندما أرسلتهما الشركة للأردن لمدة عام. لكن الشركة غضّت النظر عن كلّ هذا، وقررت إنهاء عقده. أتى لمكتبه في الصباح فاستدعاه مديره وأخبره أن الأزمة الاقتصادية تضطر الشركة لتركه يرحل. لا يريد أن يرحل. سأله عن علاقة الترجمة بالأزمة الاقتصادية، فقال له مديره إن الكثير من الشركات المتعاقدة معهم تقلصت أعمالها في الشرق الأوسط نتيجة الأزمة، ومن ثمّ لم يعد الأمر يستحق الاحتفاظ به. قال له هذا، وابتسم. قال رامي بعض الأشياء التي تُقال في هذه الأحوال، لكن المشهد كان مُهينًا بدرجة تتجاوز تحمّله، فابتسم ليحافظ على مابقي له من كبرياء، وأشاح بذراعيه في الهواء بروحٍ رياضية، وجمع خلجاته من المكتب ومضى. المضحك في الأمر أن

ماريا استطاعت، بمعونة المحامي طبعًا، أن تضع يدها على مكافأة نهاية الخدمة ومرتب الشهور الثلاثة التعويضي. وها هو وأربعة عشر دولارًا في جيبه، وحقيبة كبيرة لا تحتوي إلا على بعض الملابس، جالس منذ ست وعشرين ساعة في قطار، ذاهب لشخص لم يره منذ سنوات في مدينة لا يكاد يعرف فيها أحدًا.

انهارت حياته خلال عام بالضبط، ولكنّ الشهور الثلاثة الأخيرة كانت الأشدّ قسوة. وقع الطلاق بعد ستة شهور من قرار ماريا أَخْذ زمام المبادرة، وفقد كلّ ما يملك خلال الشهور الثلاثة التالية، بما في ذلك عمله ومستحقّات نهاية الخدمة، كما أرغمته المحكمة بألا يقترب من بنتيه، أو من ماريا بمسافة خمسمائة متر، وذلك لمدة عام قابل للتجديد. وتبقى معه ستمائة دولار، عاش بهم خلال الشهور الثلاثة الأخيرة، بما في ذلك ثمن تذكرته لنيويورك. أقام خلال تلك الفترة في غرفة أحد الأصدقاء الذي كان في عمل خارج ميامي، ودعاه للإقامة مكانه دون مقابل حتى يجد حلاً لمشاكله. تخلّص من كلّ المصروفات غير الضرورية، كالمترو، والتليفونات، وتناوُل الطعام خارج المنزل، والذهاب للسينما وماشابه ذلك. كما ابتعد عن السّلع المكلّفة كاللحوم ومعظم الفواكه وحبوب الإفطار، وبذلك أمكنه أن يعيش بخمسة دولارات في اليوم. لم يكن لديه أية فكرة عمّا سيفعله بعد نهاية الشهور الثلاثة هذه. وبالأمس، في اليوم الأخير قبل عودة الصديق، اتصل مارك صدفة بتليفون هذا الصديق يبحث عنه لغرض ما فوجد رامي.

لم يكن رامي ومارك قد التقيا أو تحدثا منذ أكثر من عامين، لكن صداقة

قوية كانت قد توطّدت بينهما خلال إقامتهما في الشرق الأوسط لحساب الشركة منذ عدة سنوات. وقتها لم يكن أيُّهما يحتاج للمساعدة. مارك يقدم نفسه دائمًا باعتباره ابن أقليتين، في إشارة إلى أمّه الكاثوليكية وأبيه اليهودي. ورغم انعدام صلته بالدين اليهودي إلا أن اسم عائلته –نيومان– ومعرفته ببعض العبرية مكّناه من إقناع الشركة بإرساله لإسرائيل؛ لتسويق بعض منتجات الشركات المتعاقدة معها، وذلك في نفس الوقت الذي كان فيه رامي ذاهبًا لعمان لمدة سنة، ليعمل على تسويق هذه المنتجات في البلدان العربية.

لم يكن عملهما متداخلاً، لكنّهما تفاهما جيدًا سويًا، وأدارا عملهما بنجاح منقطع النظير خلال هذا العام من مكتب صغير استأجراه في العاصمة الأردنية. كان مارك يكره الإقامة في إسرائيل، ويشكو لرامي صعوبة التعامل مع الإسرائيليين ويدخل في مشادّات لا تنتهي معهم، ومن ثمّ قرر الإقامة في عمان التي كان يحب هدوءها وناسها. وقد جعل ذلك رامي أكثر انفتاحًا إزاءه، إلا أن الذي حبّبه فيه فعلاً هو قدرته غير العادية على اختراق حواجز الحرج والتحفّظ التي يحتمي بها رامي. مارك يتحدث بصراحة ودون خجل عن مشاكله مع عائلته ومع نفسه، ومع ديانته ومع الجنس الآخر، ومع عمله ومع الحياة في أمريكا، لدرجة أنست رامي أنه أمريكي. وبدأ رامي نفسه ينفتح في التعامل معه حتى أصبحا يقضيان معظم الأيام سويًا في عمان، وفي أماكن أخرى بالأردن لم يكن رامي يدري بوجودها أصلاً. عملا سويًا وعاشا سويًا، وسافرا كثيرًا ونجح عملهما نجاحًا باهرًا، وصنعا لنفسيهما ثروة صغيرة وكثيرًا من الذكريات،

ثمّ عادا، وبعدها بقليل تشاجر مارك مع مديرهما وترك العمل بالشركة، ثمّ انتقل للعمل مع شركات منافسة، وانقطعت أخباره وتفرّقت بهما السّبل. انشغل رامي في حياته وعمله وأهله والمحيطين به، وغاب مارك عن دائرة اتصالاته حتى ذبلت الصلة بينهما. وهاهو فجأة على التليفون بالصدفة. سأله مارك عمّا يفعله في غرفة الصديق المشترك، وعلى غير عادته تجاوز رامي حاجز الكبرياء، وأفضى لمارك بما ألَمّ به خلال العام المنصرم. عرض عليه مارك فورًا الانتقال للإقامة معه في منزله ببروكلين. قال إنه يمكنه البقاء مثلما يحلو له، ويمكنه أن يترجم بعض الأشياء للشركة التي يعمل بها، فهناك دائمًا بيان صحفي أو شيء ما يحتاج للترجمة، وربما يمكنه أن يترجم بعض الأشياء لموقع الشركة على الإنترنت أيضًا. فهم يعملون مع شركات خليجية، ومن وقت لآخر يحتاجون لترجمة شيء صغير بسرعة، وهي شُغلات صغيرة لكنّها تُدرّ مالاً. ربّما يستطيع أن يعمل منها خمسة أو ستة في الشهر، بما يدر عليه حوالي ألف دولار، وهو مبلغ لا بأس به في ظلّ الظروف الحالية. ثمّ من يدري، ربّما يخلو مكان أو يظهر شيء. هناك دائمًا أشياء تظهر إن كنت تعرف أحدًا، ومعارف مارك كثيرون. والشقّة كبيرة، ومن ثمّ لن يكون في طريق أحد.

هناك أيضًا السيارة النصف نقل الحمراء التي اشتراها مارك مُؤخرًا، ويمكنه أن يستخدمها في غيابه إن أراد. قال له مارك أن يأتي ولا يشغل باله بشيء، فما الحاجة للأصدقاء إن لم يكن في هذه الأوقات العصيبة. كان لطيفًا وودودًا، تمامًا مثلما كان أيام الإقامة في عمان، و لم يكن لدى رامي أيّ حل آخر، فقبل عرضه. اتصل بأستاذه القديم قبل سفره؛ ليرى ما إذا

كان موجودًا وراغبًا في رؤيته، فعزمه على العشاء بمناسبة زيارة حفيدته. أشعره ذلك ببعض الراحة، كأنّه هو القديم وله أصدقاء ومعارف، وبيوت تدعوه. اشترى التذكرة بمعظم ما بقي معه من مال، وها هو ذا، في قطارٍ ذاهب لنيويورك لكن بعد فوات موعد العشاء، وربما موعد مارك أيضًا. حقيقةٌ، المصائب لا تأتي فُرادى.

خطر بباله أن يسأل الدكتور درويش عن وظيفة، لكنّه طرد الفكرة من رأسه بسرعة: لن يجرؤ، مهما كانت حالته سيئة. لا يستطيع إهانة نفسه لهذا الحد. علاقته بمارك تسمح بذلك، أما الدكتور درويش فأمر آخر. عليه الحفاظ على ما بقي له من احترام في أعين الناس الذين يعرفونه ويحترمونه. لا يستطيع أن يفقد هذا. كما أن الدكتور درويش لن يمنحه وظيفة بعد ماجرى بينهما في الماضي حتى لو كان لديه واحدة. لا، لا يستطيع طلب المساعدة من الدكتور. لكن سلمى يمكن أن تساعده.

سلمى تعرف ساشا منذ كانت تأتي لقضاء الصيف في نيويورك. صحيح أنهّما ليستا على علاقة وثيقة، لكنّهما كانا يستلطفان بعضهما كثيرًا وهما صغيرتان. كانت ساشا تلحّ عليه أن يصطحبها حين تعلم أنه ذاهب لزيارة الدكتور درويش وأنّ سلمى موجودة. كانت الطفلتان تحبان قضاء الوقت سويًا، أحيانًا كثيرة دون أن يفعلا شيئًا. فسلمى وقتها لم تكن تتحدث الإنجليزية سوى ببضع كلمات وجمل مفككة. وطبعًا ساشا لا تعرف العربية. لكنّهما يلعبان مع بعضهما دون ملل، في غالبية الأوقات دون وجود لعبة حقيقية – مجرد دمية تكفي. وكان هو يحب صداقتهما لأنّها توحي له بما يشبه إمكانية تحول ابنته لفتاة مصرية، على الأقل يومًا

ما إذا ما أصبح لديها صديقات في مصر. كما كانت ماريا زوجته تؤيد هذه العلاقة؛ لأنّها تتيح لها التخلّص من ساشا بضعة أيام. وحين يذهبون لمصر في الأجازات كانت الفتاتان تلتقيان – دون أمهاتهما اللتين يرتبان الزيارة بالتليفون. كبرت سلمى وتوقّفت أمها عن المجيء لنيويورك لسبب لا يعلمه رامي. لكن الفتاتان وجدا بعضهما بالصدفة على إحدى شبكات التواصل الاجتماعي الموجودة على الإنترنت، وأصبحتا تتبادلان الرسائل من وقت لآخر.

لم تذْكر له ساشا شيئًا عن سلمى منذ بدأت الأحداث، وهو لا يعلم شيئًا عن موقفها مما حدث بينه وبين البنتين، أو حتّى ما إذا كانت تعرف بما حدث. لكنّه يريد أن يراها كي يحكي لها ويسألها عن رأيها. ربّما تساعده. ربّما يمكنها أن تقنع ساشا بأنّه لم يقصد إيذاءها أو إيذاء أختها، بأنّه لم يفكر في اختطافهما أبدًا، بأنّ ذلك ظلم وجنون. ربّما لو اقتنعت سلمى لأمكنها أن تقنع ساشا بحسن نواياه. ربّما أمكنها تذكيرها بأنّه أبيها. أو على الأقل، يمكنها أن تخبر ساشا نيابة عنه أنه يحبها رغم كلّ مافعلت، هي وأختها المجنونة. وربّما لو اقتنعت سلمى، ثمّ ساشا، ثمّ مارتا، لأمكنه أن يراهما من جديد، بعد أن تستقر أحواله مع مارك في بروكلين، بعد أن يجد عملاً جديدًا، ويقف مرة أخرى على قدميه. لكن ماذا سيفعل الآن؟ ربّما يستطيع العثور على سلمى في الصباح، إن لم تكن عائدة لمصر فورًا – لا، لا بد أنها باقية على الأقل لليوم التالي. ولكنّ هل سيجده مارك الليلة، وكيف؟ وماذا لو لم يعثر على مارك هذه الليلة، أين يذهب؟

طرد هذا السؤال فورًا. ذكّر نفسه بعدم جدوى الخوف. صحيح أن

أحداث العام الماضي كانت كابوسية، لكنّها في نفس الوقت حرّرته من خضوعه لمخاوفه السرية. عندما يحدث لك الأسوأ، لا يتبقّى عندك الكثير كي تخاف عليه. ما اكتشفه رامي خلال العام أنه قد عاش حياته كلّها وهو يخاف، ويكتم الخوف عن نفسه. أدرك، بعد أن انهار كلّ شيء من حوله، أنه كان يخاف بالضّبط من حدوث ذلك. ظلّ يعمل ويكافح، ويبني علاقات حسنة بمن حوله، ويتفادى المشاكل، يُخلص للنظام ويتفادى أيّ أمر يمكّن أن يضعه في موقفٍ مخالفٍ للقانون أو للعرف. إقراراته الضريبية ملأها بمنتهى الأمانة، دفع كلّ فواتيره في موعدها، لم يخالف قانون المرور أبدًا، لم يرفع صوت الموسيقى يومًا في بيته، لم يُخرج القمامة في غير موعدها، لم ينظّم حفلاً في غير أيام نهاية الأسبوع، لم يشعل نارًا في غابة خارج الأماكن المسموح فيها بذلك، لم يشوِ لحمًا على الشاطيء، لم يفعل أيّ شيء يمكن أن يُفسّر على أنه استهتار بالقواعد العامة، سواء كانت قانونًا أم مجرد عادات، وذلك على أمل أن يحتويه النظام ويحميه، فلا يجد نفسه يومًا في المواقف التي يجد فيها الكثير من المهاجرين أنفسهم: في الشارع، مطرودين من أعمالهم وحياتهم الاجتماعية تتهاوى من حولهم. لكن ذلك بالضبط ماحدث له. واستطاعت ماريا، التي كانت دومًا أكثر منه حيلة وأسرع، أن تُجنّد النظام لصالحها وتلوي قواعده، بحيث وجد نفسه في الشارع وحياته تتهاوى. لم يُسعفه أحد، لم يقف أحدٌ لنجدته، حتى بقّال الحي لم يدعه يأخذ مشترواته حين رفضت ماكينة الدفع قبول بطاقة ائتمانه. انفضّ عنه الجميع تمامًا مثلما كان يخشى.

في منتصف الطريق، في وسط تسلسل الأحداث الدرامية التي وقعت

له، توقّف أكثر من مرة ليفكّر فيما يحدث. هل كان ذلك حتميًا فعلاً؟ ألم يكن يستطيع التراجع في المنتصف؟ لو كانت ماريا قد عبّرت له عن تفهّمها لمشاعره في بداية الأمر بدلاً من تهديدها له، لربّما لم يكن الأمر قد تطور بالشكل الذي تطوّر إليه. لو لم تكن مارتا بالسفالة التي أبدتها بعد ذلك مباشرة – وبدعم من ماريا، لربما لان موقفه ساعتها. ولو لم يكتشف أن ماريا كانت تسجّل محادثاتهم سرًا لما صمّم على الطلاق بهذا الشكل. لكن شيئًا أسلم لآخر، حتى وجد نفسه في هذا القطار.

أثناء الشهور الثلاث الأخيرة، بعد أن توقّف عن محاولة استئناف الأحكام الصادرة لصالح زوجته، بعد أن استسلم لقدره الجديد – بل ووجد فيه بعض الراحة، قرّر أن ينفّذ ما اتهمه به الجميع؛ أن يعود لمصر. ضحّى بمقرّر الغذاء ليومين واشترى بطاقة اتصال دولي، واتصل بأخيه في القاهرة. استمرّت المكالمة الأولى ست وأربعين دقيقة، شرح خلالها لأخيه ماحدث خلال الشهور التسعة الأخيرة وما آلت إليه أحواله، وأخبره عزمه العودة لمصر، وتناقشا فيما يمكنه أن يفعله حين يعود. واتفقا في نهاية المحادثة على أن يتصل رامي به ثانية بعد ذلك بأسبوع، بحيث يكون قد استطلع بعض الأمور لتُمكّنه من اتخاذ قراره.

قضى رامي هذا الأسبوع يرسم خُطط العودة، وما يمكنه أن يفعله حين يعود. يجلس في حديقة عامة معظم النهار، ويسجل في دفتر صغير أسماء كلّ من كان يعرفهم في مصر، وآخر مرة تحدّث مع أو قابل أيًا منهم، وآخر ما لديه من معلومات عن هذا الشخص. في يوم آخر يذهب للمكتبة العامة، ويبحث على الإنترنت في الأنشطة التجارية الموجودة بمصر التي

لها علاقة بخبرته، ويتصفّح مواقع شركات الإعلان والدعاية والعلاقات العامة، ثمّ يكتب ملاحظات حول أنواع العمل التي يمكن أن يقوم بها، وأسماء وبيانات الأماكن التي يجب أن يستطلعها. في يوم ثالث يسجل ملاحظات حول المكان الذي يمكنه أن يقيم فيه. في البداية طبعًا سيقيم عند أخيه. ويمكن أيضًا أن يقيم بشقتهم الصغيرة في الإسكندرية حتى تستقر الأمور. يسجّل ملاحظة بذلك، ثمّ تذكّر البيت الذي كان والداه يقيمان به في كوبري القبة، ربّما يكون من الأنسب أن يقيم بهذا البيت، فيسجّل ملاحظة كي يسأل أخيه عنه، وهكذا. ما تبقّى في بطاقة الاتصال يكفي للحديث لمدة ست عشرة دقيقة؛ فكّر أن يشتري بطاقةً أخرى، لكنّه قرر في اللحظة الأخيرة ألا يفعل. سيتّصل ويتحدّث مع أخيه بما لا يتجاوز هذه الدقائق، ويشتري البطاقة بعد ذلك للمكالمة التالية. وقد كان قراره صائبًا، لأنّه بهذا قد وفّر لنفسه عشرة دولارات ستُطعمه لمدة يومين كان سيخسرهم دون سبب. فالمكالمة الثانية لم تستغرق أكثر من ست دقائق، ومازال رامي يحتفظ ببطاقة الاتصال ودقائقها المتبقية في محفظته.

رامي رجل مُهذّب وودود، ولا يحب المواجهات ويميل لالتماس العذر للآخرين، لكن ذلك لا يعني أنه عبيط. وقد فهم من الدقيقة الأولى للمحادثة ما يريد أخوه أن يقوله له، وبعد أن قضى دقيقة ونصف يستمع لتلعثمه سأله مباشرة إن كان ينصحه بعدم العودة لمصر، فأراح أخاه من عناء اللف والدوران، ووفّر لنفسه دقائق إضافية في بطاقة الاتصال. ردّ أخيه بالإيجاب، ثمّ قضى دقيقتين أخرتين يشرح لماذا يعتقد أن عودته في هذه الظروف ستكون كارثة؛ تضعه في موقفٍ لا يحتمل اجتماعيًا، وتضرّ

بالأسرة كلّها، وكيف أنه لن يستطيع أن يقف على قدميه في سوقٍ لا يعرف عنه شيئًا ودون مهنة مطلوبة في مصر، وفي سنّه هذا ومع استحالة تأقلمه مع الحياة في مصر في ظلّ تعوّده على نمط الحياة الأمريكي. وعندما سأله عن بيت الوالدين ردّ أخوه بعصبية أن النبش في مثل هذه التفاهات لن يحلّ المشكلة، وأنّه مُرحّب به إن أراد القدوم ضيفًا لأي مُدةٍ يريدها، أمّا فكرة الاستقرار في مصر فهي أمر آخر، ومتطلباته لا يقوى عليها. شكره رامي لصراحته وتواعدا على مداومة الاتصال، وأغلق الخط قبل أن يستهلك دقيقةً سابعة بلا جدوى.

يفكر رامي في كلّ ذلك، ويهز رأسه ساخرًا من نفسه ومن حياته. يُعيد عدل ياقة الجاكت للمرة العاشرة، ويرقب بقلق من نافذة القطار. الراكبة الشابة غادرت في المحطة السابقة. عربة القطار خاوية تقريبًا يبدو أن القطار يدخل محطة "بن–نيويورك". فجأة عاد السؤال: ماذا لو لم يعثر على مارك أمام بيت درويش؟ كان الاتفاق أن يأتي لاصطحابه بعد العشاء، وقال مارك إنه سيأتي قبل منتصف الليل بقليل. ماذا لو كان قد جاء وانتظره ورحل؟ أو سأل الدكتور درويش فقال له إن رامي لم يأتِ للعشاء فظن أنه غير الخطّة ورحل؟ أين سيذهب رامي بدولاراته الأربعة عشر الأخيرة؟ ليس لديه شيء: لا مال ولا بطاقة ائتمان ولا أي شيء. ولا يعرف حتى أين يسكن مارك. يمكن أن يُحاول الاتصال به، لكن ماذا لو كان تليفونه مغلقًا أو خارج الخدمة. أين يذهب؟ وماذا لو كان مارك قد عرض عليه المجيء من باب الإحراج أو حتّى الخداع؟ لكن لماذا يخدعه مارك؟ لماذا يجرّه إلى هنا ويعطيه أملاً كاذبًا إن لم يكن يريد مساعدته؟

هل يريد الانتقام منه لشيء فعله في الماضي؟ يفكّر بسرعة إن كان قد فعل شيئًا لمارك في الماضي ولا يجد. فلماذا يجرّه إلى هذا المكان كي يتخلّى عنه إذًا؟ لماذا يتودّد إليه حتى يدفعه للقفز في ذراعيه، ثمّ يتركه يهوى على الأرض؟ لكن يمكن أن يرحل مارك من الزهق، بعد أن ينتظر ولايجده.

عقل رامي يعمل بسرعة شديدة الآن، والقطار يتوقّف داخل المحطة. أين يذهب لو لم يجد مارك أمام منزل درويش؟ أين يقضي الليلة؟ لا يمكنه أن يطلب من الدكتور درويش إيواءه، لا يجروءْ على ذلك، ويعلم أن الدكتور درويش لا يحب هذه الأشياء البتة. ماذا يفعل إذن لو لم يأت مارك؟ هل يجد فندقًا يقبل به دون بطاقة ائتمان؟ وكيف سيدفع؟ هل يمكن أن ينزل في فندق رخيص، ثمّ يبحث عن عمل ويدفع عندها؟ لكن من الذي سيوظّفه؟ لقد حاول في ميامي و لم يلقَ سوى السخرية. لم يتمكن حتى من العثور على وظيفة ساقي في بار؛ لا خبرة له، ولا أحد يريد رجلاً في منتصف العمر وذي لكنة وسحنة عربية. ربّما يجد وظيفة في محلّ برجر، في المطبخ. لن يلحظ أحد لكنته هناك، لا زبائن ولا أطفال ممتعض وجوههم حين لا يفهمون حديثه. ولكنّ كيف يجد وظيفة في محل برجر اليوم أو خلال أسبوع؟ لا، لن تسير الأمور بهذه الطريقة. يفكر إن كان يعرف أحدًا يمكنه أن يساعده؟ هل يبتلع ما بقي له من كبرياء ويطرق باب الدكتور درويش في منتصف الليل ويسأله أن يأويه؟ ثمّ يسأله في الصباح أن يجد له عملاً؟ لا يمكن، لن يجروءْ، وإن طرق الباب فلن يفتح له أحد في هذه الساعة. من سيساعده إذًا؟ هل يبيت في سنترال بارك؟ وإلى متى؟ معه أربعة عشر دولارًا يمكنه أن يعيش بها ثلاثة أيام لو قضى اللّيل في سنترال

بارك. لكن ماذا يفعل بعد ذلك؟ يفكّر ويعلم أنه يتوه بأفكاره: لا يعرف أحدًا أصلاً كي يسأله المساعدة. لكن لم سيختفي مارك؟ ألم يكن هو من عرض المساعدة؟

الركاب يغادرون القطار، ورامي يجر قدميه وحقيبته شبه الفارغة. الركاب القلائل يخرجون من القطار بسرعة؛ إما يقابلهم أحد أو يتوجّهون بثقة لمكان ما، أما رامي فيسير وهو يُقدِّم رجلاً ويؤخّر الثانية. يمشي وكأنّه لا يريد أنّ يمشي. يؤخر خروجه من الرصيف لصالة المحطة كأنّه يؤخّر مقابلة مصيره الذي لم يعد يعرف كيف يواجهه. يخاف السّاعات القليلة القادمة، والقرار الذي يجب أن يتّخذه ولا يعرف ماهو. يجرّ حقيبته ويسير بخُطىً مُتثاقلة ويكاد لا يقوى على رفع عينيه ناحية صالة المحطة في نهاية الرصيف. لكنّه يسير، مُضطرًا، ويلقي بنظرة خاطفة نحو الصّالة المظلمة لعلّه يجد مارك واقفًا. لكن لماذا يظن أن مارك يمكن أن يأتي للمحطة وقد اتفقا أن يلتقيا عند بيت الدكتور درويش؟ يسأل نفسه مرةً أخرى إن كان قد أعطى مارك العنوان الصحيح. يصل لصالة المحطة ويلقي نظرة سريعة على المكان؛ لا أحد في الصالة غيره، طبعًا لا أحد. المطاعم مُغلقة والأضواء خافتة. فكّر أن عليه الإسراع ليلحق بالمترو الذاهب لبيت الدكتور درويش، لكنّه لا يجد طريقه للمترو. كلّما ذهب من ممر وجده مُغلقًا. "ربما يمكنني أن أبيت هنا، على هذه المقاعد، وفي الصباحَ أذهب لمقابلة الدكتور درويش وسلمى، وأبحث عن مارك من هناك". فكر وقرّر، وواصل السير في ممرات محطة بن بحثًا عن مكانٍ ينتظر فيه الصباح.

3

فرسان الدمار

سأنتظر ساعةً أخرى، مازال هناك وقت قبل موعد عشاء سلمى. رشفت من قدح الماكياتو الرابض أمامي على المنضدة. كلّ عشر دقائق يرمقني النادل بنظرة خالية من أيّ تعبير، كأنه يتأكد أنّي مازلت هنا. أعلم أن هيئتي لا تلائم المكان، لكن سيليا فضلته. اقترحت عليها مقهى المحطة المركزية، فهو أكبر، وزبائنه أقل تنمقًا من هذا المكان. كما كان من المفترض أن تصل سلمى من واشنطن في وقت مقارب، وفكّرت أن أنتظرها بالمحطة بعد مقابلة سيليا وأصطحبها للبيت؛ ستحبّ سلمى ذلك، فهي تحبّ أن ينتظرها أحد. لكن سيليا قالت إنها تفضل "ماكياتو" لقربه من مكتبها. لم أجادلها. سألقاها لمدة ساعة على الأكثر، ولا وقت للجدل

في مكان اللِّقاء. قالت: "دعنا نلتقي في ماكياتو؛ هل تذكر هذا المقهى؟"، طبعًا أذكره، هي التي جاءت بي هنا أول مرة. كنا في وسط يوم عمل لا ينتهي في مبنى الأمم المتحدة القريب، وقالت لي بدلال إنِّي أرهقت نفسي في العمل وأستحقُّ جائزة، وإنّها ستأخذني لمكان جديد. تبعتها وقادتني لهنا. همست أن قلة مختارة تعلم بوجود هذا المقهى، وجعلتني أعدها ألاّ أدل أحدًا عليه دون استئذانها. لكنه تحوّل بعد ذلك بأسابيع قليلة لملتقى موظفي الأمم المتحدة كلّها؛ لا شيء يبقى سرًا في هذا المكان.

موعدنا في الخامسة. وصل قطاري بعد الظهر و لم يكن لدي ما أفعله، فذهبت لشراء بيجيل من شارع 21 وعدت. طلب أبي أن أحضر له بعض البيجيل. سألته إن كان يريد شيئًا فقال بيجيل. لم يقل بيجيل من مونتريال، ووجدت من العبث أن أشتريه من هناك: لن يكون طازجًا بعد اثنتي عشرة ساعة في القطار، ولن يأكله. ومن ثمّ قررت شراءه من نيويورك. أتذكّر هذا المحل؛ كان يأخذنا إليه ونحن صغار. تسكّعت في الجادة الأولى حتى شارع 21 حيث اشتريت المطلوب، وعُدت سيرًا على الأقدام. لابدّ وأنّ هيأتي مشعثة تمامًا الآن. رواد البار يشعّون أناقة، بل شيئًا أكثر من الأناقة. مزيجًا من النفوذ والاستغناء والانشغال، كأنّهم لا يعوزهم شيء. وقتهم محدود ويريدون إنفاقه فيما أتوا له –بعض اللهو أو الإسبرسو أو دردشة؛ كي يفكّوا أعباء العمل ويضعوا مسئولياته جانبًا– قبل أن يركضوا لموعد آخر، أو عمل آخر، أو سهرة أخرى غالبًا ما تجمع اللّهو والعمل سويًا. يرتدون بدلات غامقة، بين الرمادي الغامق والأسود، وربطات عنقهم

محلولة تمامًا أو مُنحّاة عن رقابهم قليلاً. قمصانهم فاتحة، ولا أحد فيهم ينظر لملابس الآخر أو يعاينها: فهم يعلمون أنّهم كلّهم يرتدون ملابس باهظة الثمن. ربّما يتوقّف واحد ليبدي إعجابًا بربطة عنق أو بصوف بدلة محدثه لكن ذلك هو الاستثناء. القاعدة أن تتجاهل هذه الأشياء وتترفّع عنها – بعد أن تكون أتقنتها حتى صارت جزءًا منك. لا يأتي ذلك إلا بعد مِران، شأن اللّياقة البدنية، وتذبل سريعًا إن خرجت من الحلبة. أعرف بعضَ الوجوه هنا، فقد عملنا في نفس المنظَّمة. هناك وجوه تظلّ تتذكّرها بلا سبب؛ ربّما تقابلنا في أحد اجتماعات التنسيق التي لا تنتهي. نرى بعضنا، ونعرف ربّما بعض أسمائنا، لكن لا شيء يدعونا لتوثيق المعرفة أكثر. أعرف هيئتهم تلك جيدًا، فقد كانت هيئتي لسنوات طوال. أما الآن فأجلس وحدي، أرتدي ملابس تكاد تكون رثّة، أنتظر سيليا التي تأخّرت في المبنى، وأحمل كيسًا ورقيًا به بيجيل لأبي.

اتصلت بأبي لأسأل عن موعد وصول سلمى، فقال لي بضيق شديد –أعرف هذه النبرة– إن "سلمى هانم" فوتت قطارها، ولن تأتي قبل منتصف الليل. منتصف الليل؟ سألت، ومافائدة عيد الميلاد إذن؟ رد عليَّ بنفاذ صبر أن هذا ليس عيد ميلاد بل عشاء، ثمّ تساءل بسخرية عمّا إذا كنت أنتظر وجود بالونات وطراطير، وطلب مني ألاّ أتأخرّ عن السابعة.

في الخامسة والربع دقّ جرس تليفوني، سيليا:

– اتصلت بك منذ نصف ساعة، لكن تليفونك كان خارج الخدمة. أين أنت الآن؟

– ماكياتو مثلما قلت.

– آسفة، لكني سأتأخر قليلاً. هناك "حادث" في دارفور، وسأضطر للبقاء في المبنى لساعة أخرى حتى أنتهي من إعداد البيان.

– حادث من أي نوع؟

– المعتاد.

– أين؟

– في الفاشر.

– كبير؟

– لا، المعتاد، التفاصيل لم تتّضح بعد، لكن هناك حوالي خمسة قتلى.

– حوالي؟

– نعم، التقارير متضاربة.

– ماذا يقول موظفونا في الميدان؟

– كل مكتب يذكر أرقامًا مختلفة. أنت تعرف، هذا جزء من المشكلة. ومكتب الأمين العام يريد التأكّد من الرقم، قبل أن يقرّروا لهجة البيان.

– هل لديك فكرة كم من الوقت سيستغرق هذا؟

– ربما ساعة أو ساعة وربع. لن يستغرق الأمر أكثر من ذلك، هذا حادث اعتيادي. سأتأكد فقط من الرقم، ثمّ أضبط اللّهجة، وأمرر المسودة من المدير ومن البعثة في الخرطوم، وأرسلها للدور الثامن والعشرين.

– سأنتظر، لكن تذكّري أن لدي عشاء ببيت أبي في السابعة.

– ألا تستطيع التأخر ساعة أو ساعتين؟

– هل تمزحي؟ هل نسيتي أبي؟

– سأفعل ما في وسعي، وسأحيطك علمًا بالتطورات.

– سأنتظر.

"سأنتظر"، قلت لرئيس بعثتنا، "سأقضي الليلة هنا وأعود غدًا". في البداية رحّب بمبادرتي، فلم يكفّ النهار الذي قضيناه في معالجة المشكلة، ويجب عليه أن يعود بالطائرة للخرطوم قبل الغروب. قواعد تشغيل الهليكوبتر تقتضي ذلك، ولا حيلة لنا. سأقضي اللّيلة هنا، كي أتحدث أكثر لهؤلاء النازحين الثلاثة الذين قبلوا بأنّ يشهدوا على مايحدث في المعسكر. سأوثّق شهاداتهم، ثمّ أتحدّث للمشرفين المحليين على المعسكر؛ للتأكد من سلامتهم وعدم تعرض السلطات لهم بعد رحيلي، وألحق بطائرة الغد. لكن رئيسي عاد واعترض:

– ليس لديك تصريح من أمن البعثة بالمبيت في المعسكر، وقواعد المنظّمة تمنع مبيت الموظفين دون هذا التصريح، بسبب التأمين.

– ماذا؟ التأمين؟

– نعم ياسيدي، آخر اختراعات إدارة الأمن وشئون الأفراد!

تناقشنا، واتفقنا في نهاية الأمر على تجاهل هذه القواعد البيروقراطية. يجب أن يظلّ أحدنا، وينهي المهمة التي أتينا من أجلها. لقد مرت شهور ونحن نتحدث عمّا يدور في المعسكر من انتهاكات، وما يتعرض له النازحون من اعتداءات تحت سمع وبصر السّلطات، والسّلطات تنفي وتقول ألا دليل. شهادات عمّال الاغاثة والأطباء الذين وثّقوا حالات الاغتصاب، والأعضاء المحطّمة، والأطراف المبتورة – كلّ هذا لم يجد نفعًا لأنّ أحدًا من النازحين الأحياء لم يجسر على الادلاء بشهادته. نهبط

بطائراتنا على الأرض الطينية الحمراء، وعشرات الأطفال يحيطون بالطائرة غير عابئين بسحابات التراب التي تلفّهم. نخرج من الطائرة فيحيونا تحية الفاتحين، ثمّ نندسّ في سياراتنا الكبيرة ذات الدفع الرباعي التي تنطلق مُحدثة زوابع أخرى من الأتربة. نشق المدقّات والطرق الترابية مسرعين نحو المعسكر. نمرّ بجوار صفوف العشش الصفيح التي يقطنها النازحون منذ سنوات على أمل العودة لقراهم، ونظر الجميع مُعلّق بموكبنا. نصل لقلب المعسكر، وننتهي بسرعة من شكليات استقبال السلطات لنا.

مُمثلوا السلطات يحاولون بشتّى الطرق إضاعة الوقت: يُصرُّون على تناول الغداء معهم. نرفض بأدب فيتظاهرون بأنّ ذلك يُشكل إهانة في الثقافة المحلّية، وهنا يتم إدخالي في الصورة. تصبح هويتّي العربية محورية فجأة: أُحدّثهم بلكنتي المصرية فيدركون أن حيلتهم الثقافية مكشوفة، فينتقلون لغيرها. وبعد نصف ساعة من المراوغة ينتهي بنا الأمر بما أتينا له: الحديث للنازحين. نجلس تحت شجرة وهم يلتفّون حولنا. يتحدّثون جميعًا في وقتٍ واحد، يصرخون معظم الوقت مُكرّرين مطالبهم التي نعرفها، ومُتبرّمين من سوء الحال في المعسكر، ومُطالبين بتوفير الأمن لهم. نسألهم عن الاعتداءات، فيقولون إنهّم يتعرّضون لها يوميًا. نسألهم عن المعتدين فيقولون الجنجويد. نسألهم عن هوية الجنجويد، فيقولون إنّهم العرب، وإنّهم في كلّ مكان، ومنهم من يعمل في المعسكر، بل منهم نازحين متنكرين، بل منهم عمال إغاثة. أُترجم هذا الكلام لرئيسي، وينفد صبرنا شيئًا فشيئًا. لا نريد المزيد من هذا الهراء؛ نريد كلامًا مُحددًا، منطقيًا ومتماسكًا وقابلاً للتصديق، ويصلح لإثبات التهم والإدانة. نريد

كلامًا مثلنا. لكن النازحين ليسوا مثلنا. إلاّ اليوم. هذه المرة انبرى شابان في العشرينات، وفتاة في الخامسة عشر، وقالوا لنا كلامًا مُحددًا وسمّوا المعتدين، وقالوا إنّهم يستطيعون التعرف عليهم ومستعدون للشهادة. استدعى رئيسي المشرف العام على المعسكر، وحمّله مسئولية سلامة هؤلاء الثلاثة فطمأنه الرجل، وقررت أن أبقى لأنهي المهمة: لن أترك هذه الفرصة تمر.

اتصلت سيليا:

– أين أنت يايوسف؟

– في الفاشر.

– ماذا؟ كيف؟ ألم ترحلوا؟

– سأبقى الليلة، الرئيس عاد مع الفريق. لديّ عمل أنهيه هنا، وسأعود غدًا. أنتِ في المكتب؟

– نعم.

– لا تسهري كثيرًا.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أقضي فيها الليل بدارفور، فعملي إما في العاصمة أو خارج البلاد؛ في أديس أبابا أو نيروبي، أو ندجامينا أو أبوجا، أو نيويورك. لا آتي هنا إلا نادرًا، رغم أن هنا هو موضوع عملي. تغيّر شكل المعسكر كثيرًا بعد رحيل رئيسي؛ هدأت الضجّة، وعاد النازحون لعششهم، تفرّق عمّال الإغاثة، وغادر معظمهم المعسكر عائدين لمكاتبهم، وتولّى مندوبوا السلطات القيادة مرة أخرى. تجوّلت في المعسكر بعض الوقت بصحبة أنريكو، أحد موظفي الإغاثة، مصحوبين

دائمًا بمندوبي السلطات "لحمايتنا"، ثمّ جلست مع الشهود الثلاثة وحدنا. تحدّث الشابان بطلاقة عن الاعتداءات التي تحدث. الاثنان من قبيلتين مختلفتين، لكنّهما درسا القانون في جامعة الخرطوم لمدة عامين، قبل أن يقعدهما القتال عن الدراسة. حكيا لي عن قريتيهما، حكايتين مختلفتين ولكنهما متشابهتان. جاء الفرسان وهاجموا القرية: حرقوا العشش التي يسكن بها أهل القرية أولاً، ثمّ قتلوا المواشي وألقوا بجثث بعضها في بئر الماء الوحيد ليسمّموه هاجموا الرجال فقتلوا من قتلوا، وقطعوا سيقان من لم يقتلوا، وفرّ الباقون. وعندما بدأت القرية في الفراغ من سكّانها هاجموا النساء، واغتصبوا عددًا منهم نكاية في أهل القرية، ثمّ فرّوا كعاصفة التراب مثلما أتوا. قالا إن بقية سكان القرية رحلوا في نفس الليلة، سيرًا على الأقدام، بعد أن جمع كلّ منهم ما استطاع من متاع، حتى وصلوا للمعسكر. لكن أهل القرى الأخرى أخبروهم أن المعتدين عاودوا الكرّة في القرى الأخرى، فنكّلوا أكثر بمن بقي فيها. لم يكن في أي من هذا بجديد، سمعت هذه القصّص عشرات المرات. سألت عن الوضع في المعسكر، وكيف تحدث اعتداءات هنا رغم وجود السّلطات والأمن المحلّي، وهنا انبرت الفتاة بمساندة الشابين.

تحدّثت بثبات وبوضوح وهي تنظر في عيني. قالت إنها والبنات تذهبن لجمع الحطب كلّ يوم، وفي كلّ يوم تتعرّض لمضايقات من الحراس والمشرفين على المعسكر، لكن المضايقات أمر عادي. المشكلة في الهجمات التي يشنّها الجنجويد من وقت لآخر على أطراف المعسكر. سألتها عن التفاصيل، فقالت إن هناك في المعسكر من يبلّغ الجنجويد بكل المعلومات

التي يريدونها، وسمّت لي أشخاصًا بعينهم ونسبهم القبلي والوظيفي. لم يكن من بينهم المشرف العام الذي وصفته بأنّه مسكين لا يفهم ما يجري حوله، ولكنّ هناك آخرين يعملون تحت رئاسته، ولديهم صلات مباشرة بالأمن، "وهم الذين يهددوننا"، قالت. سألتها لماذا يهدّدونهم، فأجابت بأنّ الحكومة تحاول إجبارهم على الرّحيل من المعسكر إلى قرىً أخرى أقاموها لهم تبعد عن قراهم الأصلية وعن أراضيهم بمئات الكيلومترات، لأنّهم يفرغون الأرض الأصلية لحساب القبائل التي تهاجمهم، ومن يرفض الترحيل لهذه القرى يتعرّض للاعتداء. سألتها إن كانوا قد طلبوا الرحيل من أهلها فأومأت. سألتها عن ردّهم، فقالت إنهم رفضوا. سألتها إن كانوا قد تعرّضوا للتهديد فأجابت بالإيجاب. استفسرت إن كان شيئًا قد أعقب هذا التهديد، فقالت بنبرتها الثابتة إنها تعرضت للاغتصاب هي وأمها وأختها.

رفع الساقي قدح الماكياتو، وسألني إن كنت أرغب في شيء آخر. شكرته، وطلبت قدحًا آخر وزجاجة مياه فوارة. أومأ وجمع ما كان على المائدة ومضى. الموائد صغيرة ومتقاربة ولونها أبيض. المقاعد بلا مساند ظهر – ربّما كيلا يبقى الزبائن أكثر من اللازم. معظم المناضد عالية بلا مقاعد: يقف حولها الرواد، ويشربون قهوتهم بسرعة، ويتبادلون خبرًا أو معلومة أو وثيقة مسربة، ثمّ يرحلون. لا أحد يظل جالسًا مثلي كلّ هذا الوقت. منك لله ياسيليا. لا أحد من رواد المقهى ينظر إليّ. يتحركون من حولي: يسحبون مقاعد، ليوسعوا عدد الجالسين حول منضدة أو يتنحّى اثنان جانبًا ليتحدثا، كلهم في ستراتهم الغامقة المشعّة ثقة، دون أن تستقر

عين أحد علي ولو بالصدفة: كأنِّي ومنضدتي قطعة من فراغ. هل أمسك بنفسي الآن وهي تفتقد هذا الشعور بالقوة وبالنفوذ؟ هل أفتقد الآن ما قلت إنِّي لا يمكن أن أفتقده أبدًا؟ هل أريد أن أكون في بدلة أحد هؤلاء، ممتلئًا بالضجر من عملي وفي نفس الوقت معتقدًا أنِّي شخص هام؟ معتقدًا أن عملي هام للغاية، وإن كنت أنكر ذلك من باب التواضع؟ التواضع ليس صفةً متواضعة، بل هو صورة متقدّمة من الغرور. التواضع يقتضي أن تكون في مكانة مرتفعة، وتهبط بنفسك عمدًا لمستوى من هم أدنى، كرم منك، لا أن تعتبر نفسك في هذا المستوى. كي تكون متواضعًا يجب أن تعتبر نفسك فوق مستوى الآخرين ابتداءً. كنت متواضعًا حينذاك، أمّا الآن فلا أستطيع التواضع، وأنا بلا وظيفة ثابتة أعيش على مدّخراتي القديمة في منزلي المتهالك بمونتريال، وأتظاهرُ بأنِّي أقوم بأبحاث من أجل كتاب لا وجود له. ليس هناك ما يدعوني للتواضع الآن. لكنّي فعلت ذلك باختياري: ذات يوم أيقنت أن شعور القوة هذا زائف، وأنَّ ما أعتقده نفوذًا ما هو إلا شبح للنفوذ. هل أمسك بنفسي الآن، وعيني لا ترتفع من فوق هؤلاء الذين يشبهون ماكُنته يومًا، وأنا أفتقد هذا الذي كنته وتركته طوعًا؟

دقّ جرس التليفون: سيليا مرة أخرى:

– نعم!

– أرجوك لا تقتلني، مازلت أنتظر.

– ألا تعرفون حتى الآن كم قتيلاً هناك؟

– بلى، لكن لسنا نعرف إن كان من بين القتلى مسلّحين.

– أي مسلحين؟ ألم تقولي إنه اعتداء في معسكر النازحين؟ هل النازحين مسلحين هذه الأيام؟

– لا داعي للسخرية يا يوسف؛ هناك أشياء كثيرة حدثت منذ رحيلك. من بينها ظهور مسلّحين فعلاً داخل معسكرات النازحين من أعضاء حركات التمرّد. هناك تقارير حكومية تقول إن ماوقع ليس اعتداءًا، وإنما اشتباك بين عناصر مُسلّحة من الجانبين. وهذا قد يغير لهجة البيان بالكامل.

– واضح أن شيئًا لم يتغيّر على الإطلاق. طيب هل تعرفين كم من الوقت أمامك؟

– هانت، ربّما نصف ساعة أخرى، متى ستسافر؟

– غدًا في الصباح.

– لابد أن أراك قبل أن تختفي مرة أخرى. ألا يمكنك تأجيل موعد سفرك غدًا؟

– لديَّ أشياء في مونتريال. ثمّ ما الفارق بين اليوم وغدًا؟

– سيكون لدينا وقت كاف للحديث بدلاً من هذه الهرولة.

– يمكن أن يقع حادث آخرُ غدًا، في الكونغو أو الصومال.

– طيب لماذا لا تأتي للمكتب؟ أنا جالسة لا أفعل شيئًا؛ فقط أنتظر، ويمكننا الحديث.

– سيليا! أنت تعرفين جيدًا أنِّي لن أضع قدمي في هذا المبنى.

– طيب طيب، سأبذل قصارى جهدي، لكن لا ترحل دون أن تقول.

– سأحاول.

أصدر التليفون صفيرًا قصيرًا ينبئ بقرب نفاذ شحنته الكهربائية. عظيم، هذا ماكان ينقصني. لا أدري ما الصّعب في أن أشحن تليفوني كلّ ليلة؛ لماذا أنسى هذا؟ وبالطبع لا أعرف أين وضعت الشاحن، ربّما يكون في أيّ مكان في حقائبي، وربما أكون قد تركته في المنزل أو حيث كنت. اللعنة على الغباء. نحّيت التليفون جانبًا: سأحاول أن أُقلّل من استخدامي له لأقصى درجة، كي أتمكّن من الاتصال بسيليا، ومتابعة تطور الموقف.

أنهيت حديثي مع الفتاة والشابين بعد ساعتين تقريبًا. قصت الفتاة علي بأبشع تفصيل ماحدث لها ولأختها وأمها، وخلال حديثها لم تتغيّر نبرة صوتها ولا مرة واحدة، لم يرق أو يضعف، لم يند عنها شبه تنهيدة، أو بوادر اختناق صوت كما يحدث للبشر. كانت كأنّها آلة تروي قصة مسجّلة. أعرف أنها صادقة، لا أحد يستطيع أن يخترع هذه الحالة النفسية. هذه حالة يُغلق فيها الإنسان مشاعره تمامًا؛ كي يتمكّن من التماسك وعدم الانهيار، وهي تصيب ضحايا هذا النوع من العنف، والناجين من المآسي الكبرى. حتى عمّال الإغاثة الانسانية يُصابون بدرجات منها دون أن يدرون. ويظلّون هكذا، يتنقّلون من مأساة لأخرى وهمّ يظنون أن مشاعرهم قد تبلدت، ثمّ ينهارون مرة واحدة. نقول إنّهم "احترقوا"، كالمصابيح. هذه الفتاة "محروقة" ولا ريب، صادقة ولكنّها مخيفة في قوتها. أضافت أنها تعرف المغتصبين الثلاثة، وكلّهم من حرّاس الأمن في المعسكر، بل إنها رأتهم بعد ذلك أكثر من مرة، وأشاروا لها بإشارات نابية مذكّرين إياها بما فعلوا بها. سألتها عن أبيها وإخوتها، فقالت إن الإخوة غير موجودين،

ربّما قتلوا أو لجؤوا لمعسكرٍ آخر، وأنّ الأب علم بما حدث ولكنّه ضعيف لا يستطيع عمل شيء، ولا يستطيع الخروج من المعسكر ومواجهة الحرّاس، ومن ثمّ استمرّ في إرسالها وأختها لجمع الحطب برغم ما حدث. قالت إنها مستعدة للفحص الطبي، وللشهادة أمام القاضي، والادلاء بتفاصيل عن مغتصبيها تدينهم. هذا بالضبط ما أبحث عنه. أثنيت على شجاعتها ووعدتها بالحماية، واتفقنا على أن نتوجّه في الصباح مع أنريكو إلى المديرية؛ لتحرير البلاغ والادلاء بالأقوال، ثمّ أطير عائدًا للخرطوم. اتصلت بسيليا أبلغها وطلبت منها أن تبلّغ رئيس البعثة بما انتهيت إليه، وذهبت للنوم في غرفة صغيرة مُلحقة بأحد مكاتبنا داخل المعسكر. عرض عليّ المشرف أن أذهب للنوم في استراحة الحكومة فرفضت، كما رفضت عرض أنريكو أن أذهب للنوم في استراحة الأمم المتحدة، فقرّر أن يبيت معي تضامنًا.

لا بد وأنّ الساعة كانت تشارف على التاسعة حين سمعت ذلك الصوت الذي لم أنسه بعدها أبدًا. صوت يأتي من باطن الأرض، كأنّه ارتجاج مُنتظم للتربة، كما لو كانت هناك طبول ضخمة في باطن الأرض تدقّ بصوتٍ مكتوم، فيتحوّل لذبذبات تهزّها من تحت أقدامنا. نظرت لأنريكو فالتقت نظرتانا. هل هذا هو ما أظن أنه؟ أومأ مجيبًا. هرعت نحو الباب – لا أدري لم – فأمسكني من ذراعي، وجذبني للفراش.

– لا تفعل شيئًا جنونيًا. اجلس هنا.

– هل هؤلاء هم الجنجويد؟

– لا بد وأنهم كذلك.

– كيف حدث هذا؟ أبلغت بهم الوقاحة أن يأتوا ونحن هنا؟

– الوقاحة لم تنقصهم يومًا. ابق ساكنًا ولا تُحدث صوتًا.

– وماذا نفعل؟

– لا شيء. نظلّ ساكنين هنا، وأغلب الظن أنّهم لن يهاجموا مكتبنا.

– أغلب الظن؟ وماذا سيحدث بالخارج؟

– سيهاجمون البعض. ادعُ ربك ألاّ تكون النتيجة مأساوية أكثر من المعتاد.

– ادعوا؟ ألاّ نفعل شيئًا آخر؟ ألا نتصل بأحد؟

– سنتصل طبعًا، لكن هذا ليس ضروريًا. الأنباء تتنقل وحدها هنا. البلد كلّها تعرف الآن بما يدور.

– والأمن؟

– سيأتون. لكن بعد أن يكون الجنجويد قد رحلوا.

– وماذا لو خرجنا الآن؟ بالتأكيد لن يتعرّضوا لموظّفي الأمم المتحدة. يمكننا الدفاع عن النازحين.

– هل فقدت صوابك؟ ماذا: سنخرج أنا وأنت فندافع عن أربعين ألف من المدنيين؟ اسكت واجلس هنا حتى يمروا. هذه الأمور تحدث بانتظام ولها قواعد، لو خرجت ستعرّض حياتك للخطر.

بحثت عن تليفوني، وحمدت الله أنه مازال مشحونًا. اتصلت برئيس البعثة فلم يرد. اتصلت بسيليا وأخبرتها بما يحدث، وطلبت منها أن تبلغ الرئيس فورًا. طلبت مني أن اعتني بنفسي ولا أفعل شيئًا جنونيًا. أشار لي أنريكو أن أُطفيء جرس التليفون حتى لا يرن. فعلت ذلك ثمّ

جلست أنتظر. ولم يحدث شيء. جلست هناك في هذه الغرفة الضيقة، أنا وبدلتي الغامقة، وتليفوني المتصل بالقمر الصناعي، وأنريكو المتمرس، نستمع لوقع أقدام الجياد وهي تنهش في النازحين. لم يكن هناك أصوات صراخ، لا شيء درامي، مجرد هذا الارتجاج في باطن الأرض وأصوات قرقعة وهمهمات، ولا شيء آخر. أضاءت شاشة التليفون وكان رئيسي هو المتصل، يطمئنّ على سلامتي ومن معي، ويبلّغني أنه أبلغ أعلى مستوى ممكن من السلطات بما يحدث ليتّخذوا إجراءات لوقفه، ووعدوه بالتدخّل الفوري. شكرته وأغلقت الخط، وعاودت الجلوس صامتًا. وظللنا هكذا لمدة ساعة أخرى، نحن في الغرفة المغلقة، وفرسان الدمار في الخارج.

نظر أنريكو لتليفونه، ثمّ قال إن الجنجويد قد رحلوا. جاءته رسالة تُنبئه بذلك من خارج المعسكر: شوهدوا يغادرون البلدة. خرجنا بسرعة من الغرفة؛ المكان ساكن بالخارج تمامًا، لا صوت ولا حركة. دقائق وبدأت الحركة تدبّ في المكان. خرج الناس لينظروا ما خلّفه الهجوم من دمار. دقائق أخرى وبدأ الصويت والولولة، ثمّ علمت أن هناك خمسة قتلى: فتاتين وشابين وأحد الحراس. الناس تتحرّك الآن في مجموعات كبيرة، يغلب عليهم الغضب، وبعضهم يُهشّم ما يجده في طريقه. دقائق ووصل رجال الأمن فزاد ذلك من هُياج الجموع. لم يستغرق الأمر طويلاً حتى تحول الأمر لمواجهة بين النازحين ورجال الأمن الذين طوقوا المعسكر، وقيل لي إن رجلاً قُتل في اشتباك مع الأمن. أنريكو اختفى، ثمّ شاهدته بعد فترة يتوسّط بين الجانبين عن بعد، أما أنا فكنت أسير كالتائه لا أعرف عمّا أبحث. لا أصدّق أن هذا يحدث من حولي، وأنّي بلا فائدة لهذه الدرجة.

أما الآخرون فكانوا يعلمون ذلك، و لم يحاول أي منهم اللجوء لي أو حتى الحديث معي. سرت مع الجموع، لا أعرف إلى أين. كان رجال الأمن قد انسحبوا من المعسكر، واكتفوا بتطويق المكان في حين تولّى عُمّال الإغاثة التفاوض بين السلطات وبين النازحين.

سرت مع جمع غفير سار ثمّ توقّف، وسمعت حوقلات ودعاء وولولة جديدة، وهناك رأيت الجثتين. كأنّهما بقايا سيارة مُحترقة. لم ألتفت أول الأمر لهما عندما أشار لي صبي بأنّ هاتين هما الفتاتين. فقط عندما دقّقت النظر أدركت أن هذين الشيئين بقايا بشرية. قطعتان من السواد المتفحّم ممتزج بهما بقايا قماش محترق. علت أصوات الجمع، ثمّ تقدم رجال ومعهم ملاءات جمعوا فيها هذا السّواد، ولفّوهما كأنّما هما جثتان حقيقيتان. تحرك الجمع بالجثتين وأنا معهم، وظللنا سائرين حتى شعرت بيد قوية تجذبني، وتسحبني من وسط السائرين. التفتّ ورأيت أنريكو مُمسكًا بي بقبضة من حديد. لم أقاوم، وسرت في يده حتى أودعني في المكتب من جديدٍ، وأغلق الباب وخرج. جلست بلا حراك حتى عاد، لا أدري كم من الوقت مرّ، قال لي أن ساعة قد مرت، وهزّ رأسه في مزيج من اليأس ونفاذ الصبر. علمت منه أن الجثتين المحترقتين للفتاة التي كنتُ أحدثها اليوم وأختها، المغتصبة رقم 2. أشعل الجنجويد فيهما النار، ووقفا يشاهدانهما يحترقان حتى تفحّمتا، ثمّ غادروا وهم يكبّرون. قال لي إن أحدًا التقط لهما صورة بتليفونه. الشابان اللذان تحدّثا إلينا اليوم أيضًا من بين القتلى، وحارس يبدو أن النخوة دفعته للتدخل، ومحاولة إنقاذ الفتاتين، فأرداه أحد الفرسان المغيرين قتيلا.

التليفون يهتزّ بجانبي وأنا لا أتحرّك. رد أنريكو وسمعته يُحدث سيليا ثمّ رئيس البعثة. كرّر عليهم ما ذكره لي، وأضاف أنه رأى صورة الفتاة وهي مشتعلة، وأنّ أحدًا من المعتدين لايبدو وجهه في الصورة. صمت ثمّ عاد يحدث سيليا، قال لها ألاّ تعلّق أملاً على موضوع الصورة هذا لأنهم ملثمون. صمت ثمّ أردف أن هذه فكرة غبية، تمامًا مثل فكرة الضغط على النازحين كي يشهدوا ضد أناس مُحدّدين. صمت ثمّ أجاب: إن هذه ليست أول مرة طبعًا، وأضاف أنّي بخير، ثمّ طلب منها معاودة الاتصال بعد ساعة لأني مشغول.

اتصلت سيليا مرة أخرى:

– أوشكت على الانتهاء. تحقّقت من كلّ التفاصيل؛ اتضح أنّهم أربعة قتلى وغير مسلّحين. كتبت صيغتين للبيان، واحدة "يدين" والثانية "يأسف"، وأرسلت الصيغتين لمدير الإدارة ومنتظرة ردّه. غالبًا سأرسل الصيغتين لمكتب "الأمين العام" فور أن يُسمح لي. هو لا يتدخّل في الصياغة لكن يصرّ على أن يرى كلّ شيء أُرسله للطابق الـ28. بعد ذلك سأنتظر رد المكتب، ثمّ أضع البيان في صيغته النهائية، وأُرسله لمكتب المتحدّث الرسمي. نصف ساعة أخرى على الأكثر. ألست سعيدًا أنك تخلّصت من كلّ هذا الهراء؟

– سعيد جدًا. ولا توتري نفسك، إن لم تتمكّني من اللّحاق بي يمكننا أن نلتقي في المرة القادمة.

– المرة القادمة؟ هل تمزح؟ أنت لم تأت لنيويورك منذ عيد الميلاد الماضي. من أين أنت آتٍ على كلّ حال؟

– من مونتريال.

– مونتريال؟ بالقطار؟

– نعم، وسأعود بالقطار أيضًا.

– أمازلت لا تركب الطائرات؟ لابدّ وأنّك مختل. كم من الوقت استغرقت الرّحلة؟ لا بد وأنك منهك! ياإلهي كم أنا آسفة.

– لا تأسفي، فقط حاولي أن أراكِ قبل أن أستقلّ القطار التالي.

– ألا يمكنكِ أن تبقَي في نيويوركَ ليلة أخرى؟

– سيليا!

– حاضر، حاضر. سأكون عندك بمجرد أن يُقرّر الأمين العام ما إذا كان يأسف أم يدين!

– أنا جالس هنا.

بطارية التليفون في النزع الأخير. ليتها تكفّ عن الاتصال كلّ عشر دقائق، فلن يصمد التليفون كثيرًا، لكنّي لا أستطيع أن أقول لها ذلك، ستتضايق. سأنتظر، ماذا لديَّ لأفعله في أيّ حال حتى يحين موعد العشاء لدى أبي. لا أريد التأخر عليه، لا أستطيع أن أتأخر، فهو يتوقع منّي التأخر، كي يؤكد لنفسه أنّي غير منظم ولا فائدة منّي. مسكينٌ هذا الأب؛ طبعًا كلنا غير منظمين مقارنة به! لكن ما الفائدة؟ ما فائدة كلّ هذا النظام وهذه الدقة؟ كيف لا يدرك عبث دقته ونظامه هاذين؟ كأنّه نملة تسير بنظام حديدي وعبقري نحو الفناء. يسير في مساراته الخالدة، ثمّ يأتي من يدوسُ على حياته، ويغير كلّ مافيها. وهو لا يهتم. يريدنا أن نأتي دائمًا في الميعاد، حتى لو كان العالم سينتهي غدًا. أراهن أنه لو علم بموعد موته لذهب في

الموعد بالضّبط ليلقى حتفه في الميعاد. لا فائدة من الحديث معه. حاولت مرات، لكنّه كان يقمعني بما له من حُجّة قوية ومن سلطة أبوية، و لم أشأ أن أفرّط في المحاولة، لم أشأ أن أصرخ في وجهه أن كلّ ما يعتقد فيه وهمًا، أن كلّ هذا وهم، وأنَّ الأشياء الحقيقية تحدث دون موعد ودون نظام، ودون منطق، كالموت، كالظلم، كالعجز.

ليلى لم تتراجع مثلي، بل ذهبت لآخر الطريق في معارضته، وانتهى بها الأمر أن تركت له أمريكا بمن فيها، ورحلت عائدةً لمصر. مسكينة هي الأخرى. مساكين كلّنا. والآن هناك سلمى. لا أدري لم أتى بها. لا بد وأنّه يريد إنقاذها من براثن "أمها المجنونة". ماذا يعرف حقيقةً عنها؟ عن البنت أو عن أمها؟ لا شيء! بالكاد يعرف سن سلمى، لكنّه يريد إنقاذها مع ذلك. يريدها أن تكمل دراستها بأمريكا وتستقر بها. مثلما أراد لنا. لماذا لا يكفّ عن محاولة إنقاذ البشر؟ ماذا ستفعل تلك المسكينة في أمريكا؟ ألم يكفه ليلى؟ وسلمى تسألني عمّا يجب أن تفعل؟ تُحدّثني بالتليفون كلّ يوم منذ وصلت، وتُمطرني بالأسئلة، عن جدها، عن أبيها، عن أمها، عن خالتي وزوجها، عن كلّ شيء آخر. أنت خالي وقضيت معظم عمرك هنا لكنّك أيضًا تعرف مصر وسافرت في أماكن كثيرة ولديك خبرة. تقول ذلك كأنها تسمّع من كتاب. تسألني ولا إجابات لدي. ماذا أقول لها؟ ماذا يمكن أن أقول لها عن الحياة هنا أو هناك؟ عن اختيارات الحياة المصيرية التي يمكن أن تغيّر كلّ شيء أو لا شيء على الإطلاق. ماذا يمكن أن أقول لها سوى بعض الكلام الباهت عن الإنسان وخسّته في كلّ مكان، عن الأمل الزائف والدعاوى التي لا تتحقّق. لا شيء لدي لأقوله لها.

لا شيء البتة. أستمع لها، وأُتمتم ببعض التفاهات. أُحيلها إلى أمها وإلى أبيها ثَمّ – حين يفشل كلّ ذلك – إلى نفسها. أفعل مثل الأطباء النفسيين الذين لجأت لهم: أسألها هي عن شعورها ورأيها. ثمّ أتركها لنفسها.

أتى شخص، واستأذن في وضع ملابسه على المقعد المقابل لي. أومأت له موافقًا، فالمكان ضيق والمقعد شاغر منذ فترة. هيا يا سيليا؛ اسألي الأمين العام أن يقرّر هل يأسف أم يدين. ليتني كنت قد أصررت على الجلوس في القهوة الأخرى. على الأقل كنت أكلت شيئًا، وتفاديت هؤلاء المتنفذين والذكريات التي يحملونها لي. هل أفتقد ذلك العالم فعلاً؟ هل أفتقد المبنى؟ أروقته تنضح بالسّلطة التي تمر فيه، مع أنه لا سلطة له. السلطة تنبع من العواصم، ثَمّ تأتي وتصبّ في أروقة هذا المبنى الأسطوري؛ تسير في الممّرات وتكاد ترتطم بها، فيتخيل لك أنّك في قلب السّلطة، لكنّك مجرد حجر صغير في مجاريها. يمكنك أن تقضي عمرك كلّه لا تدرك الفرق بين الأمرين، ويمكن مثلما حدث لي أن تستيقظ فجأة على الفارق فترفض أن تضيع بقية أيامك في هذه المجاري، وتقفز خارجًا. لماذا أشكّ في أنّي أفتقد هذه الممرات إذًا؟

اتصلت سيليا ومرر لي أنريكو التليفون. قلت لها "إني بخيّر، وأجبت على بضعة أسئلة وأنا ساهم، ثَمّ أعطت التليفون لرئيسنا. قال أشياء كثيرة عن الأسف والأسيِ، وتمنّى أن أكون بخير. قلت: "إنّي بخير، لم يحدث لي أنا شيء، لكن كلّ من تحدثنا إليه قُتل، حرفيًا". كرر التعبير عن الأسف، وقال إن هذا الحادث لن يمر. سألته "ماذا سيفعل كيلا يمر؟" قال إنه تحدث مع نيويورك، وسينعقد مجلس الأمن الليلة، ليصدر بيان يتوقّع أن يكون

شديد اللهجة. سألته بغضب كيف يمكن لبيان من المجلس أن يُعالج المأساة التي وقعت، والتي ستقع ثانية وثالثًا. سألني ساخرًا عمّا أريده أن يفعل: يرسل جيش الأمم المتحدة للمعسكر؟! رددت بأنّ سخريته غير لائقة، وأنّه إذا لم يكن بوسعنا حماية هؤلاء الناس فعلاً، لما جاز لنا إيهامهم بالحماية. قال شيئًا ماسخًا عن حقائق الحياة فانفجرت فيه وقلت له إن هذه خسة، وإن دم من قُتلوا الليلة في رقبته هو شخصيًا. قال إنّي متوتر زيادة عن اللازم، وأعطى التليفون لسيليا. طلبت مني الهدوء، وقالت إنه سيرسل لي هليكوبتر مع أول ضوء لإعادتي. أقفلت الخط. قال أنريكو إن عليه الخروج لأنّ هناك عمل يجب أن يتمّه، وسألني إن كنت أستطيع البقاء ساعة دون ارتكاب حماقات أخرى فأومأت.

خرج، وبعدها بقليل خرجت أتجوّل في المعسكر. ربّما يغضب أنريكو، لا يهم. لم أستطع البقاء في تلك الغرفة؛ كلّما انغلق الباب سمعت أصوات ارتجاج الأرض المكتوم تعود. خرجت أسير لا ألوي على شيء، وبعد قليل وجدت نفسي مع مجموعة من الشباب نشرب الشاي أمام إحدى العشش. بعد ساعة أخرى كُنت في مقهى المعسكر، ثمّ مال عليّ شخص يبدو أنه كان يُدخّن الشيشة معي، وأعطاني تليفونه المحمول.

نظرت في الشاشة. للوهلة الأولى لم أفهم ما ذلك الذي أنظر إليه: مصباح أو شيء كهذا يتراقص لهبه، وعندما فهمت كان الوقت قد فات لأقول "لا". كانت تجري في وسط حلقة والنار مشتعلة فيها، وكلّما ذهبت لناحية من الحلقة دفعها أحد الفرسان بعصاه، فأعادها لمنتصف الحلقة. وألسنة النار المشتعلة فيها تتحرّك حركةً غير منتظمة، ربّما مع الريح. بعد

دقائق قلَّت حركتها: تقف في المنتصف، ثمّ تتحرك خطوة أو اثنتين في اتجاه فيدفعها أحدهم فتعود لمنتصف الحلقة. ثمّ ثبتت في مكانها، واقفة، وثبتت النار ثمّ هدأت شيئًا فشيئًا، ثمّ تحرّكت فجأة كأنّها جالسة، وتهمّ بالقيام لكنّ حركتها لم تكتمل، وظلّت هكذا واقفة في شبه حركة للأمام والنار تخبو، وتترك محلّها خيطًا رفيعًا من الدخان.

قرب منتصف الليل تحدّثت سيليا مرة أخرى؛ لتراجع تسلسل الأحداث ودّقة البيانات. قالت إن تقريرًا حكوميًا يدّعي أن أهل الفتاتين هم الذين أشعلوا النار فيهما، للتخلّص من عار سلوكهما البطّال، وأنَّ أمن المعسكر حاول التدّخل لإنقاذهما، فهاجمهم النازحون مما حدا بالجنود لإطلاق أعيرة نارية تحذيرية دفاعًا عن أنفسهم أمام آلاف النازحين المحتشدين ضدهم، مما أدّى لفوضى قُتل أثناءها رجل من الحرس وشابين من النازحين، وقالت السلطات إنها تشكّ في وجود عناصر مسلّحة بالمعسكر هي التي دبّرت كلّ ذلك. صرخت في سيليا، ربّما لأول مرة في حياتي، فانزعجت بشدة وطلبت أن أُعطي التليفون لأنريكو. بعد ساعة اتصلت وقالت إنّهم لن يأخذوا بتقرير الحكومة اعتمادًا على روايات عمّال الإغاثة، ولكنَّ ذلك سيقلّل من لهجة البيان، وأنّ هناك مناقشات حادّة في المجلس بين هؤلاء الذين يصرّون على أن يدين المجلس الحكومة؛ لتقاعسها عن حماية النازحين، ومن يريدون الاكتفاء بإبداء الأسف حيال ذلك. أغلقت الخط في وجهها، ثمّ مات التليفون تمامًا. سقطت في الفراش حتى الصباح حين جاء فريق أمن الأمم المتحدة، واصطحبني للطائرة التي عادت بي للخرطوم.

الساعة الآن السادسة والنصف. يجب أن أُغادر المقهى لأصل في الوقت المحدّد؛ كيلا ينظر لي أبي تلك النظرة التي أمقتها. نظرت لكيس البيجيل الذي سأحمله له. ألم يلحظ أنّي بلا عمل منذ عامين؟ هل توقّفت ذاكرته عند تحقّق رغبته برؤيتي شخصًا مهمّا بعد الجهد والمال الذي أنفقه على تعليمي؟ كان يريد أن أُصبح محاميًا ورفضت. خيّبت أمله عندئذ، لكنّه أبدى بعض الرضى حين التحقت بالعمل في الأمم المتحدة، وحمدت الله أنه توقّف عن متابعة تفاصيل حياتي بعد ذلك. لم أقل له إنّي "احترقت" و لم أعد أطيق النظر في وجه زملائي أو رؤسائي، أو المبنى أو الطائرات. قلت له إنّي أكتب كتابًا في هدوء منزلي بمونتريال.

سألني بضع أسئلة ثمّ صمت مُتشككا. سيسرّ عندما يرى البيجيل، ليس لأنّه سيأكله، فأغلب الظنّ أنه لن يفعل، لكن لأنّي تذكرت إحضاره. يختبرني، مثلما يختبرني الآن، حين يصر أن أعود للمنزل في السابعة؛ لأشرف على ترتيبات عيد ميلاد سلمى. أيُّ ترتيبات تلك التي سأشرف عليها؟ هل سيترك الدكتور درويش أمرًا هامًا كترتيب عشاء بمنزله في يدي؟ بالطبع لا. ستتولّى كيتي كلّ شيء، وسيظلّ هو شخصيًا فوق رأسها يلاحقها. ودوري أنا؟ لا شيء، بجرّد اختبار ليرى ما إذا كنت ولدًا طيبًا، وأحافظ على مواعيدي. كأنّي مازلت طفلاً وهو يربّيني. ربنا معك ياسلمى في هذه الإقامة. دقّ جرس التليفون. سيليا مرة أخرى. ضغطت على زر الرد، لكنّ البطارية أسلمت الروح قبل أن أسمع صوتها. لم يعد هناك الكثير من الوقت على أيّ حال، سأنتظر عشر دقائق أخرى ربّما تظهر، ثمّ أذهب كي ألحق بالعشاء.

4

عين جالوت

تركت سيّارتي وأخذت القطار. لا يُوجد هناك أماكن لركن السيارات، كما أن المتحف يُغلق في الخامسة وهي أسوأ أوقات الذروة. حين أنتهي من الزيارة سأعود بالقطار وأظلّ بالمسجد حتى أنتهي من درس المغرب، ثمّ آخذ أميرة، ونتوجّه لعشاء طليق أختها. سامحها الله؛ لِمَ تُورِّطني في عشاء مع رجل لا أحبّه ولا يحبني؟ سأكون ضيفًا ثقيلاً، مُتأففًا من الجلسة ومن الجالسين وما يفعلون، وسيكونون هم غير مُرتاحين لوجودنا. وإما أن نتبادل حديثًا تافهًا حول الزحام والطقس، أو ندخل في مناقشات أشبه بالعراك. آخر ما أحبّ هو مخالطة العرب المتأمركين؛ الحديث مع الأمريكيين أنفسهم أفضل وأكثر فائدة. لا، وهذا شيخهم. رأيت له كتابًا

منذ سنوات يصف فيه العرب بأنّهم أمّة سقطت من التاريخ لكن لم يتم دفنها! سألته أول مرة التقيته عن هذا، وبدأنا حديثًا كاد أن ينتهي بخناقة لولا تدخّل أميرة. لماذا تأخذني لعشاء في بيت هذا الرجل. قالت إنه عيد ميلاد سلمى، وأنّها رغبة ليلى التي تعاملها أميرة كابنتها منذ وفاة أختها. والله إنّي لا أفهم هذه العائلة: الدكتور درويش مأفون كاره لنفسه وأمته، وابنته ليلى عكسه تمامًا لكنّها لا تقل عنه قوة، والحفيدة سلمى تائهة، وأبوها وخالها بلا دور. تركتها أمّها تأتي لأمريكا وفهمت، على أساس أن أباها هنا. لكنها أصرّت أن تقيم البنت عند جدّها الذي تكرهه والذي فاتت له أمريكا بمن فيها. ثمّ ورّطتنا نحن في هذه العركة، واشترطت على خالتها أن ترعى لها ابنتها وتضعها تحت عينها، وكأنّنا المحلّل. ماعلينا، منها لله أميرة، منذ ماتت أختها وهي لا ترفض لليلى طلبًا حتى لو كانت نزوة. سامحهنّ الله، نسوان ناقصة عقل، لكن طيبات.

سأمرّ على المسجد قبل الذهاب لذلك العشاء المشئوم. جاءني شاب بعد صلاة الظهر، وطلب الحديث عن أمرٍ شخصي. لا بد وأنّه يبحث عن زوجة، لو كان يبحث عن عملٍ لقال. سأسأل أميرة إن كان لديها عروسًا. خرجت من محطّة "فيلتونٌ"، وسرت باتّجاه المتحف الصغير الذي أقامته إدارة الإطفاء. يقولون إنّهم سيبنون مُتحفًا كبيرًا فيما بعد. سنرى. وصلت أمام المتحف، فوجدت عربة إطفاء واقفة بقرب الباب قبلة للناظرين. بضعة رجال يقفون أمامها يتأمّلونها بإجلال، وكأنّها هبطت من السماء أو صاعدة لها. دفعت سبعة دولارات رسم الدخول، ومررت من البوابة الإلكترونية. من الذي يأخذ هذا المال؟ وماذا يفعلون

به: أيشترون مقتنيات جديدة يضمّوها للمتحف؟ تجولت في أرجاء القاعة لحظات، نظرت للحوائط والمعلّقات، والمقتنيات واليافطات، والمحتويات والأسماء، والصور، نظرت لكلّ هذه الأشياء بسرعة، ثمّ توجهت لدكّة خشبية تتوسط القاعة، وجلست.

ما هذا المتحف البائس؟ لو تركوا الأمر لي لبنيت لهم مُتحفًا أفضل عشر مرات؛ متحفًا حقيقيًا بمقتنياتٍ حقيقية، بأوراق التخطيط والأقلام التي كتبت بها الأفكار الأصلية، الملابس التي ارتداها المخطّطون، السجاد الذي جلسوا عليه، أكواب الشّاي التي احتسوها وهم يفكّرون في العقبات، التليفونات التي استخدموها، الرسائل الإلكترونية، الكمبيوترات، حسابات البنوك، جوازات السفر، أدوات التنكّر، أدوات التدريب، تذاكر السّفر، بطاقات الصّعود للطائرات وتذاكر الحقائب، وأسماء المنّفذين مُدونة عليها، كلّ ما استُخدم في صنع هذا.

أنا الذي أعرف حقيقة ماحدث. أنا الذي أعرف الصورة الكاملة. أنا رقم صفر. أنا الرقم المكمل لأيّ رقم تعرفه. أنا الذي أعرف من أين جاءت المعلومات اللازمة لتنفيذ ضربة بهذا التعقيد، كيف تمّ الحصول على المال ومن أين، كيف تمّ تجنيد المنفّذين وتدريبهم وكيف تم إلصاق كلّ القطع معًا بحيث تم الأمر بهذا الإتقان. أقرأ تقرير السلطات الأمريكية عن الحادث، وأضحك بيني وبين نفسي. أسمع الاتهامات التي يردّدها العرب لأمريكا، وأضحك أيضًا. كلّ طرف يحاول تبرئة نفسه، ولصق التهمة بالآخر. هل فكّر أحد منهم ألا تناقض بين روايته ورواية الآخر؟ أنا الذي أعرف حقيقة ماحدث، دور الذين ذُكروا في التحقيقات، ودور الذين لم يُذكروا.

أجلس هنا، في هذا المعرض التذكاري، أرقب الصور والمقتنيات، والكتابات وصور بعض من ماتوا، وتحيات أهلهم وأحبابهم، ولا يترك هذا في نفسي أثرًا. لا شيء.

أنا الوحش. أنا الذي اغتبطت للهجوم، وشعرت بموجة عارمة من التشفّي لم يقلّل منها إلا صمود البرجين طيلة هذا الوقت الذي سمح لأعداد كبيرة بالنجاة. كنت أريد الخمسة وسبعين ألف، كلّهم. لا تسألني عن الموتى، فلا أريد أن أسمع عنهم شيئًا. أنظر للوجوه في الصّور المعلّقة وتعليقات الأهل والأحباب؛ "نحن نفتقدك ياجيمي"، "أفكارنا معك يا ليزي"، و"ريبيكا، ستظلّي في قلبي إلى الأبد". كلمات جوفاء لاتعني شيئًا. لا أحد يظلّ للأبد. كلّنا ميتون، ميتة أو أخرى، ما الفارق لدى الموتى؟ لا أعرف شيئًا عن هؤلاء الضحايا، ناس فنوا مثل كلّ من يفنى. سيرحمهم الله إن كانوا يستحقّون الرحمة، وسيعاقبهم إن استحقّوا العقاب.

لكن موتهم في حدّ ذاته لا يعني شيئًا. كم من الناس يموتون كلّ يوم، في هذه اللّحظة، في هذه الثانية؟ هل نقيم لهم المتاحف، أم كان لدى هؤلاء رخصة بالبقاء أكثر من الآخرين؟ هل كان لديهم حق في العيش أطول ممن قُتلوا من قبلهم؟ هذا هو أجلهم، هذه هي حياتهم، وهذا موعد موتهم: لم يسرّع فيه أحد أو يؤخّر. كُتب لهم أن يكونوا هم الذين يموتون في هذا الحادث بدلاً من أن يموتوا تحت عجلات سيارة، أو بأغذية مسرطنة، أو بانفجار لغم أو في زلزال. لا أعرف عنهم شيئًا، ولا أريد أن أعرف. لو كان الأمر بيدي لأخذت الخمسة والسبعين ألف كلّهم. لو اقتضى الأمر أن أقتلهم بيدي ما تردّدت. لكن كُتب لهؤلاء النجاة، دون إرادتي،

مثلما كُتب على هؤلاء الموت. ولست بمعرض الشُّعور بالأسى على أحد، ليس أنا.

ما تلك الترهات التي وضعوها في المتحف؟ ألم يجدوا من الطائرتين سوى هذه النافذة؟ وحطام البرجين كله، لم يجدوا منه ما يضعونه هنا سوى هذه التفاهات؟ لم لا يفتحون باب التبرّع؟ من الذي يقرّر أيّ الأشياء يدخل ضمن قائمة المقتنيات؟ وما هو المعيار؟ هل يمكن إضافة القنابل العنقودية التي قتلت أبي، أو قنابل الإضاءة التي أضاءت للقاتل وجه أمّي كي يذبحها؟

سمعت عن هذا المتحف التذكاري فجئت لأراه بنفسي. من الذي سيأتي للزيارة هنا؟ من هؤلاء الناس؟ لا أظنّهم من أهل الضحايا. لو قُتل ابني في العملية ما جئت هنا لأتذكّره. أتحتاج الثكلى قاعة للتذكّر؟ أم هم حالمون يبحثون عن مأساة يتعاطفون معها؟ أم شامتون سرًا يأتون للفرجة على الإمبراطورية وقد صفعت؟ أم أطفال المدارس يُقادون إلى هنا كي يكرهونا أكثر؟ أسمع من مكاني صوت الفيلم "الوثائقي" الذي يبثّه القائمون على المتحف التذكاري؛ إنّهم يُحوّلون الأمر لعبادة، "بيرل هاربر" أخرى، وهناك شخص يقول إن البرجين كانا يُمثلان السلام العالمي لأنّ التجارة تصنع السلام؛ ياسلام!

يمرّ الزوار وينظرون لي بشك. لابدّ وأنهم يتساءلون عمّا يفعله هذا العربي هنا؛ الشّماتة أم الفرجة على مافعله مواطنوه؟ وطفل صغير يطيل النظر ناحيتي، ثمّ يقترب من أبيه أكثر. لا تنظروا طويلاً، فأنا لا أختلف عن الباقين، هؤلاء الذين ستُلاقونهم عندما تغادرون، في القطارات المسافرة

تحت الأرض وفوقها، في أماكن عملكم، وفي وسط بيوتكم وبين نسائكم. كلّنا نشبه بعضنا في أعينكم: أنا ببدلتي الرمادية، ولحيتي المشذبة التي غلبها الشيب، وقامتي الضئيلة وصوتي الخافت، والآخر بلحيته المشعّثة وجلبابه القصير وسحنته الغاضبة وصوته الجهوري، والثالث بالشورت وكأس البيرة في يده. تخافون منّا جميعًا. فلا تُطيلوا النّظر، تشكّكوا أكثر، وحّدونا على قلب رجل واحد؛ كراهيتكم لنا تُغذّي عزمنا.

يمكنني الجلوس هنا واصطناع دور الضحية. يمكنني أن أخطب فيكم عن "جرائم أمريكا". يمكنني أن أقصّ عليكم قصّص بيروت؛ مُخيّمات اللاجئين، وما تحت أنقاض البيوت التي قصفتها طائراتكم المزوّدة بأحدث تكنولوجيا الموت – تلك التي تدخل في بند التجارة من أجل السلام. أنا الناجي من مذابح طالت كلّ من أحببت؛ يمكنني أن أحدّثكم عن القتل الجماعي، والقتل الفردي، والقتل عن طريق الاستخفاف، والقتل الخطأ. يمكنني أن أحكي لكم حكايات مُؤثّرة عن استهداف المدنيين للترويع، وللضغط وللإيلام، ولكسر الإرداة. يمكننى أن أروي لكم عن طائرتكم التي دارت نصف دورة في السماء، حين أطلق عليها مقاتل ساذج قذيفة من مدفع عيار 16 ملل لا يمكن أن تصيبها. عادت الطائرة فقصفت الحي كلّه في غرب بيروت. ماذا كان ذلك الطيّار يفعل؟ هل كان يفكّر في أن سكان الحي من المدنيين الأبرياء، وأنّ صاحب المدفع أبله لا يُشكّل خطرًا حقيقيًا على طائرته؟ أم كان يعتقد في قرارة نفسه أن هؤلاء الناس لا قيمة لهم، وأنّه يستطيع قتلهم جميعًا إن شاء، دون أن يعني ذلك شيئًا؟ هل فعل ذلك لشرٍ في نفسه، أم لأنّ التعليمات التي لديه تقضي بهذا؟ أعرف

الإجابة على هذه الأسئلة. فأنا الذي أطلقت قذيفة المدفع الذي أعلم أنه لن يصيب الطائرة. لم؟ لأنّي أعلم علم اليقين أن الطيار سيعود ويقصف الحي بأكمله. و لم أُردَ ذلك؟ لأنّي أريد أن أفضح وحشيته أمام هؤلاء الذين مازالوا يتوهّمون أن الغرب إنساني، وعنده مبادىء. هكذا يرى الناس الحقيقة عاريةً في وجوههم، ويدركون لأيّ مدى هم وحدهم أمام هؤلاء الوحوش، ويفهمون ألاّ خيار أمامهم سوى القتال لحماية أنفسهم، أو الموت على يد الغربي الغازي الذي لا يفهم غير القوة.

لم يكن لديّ أوهام حول هذا الأمر في يوم من الأيام، لكنّي صبرت على من قالوا لنا أن نهادن، وأنّ نحاور، وادّعوا بوجود قُوى في الغرب تقبلنا، وزعموا أن التاريخ تجاوز الصراعات القديمة بيننا. كذبت مزاعمهم وكذبوا. صبرت عليهم، وتحمّلت ترهاتهم وإذلالهم لأنفسهم على عتبات الغرب علّه يفتح لهم الباب، لكن لم ينلهم سوى الذلّ والهوان، مرة بعد مرة، وهم لا يفقهون. أستطيع أن أقصّ عليكم قصّص النساء والأطفال الباحثين عن مياه الشرب في أقبية العمارات وهم لا يعرفون؛ أمِن العطش سيموتون، أم من الغضب على أمريكا وأوروبا التي وعدتهم بالحماية ثمّ تخلّت عنهم، أم من اليأس من انصلاح حالهم، أم بقذيفة أمريكية الصنع تأتيهم فتُريحهم من عذاب الدنيا؟ أستطيع أن أقصّ عليكم قصّص المدنيين الذين بقوا في صبرا، ودخل العملاء الوحوش بيوتهم يطلقون النار عليهم واحدًا بعد الآخر، وجيش "الدفاع" الإسرائيلي يُطوّق المكان ويطلق قنابل الضوء الأمريكية؛ لتضيء للقتلة ظلام الليل. بئس الحارس والمحروس. أستطيع أن أقص عليكم كيف نفدت الطلقات من القتلة في البيت الذي

كنت أختبىء فيه، فذبحوا من وجدوهم بالسّكاكين، ونجوت أنا لأنّهم حين ذبحوا أمي وقعت جثتها فوقي فلم يروني. ظللت مختبئًا تحت جثّتها أشعر بها تبرد شيئًا فشيئًا. لكنّي لا أريد أن أقصَّ عليكم شيئًا من هذا، لأنّي لا أريد شفقتكم الزائفة، شفقتكم التي لا طائل من ورائها. لم أثق يومًا بكم ولا بوعودكم، وحين رفضت الرحيل مع من رحلوا كنت أعلم أنّكم وعملاؤكم آتون لعقابنا بعدها. كنت أعلم أنّكم ستعاقبوننا لأننا وقفنا أمامكم وأمام عملائكم وقلنا "لا". نجوت، أنا المقاتل، وذبح جنودكم أمي المدنية. فلا تُحدِّثوني عن قدسية حياة المدنيين. لم أكن في يوم من الأيام حالمًا، لم أنتظر منكم غير هذا. وُلدت مقاتلاً في مُخيّم تمطر عليه السماء قنابلكم الموسمية، وأقتنص منكم من أستطيع وأقتله. هكذا عشت؛ أعرف جنودكم ويعرفونني. نفهم جيدًا قواعد اللّعبة بيننا، فلا يحدثني أحد عن احترام حياة الأبرياء. لا أنا ولا جنودكم نأبه. المدنيون الأبرياء ضحايا، خسائر حرب، يموتون عندما يكون موتهم ضروريًا. يموتون اليوم فوقي وغدًا فوقك أنت. أنت يامن تنظر إليّ الآن من وراء هذه التذكارات وتسأل نفسك: اسألها جيدًا كيف ستلتقي في المرة القادمة؟ وأنت واقف على جثتي، أم وأنت راقد على ظهرك في سكرة الموت تحاول تبين ملامح وجهي.

لكن انتظر، لا تسيء الفهم. منذ يومين قصت عليّ أميرة أن سلمى اعترفت لها فيما يشبه الفخر أنها سرقت كتابًا من مكتبة في شارعنا. صُدمت أميرة وطلبت منها إعادة الكتاب للمكتبة. استغربت سلمى: ألا نقول لها دومًا أننا في صراعٍ مستمر مع الغرب الصليبي؟ ظلّت أميرة معها

ساعتين تشرح لها أنّنا في بروكلين، ولسنا في ساحة قتال. لم تفهم سلمى معنى ذلك وسألتني – دون أن تذكر قصّة الكتاب. عدم فهم شائع. قلت لها إنّي لا يمكن أن أخرج سلاحًا وأؤذي به جاري في هذا البلد، أيًا كانت ملّته، فله عليّ حقوق الجيرة. لكنّي سأقتله، بلا تردّد، إن كان ذلك جزءًا من قتال. لا أدري إن كانت قد فهمت. لكنّك، يامن تنظر لي في ريبة وسط هذه المقتنيات السّخيفة، جاري في المترو أو الشارع. ولك عليَّ حقوق الجار مثلك في ذلك مثل جاري الذي يسكن أمامي في بروكلين، وأُرسل له الكحك في العيد، ويرسل لي الهدايا في عيد الميلاد. أما حين ينادي منادي الحرب، وتكون أنت أو هو في الطريق، فإنّكما تكفّان عن أن تكونا جيراني، وتصبحان مجرد ضحيتين. يزعجك هذا، أليس كذلك؟ لكن لمَ؟ ماذا ستفعل أنت حين تقاتل في العراق أو أفغانستان وتجدني – أنا جارَكَ – جالسًا أُدخّن النرجيلة في طريق الصاروخ؟ هل ستوقّف العملية وتناديني كي أخرج من طريق الأذى؟! عيب عليك.

الساعة تقترب من الخامسة، ويجب ألا أطيل أكثر من هذا. زوّار المتحف رحلوا وجاء غيرهم أكثر من مرة، وأنا مازلت جالسًا. لكن يصعب عليَّ مغادرة المكان؛ كأنَّ هذه المقتنيات ملكي، كأنّها جزء من بيتي. يجب أن أذهب مع ذلك. يجب أن أعود للمسجد في بروكلين، ثمّ أذهب لهذا العشاء. والله لولا إصرار أميرة ومحبتي لسلمى ما ذهبت. طيبة هذه البنت. رغم توهانها فهي خامة طيبة؛ مُثابرة ومجتهدة، ولديها فضول قوي يدفعها للسؤال عن كلِّ شيء. منذ زمن لم أقابل فتاة لديها هذا الحرص على التعلم. حادّة الذكاء، وروحها نقية لم تفسد رغم نشأتها في بيتٍ منقسم. من

يدري، لعلّها ورثت حبّ العلم والجدية عن الدكتور جدّها، وإن كان هو قد أساء استخدام هذه الموهبة، فلعلّ حفيدته تأخذ طريق الصواب. أميرة تحاول إقناعها بالبقاء هنا، ويمكنني تدبير منحة دراسية لها وحثها على الالتزام، وأميرة تقول إن ليلى أمها يمكن أن تساند هذا. الأم هي الحلقة الأهم، فالجد رجل مُخرف لم يعد أحدٌ يهتم برأيه، والأب بلا قرار. جزاكِ الله خيرًا يا أميرة إن أفلحت. بنت بهذه القدرات يمكن أن تتحوّل لطاقةٍ للخير إن أحسن إعادة تربيتها وتعليمها، وأميرة قادرة على ذلك بإذنِ الله. سأرى أباها وجدّها هذا المساء، لكنّي لن أُحدّثهما بشيء من هذا. وذكّرت أميرة ألا تحدثهما، فلا يجب أن نبدو وكأنّنا حريصون على هذا الأمر أكثر مما ينبغي. أميرة كفيلة بإقناع البنت، وبعد ذلك تُحدّث ليلى أمها وإن شاء الله يستقيم الأمر بعدها.

كنت أظن أننا سنقاتل حتى النصر. بعد حرب 1967 دفنت ماتبقى من جثمان أبي الذي فتّته القنبلة العنقودية، وأودعت أمي وأختي في المخيّم، وخرجت للقتال مع من خرجوا. عشرون عامًا وأنا أقاتل، في الأردن وفي لبنان وفي أوروبا. عشرون عامًا نتربص برجالكم، ورجالكم يتربّصون بنا. نقتلهم ويقتلوننا، بدم بارد أو ساخن حسب الأحوال. إن تمّ القتل في بلدٍ عربي فهو غالبًا بقصفٍ جوي، وإن تم في أوروبا فهو بدمٍ بارد: طلقةً من مسدس تُودَع في الجمجمة، أو بعض المتفجّرات. كلَّما قاتلناكم هزمتمونا، وخلفتم ثأرًا أكبر. فنعد لمعركة أخرى تلحق بكم ألمًا أشد، لكنّكم لا ترجعون؛ بل تجدون طريقةً ما كي تعاودوا الكرة،

وتُلحقوا بنا خسارةً أشد. تعتقدون أن هزائمنا ستردنا عن قتالكم، وهو لن يكون أبدًا. كنت أشكو لقادتي تكرار هزائمنا، فيقولون إن هذه غزوات نخسرها، لكنّنا لا ننهزم إلاّ إذا تركنا ميدان القتال. صمودنا مفتاح الأمل، وبداية النصر وإن بعد. وأين النصر البعيد؟ سألت نفسي عشرات المرات، في المخيمات والخنادق، وخلف أكياس الرمل وفي العربات. وخلصت إلى أن النصر لن يتحقّق إلا حين ننقل المعركة إلى أرضكم أنتم.

ومن ثمّ قرّرت المجيء إليكم في عُقر داركم. فمنذ أكثر من مائة عام وأنتم تقاتلونا على أرضنا، وحان الوقت الذي ننقل فيه القتال إلى أرضكم. نحن داوود وأنتم جالوت الطاغية. لم يهزم داوود جالوت بمصارعته وجهًا لوجه، فجالوت أقوى وأضخم، وأقدر على المنازلة. لكن داوود انتصر بالحيلة حين سدّد الحجر لِعَين الطاغية العملاق فأرداه من الألم. بحثت عن عينكم، وسدّدت لها ضَربةً قاصمة. وقفتُ أرقب انهيار البرجين، وشعور النصر النهائي يملؤني شيئًا فشيئًا؛ وضعت كلّ القطع معًا، رصّصتهم ورتّبت تسلسلهم في حلقَات تُفضي بعضها لبعض. لا أحد يمكنه أن يدرك مدى عبقرية التخطيط لشيءٍ كهذا. لا أحد غيري كان يستطيع جمع الأضداد كلّها في منظومةٍ واحدة، بحيث تساعد بعضها البعض دون أن تعرف بعضها أو ما تفعله، لكنّها في النهاية تؤدي للنتيجة المرتجاة. لم أرَ مثل هذا النّبوغ يتجسّد هكذا من قبل. من يمكن أن يصدّق أنّي جعلت الذّئب والحمل يعملان سويًا، يكملان عمل بعضهما، دون أن يعرف أيّ منهما الآخر أو يراه. وضعت الأجزاء في مكانها، في متناغمة

تكاد تكون سحرية. لو كان من الممكن رسم هذه العملية لصارت أشهر من لوحات دافنشي، ولو كانت موسيقى لصارت أعظم من تاسعة بيتهوفن. هذه هي أمّ العمليات بحق، ولن أبلغ هذه القمّة مرة أخرى.

وقفت أرقب انهيار البرجين، والصّراخ الذي ملأ به قادتكم وسائل الإعلام. كلّما علا صراخهم وتهديدهم ووعيدهم، كلّما تأكّدت من عمق الألم الذي أصابكم، ومن قلّة حيلة قادتكم. ظننت أن هذا الصراخ سيمر، ثمّ يفيقون لما أصابكم. لكنّهم لم يفيقوا، بل أمعنوا في غيّهم. لم تجعلهم الضربة يرون الحقيقة، بل تكاد تكون قد أعمتهم أكثر. أيُّ حماقة تلك التي تدفع المرء بعيدًا عن سبب ألمه، فيعزوه لما يمكن أن يكون فيه شفاؤه، ويزيد المشكلة تفاقمًا؟ لم يخطر على بالي أبدًا أن يكون هذا هو ردّ الفعل؛ قلت فترة وتمر، ويبدأ العقلاء في الانتباه لأصل المشكلة. لكن سنوات مرت، و لم يحدث شيء من هذا. سنوات مرت و لم يحدث شيئًا إطلاقًا، لم يتغيّر شيء. فقأت عين جالوت لكن الألم لم يجعله يتوقّف عن الطغيان، بل زاد طغيانه عمى.

فهمت. أخيرًا فهمت؛ لا أنتم ستنتصروا ولا نحن بمنتصرين، بل سنواصل قتال بعضنا البعض إلى الأبد. نطعنكم وتطعنوننا دون أن يسقط أحدنا ميتًا. لن يخرج أحد منا منتصرًا إلاّ لو استسلم الآخر، وهو لن يكون. لا خسائركم ستردكم عن غيّكم، ولا هزائمنا ستردّنا عن حقوقنا. الحرب، هذه المعارك المستمرة بيننا، تضبط إيقاع القتال بيننا ولا تنهيه. لم يبق لنا سوى أن نؤذي بعضنا، بلا توقّف ولا نهاية. وهكذا صرت أقف هنا كالشوكة في عينكم؛ كلّ شوكة تدميكم هي شوكة أقل في عيوننا

نحن. ماذا ستفعلون فينا؟ نحن باقون، هاهنا، حتى آخر يوم لنا ولكم. صحيح أنّي ودّعت القتال، لكنّي باقٍ كي أؤذيكم، وأقلّل من أذيتكم لنا، لا أكثر ولا أقل.

الآن أعظ بالقانون وعدم العنف. لا أحمل سلاحًا ولا أدعو إليه، بل أئمّ الصلاة في مسجدنا الصغير ببروكلين، وألقي دروس الفقه والسنة على من يريد الاستماع، وأُدبّر للشباب منحًا للدراسة ووظائف، وزيجاتٍ صالحة. لا أكثر من ذلك. لا أُدرّب أحدًا على حمل السلاح، لا أُعلّم أحدًا القتال، بل لا أنصح به أحدًا. كلّ ما أفعله هو تقوية هوية شبابنا، وإعادته لجذوره، وإبعاده عن السّقوط في براثن الحضارة المادية التي تغرونه بها. كلّ ما أفعله هو الحيلولة بينكم وبين السيطرة على هذه البراعم التي تنمو بين ظهرانيكم. أحميهم من نسيان من هم، ومن أين يأتون، وماهية المصير الذي ستلقون بهم إليه. أبصّرهم بنفاق دعاواكم، وأريهم كيف تكيلون بمكيالين: واحد لنا وواحد لكم. أحمي هذا الشّباب، وأضمن ألاّ يسقط فريسة لدعايتكم الرخيصة حول المساواة وحول الحرية الظاهرية. أحمي الشباب وأفرزه، وأترك له بعد ذلك أن يُقرّر طريقه بنفسه. إن قرر أن يسلك سبيل الجهاد، ووجد في نفسه المقدرة عليه، فسيأتي من يساعده ويأخذ بيده. ليس أنا، بل آخرون ممّن لا ترون؛ يخرجون من بين أيديكم ومن خلفكم. فماذا أنتم فاعلون بي وبهم؟ أتغيّرون قوانينكم كي تضيّقوا الخناق علينا أكثر؟ إن فعلتم ستثبتون ما قلناه دومًا، وهو أن حديثكم عن الحَرية والمساواة محض نفاق، وأنّكم ستدوسون على هذه الحريات حين تحتاجون لذلك، مثلكم في هذا مثل من كنتم تقاتلون. أسترسلون بنا

للسجون، وتشكّون في العرب والمسلمين أكثر، وتتخذون الإجراءات للحيلولة دون تسرب أبنائنا للمناصب ذات النفوذ؟ فلتفعلوا؛ لكن كلّ طعنة ضدنا ستُثبت صحّة دعاوينا، وتقوّي عزيمة شبابنا وتصميمهم على انتزاع حقوقهم منكم. قوتنا تنبع من ضعفنا؛ نحن أبناء داوود، لا أنتم. أنتم أبناء جالوت؛ ضعفكم يأتي من قوتكم. وكراهيتكم لنا تزيد من ترابطنا ومن عزمنا، وهو مايزيد من تربّصكم بنا، وتضييقكم علينا. وهكذا، نحن الاثنان، متداخلان في هذا العناق المميت الذي يدمينا سويًا، ولنر من سيتحمّل الألم أكثر.

الساعة الخامسة، سأترككم الآن، وأذهب لمسجدنا ولعشاء سلمى. يعزّ عليّ أن أترك هذا المتحف؛ أنا القطعة الناقصة في مقتنيات القاعة التذكارية لقتالنا الذي لا ينتهي. وإن كان القائمون على أمر المكان يستأثرون بتحديد قائمة المقتنيات، فإنّي مرسل لكم واحدًا منّا كلّ يوم ليجلس هنا، ويُكمل الصورة، على هذه الدكّة الخشبية في المتحف التذكاري لقدرنا المشترك.

5

ماريك

ظللت أُحدّق في شاشة الكمبيوتر غير مصدق؛ نيويورك؟ ماريك هنا، في نيويورك؟ بعد كلّ هذا نتقابل بالصدفة! ماذا جعلني أكتب إليها؟ خطرت على بالي مثلما يحدث كلّ عام، تخرج ذكراها فجأة من حيث لا أحتسب، وتحتلّ تفكيري فأكتب لها. في العادة تأخذ أسبوعًا حتى ترد. هذه المرة ردّت بعد دقائق. رسالتي وردها ملتصقان في قائمة الرسائل يحملان نفس التاريخ. كنتُ مازلت أُحدّق في شاشة الكمبيوتر حين ظهر اسمها الجميل على الشاشة؛ ماريك. هذه الحروف التي تدخل رؤيتهم البهجة في قلبي وتغمرني بموجة تحنان لا أدري من أيّ بقعة في نفسي الجافة تأتي. ماريك في نيويورك، ولمدة أسبوع. كتبت لها على

الفور ردًا من كلمة واحدة: نلتقي؟ أرسلته قبل أن أفكِّر في عواقب هذا العرض. وجلست أحدِّق في الشاشة. بعد دقيقة ظهر اسمها ثانية. فتحت الرسالة وأنا أتحسَّب. تقول: "نعم" وتسأل أين؟ ارتسمت ابتسامة طاغية على قلبي: لا تفكير الآن في العواقب، سأراها، سأرى ماريك. زادت حماستي وقصرت المدّة بين رسائلنا. بعد عدّة مبادلات اتفقنا على اللّقاء في بهو الفندق الذي تنزل به في تقاطع الجادة الأولى وشارع 49، في الثامنة والنصف مساء نفس اليوم.

سألتقي بماريك. فيم كنت أفكر حين عرضت عليها اللّقاء؟ كيف سألقاها؟ كيف سأنظر إليها، وكيف نتقابل؟ هل أحتضنها أم نسلم باليد كالغرباء، أم نقبل بعضنا على الخد كالأصدقاء؟ وماذا سنقول لبعض؟ سنتحدّث عن أسباب تواجدنا في نيويورك. سأقصّ عليها كيف وجدت منحة بإحدى المستشفيات هنا لمدة عام أوشك على الانتهاء، وستقول لي ما أتى بها. ستسألني عن أخباري في مصر، وأخبار سلمى، وسأسألها عن تطورات حياتها منذ رسالتها الأخيرة في العام الماضي؛ هل انتقلت لأمستردام مثلما كانت تُخطِّط، أم ظلّت في ليدن مثلما كانت تريد، ومصير بيتها الصغير. ثمّ نصمت، ونرتشف شيئًا من شرابنا، ربّما يقاطعنا النادل بسؤال. ثمّ نستأنف الصّمت. هل ستسألني عن حياتي العاطفية؟ هل أسألها عن هذا اليوناني الذي ذكرته في رسالتها؟ لا، لا أريد أن أسمع شيئًا عن يونانيها أو عن غيره. هل سنتطرّق للموضوع المعقّد؟ هل سنتحدّث عنا، عمّا جرى؟ لم نلتقِ وجهًا لوجه منذ كنا غارقين في الحب، منذ اتفقنا على أن تأتي في عيد الميلاد وتقيم معي حتى نرتب أمورنا.

تحدّثنا في التليفون مرة، وتبادلنا رسالة أو اثنتين كلّ عام، لكننا لم نتقابل. هل تغيرت؟ أي ماريك ماريك.

نزلت في محطة شارع 51، وسرت باتجاه الجادة الأولى. الجو دافيء. عبرت الجادة الأولى ومشيت إلى العنوان الذي ذكرته. لا آتي كثيرًا إلى هذا الجانب من المدينة. وجدت الفندق بجوار مبنى الأمم المتحدة. المبنى مظلم عدا بعض الأنوار المتفرقة في طوابقه العُليا. ماذا يفعلون في الأمم المتحدة في هذه الساعة المتأخرة! عبرت الشارع ودخلت من باب الفندق، فرأيت مكتب استقبال صغير تقف خلفه مُوظّفة واحدة. سألتها عن البهو، فقالت إن هذا هو، فلما بدا عليّ التردد أشارت عليّ بالبحث عمّن أريد في البار. دخلت من باب صغير، فوجدت مطعمًا مستطيلاً يُطلّ على الشارع وفي وسطه، على اليمين، تجلس الرائعة ماريك مع رجل في أواخر الخمسينات على أريكة نصف دائرية، وأمامهما تناثرت أوراق على المنضدة وكأسين من شراب. هي، بشعرها الأصفر الغامق المقصوص عند كتفيها، ونظارتها المستديرة الرفيعة، وابتسامتها الكبيرة، وشفتها السفلى الملتوية في سخرية خفيفة، وخديها الورديين، وعنقها الأبيض المائل للحمرة. ترتدي قميصًا رجاليًا أبيض، ومن فوقه سترة داكنة، وأرى بنطالها الأسود وحذاءها من أسفل المنضدة. كتفيها الضيقين، وجسمها المتماسك الذي أذكره كأنه كان بالأمس معي. هي، ماريك التي أحبّها، رغم السنوات ورغم ما فعلته بي. فيم كنت أفكر حين دعوتها للقاء؟

رفعت عيناها من الأوراق ناحية مدخل البار، فرأتني في وقفتي المتجمّدة. علت ابتسامة وجهها فأضاءته أكثر. تطلّع جليسها نحوي،

وقطع ما أجزم أنه غزل من ناحيته. قامت من خلف المنضدة فمشيت نحوها. خرجت من وراء المنضدة وهي مرتبكة بعض الشيء، وتقدّمت نحوي. ماذا نفعل الآن؟ أأمد يدي لها أم أفتح ذراعي؟ لم تنتظر: فتحت ذراعيها واقتربت معانقة، فعانقتها مضطربًا، ثمّ أطلنا العناق أكثر قليلاً مما يفعل الأصدقاء. أرجع كلّ منا رأسه للخلف قليلاً، ليرى وجه الآخر دون أن يتباعد جسمانا، وابتسمنا لبعضنا ابتسامة العارف بكل شيء؛ بالحبّ وبتعقيدات الدنيا والنفس، ابتسامة العارف المستسلم الرافض المقاوم معًا، ثمّ تعانقنا من جديد، لحظات، ثمّ تباعدنا. أخذتني من يدي، وقدمتني للرجل الذي كانت تجلس معه منذ دقيقة: فلان الفلاني – لم أستوعب الاسم الهولندي – رئيسها في العمل. ثم قدّمتني باسمي الأول: "لقمان، صديق قديم". وسلّم الرجل عليّ في اهتمامٍ غير مُبرر، وقال شيئًا ما حول ساعات العمل التي لا تنتهي وهِمّة ماريك، ثمّ أشار لها بالذهاب لتعتني بصديقها، وربت على كتفها. شعرت بغصّة: "لماذا يضع يده على كتفها؟".

جلسنا في آخر البار. سألتها عن رئيسها، وما يبدو أنه مغازلة، فضحكت وقالت إنه زير نساء ولا خطر منه، لأنّ نواياه بينة، ثمّ سألت في سخرية إن كنت أغار. رفعت يدي مستسلمًا أن ماحيلتي، فضحكت مرة أخرى وأمسكت بيدي مُعيدةً إياها للمنضدة. سألتني عمّا أتى بي لنيويورك وقلت لها، وسألتها عمّا أتى بها، وقالت لي شيئًا عن مناقشات بين شركات الأدوية التي تعمل في إحداها، وهيئات الرقابة على الأدوية، ومنظّمة الصحة العالمية، وتذكّرت أنّي قرأت شيئًا في جريدة الأمس عن

هذه المفاوضات. ابتسمت وقلت إنّي لم يخطر ببالي عندما قرأت عن هذا الموضوع أن يتسبب في لقائنا فابتسمت وقالت شيئًا. سألتها عن أخبارها، فقالت إنها لم تنتقل من ليدن، وما زالت تذهب لعملها في أمستردام بالقطار كلّ يوم، لأنها لا تقوى على مغادرة مدينتها الصغيرة. قلت إنّي كنت سأغضب كثيرًا لو تخلت عن مدينتها الصغيرة بعد كلّ ماحدث، فقالت عيناها إنها فهمت الإشارة ولا تريد الخوض في هذا الموضوع، وانتقلت للسؤال عني. حكيت لها تطورات العام الماضي منذ تكاتبنا: استقراري بنيويورك، ومحبتي للمدينة ولسكني ببروكلين، زيارة سلمى ابنتي وإعجابها الشديد بالمدينة، ورغبتها في الانتقال هنا والدراسة، وربّما الحياة معي لو قرّرت أنا البقاء بنيويورك. قالت إن هذا خيار صعب بالنسبة لفتاة في سنها، وسألتني عن رأيي. رفعت يدي في استسلامٍ قائلاً إن البنت تسأل نفس الأسئلة التي أسألها لنفسي منذ كنت في سنّها، فابتسمت موافقة.

سألتني عن تطور الحياة في مصر، وتناقشنا قليلاً في السياسة. ثمّ انتقلنا للحديث عن هولندا، فقالت لي إنها انضمت للحزب الديمقراطي المسيحي، وتعمل في مشروعات لإدماج المهاجرين في المجتمع المحلّي في ليدن. سألتها كيف تجد الأمر فلم تُخف إحباطها، وأضافت أنها اكتشفت لأيّ مدى كانت ساذجة حين ظنّت أن العمل السياسي تحكمه المصلحة العامة. أطرقت وأنا أُفكّر بيني وبين نفسي: ألم أقل لك ذلك منذ سنوات طويلة؟ ومن موضوع لموضوع، تحدثنا عن كلّ شيء: عن تفاصيل عملي وأبحاثي في السرطان وأبحاثها عن السّياسة في مصر وفي أوربا،

والمهاجرين العرب والمسلمين، والمشاكل بينهم وبين الدولة والمجتمع في هولندا، والسياسة في أمريكا و"الحرب على الإرهاب"، وعلاقتي بسلمى وعلاقتها المعقّدة بأمها، وعلاقة أمها المعقّدة بجدها، وتوق ماريك لأنْ يكون لها أولاد، ووالديها وأخيها، والبيت في ليدن، والموسيقى، وباخ، وإدوارد سعيد الذي نحبّه و لم نلتقيه قط، وسنحت لي فرصة للعشاء معه منذ شهرين لكنّي لم أذهب كسلاً، ونعتتني بالأحمق وضحكت، وقالت إنها ولاريب إحدى لحظات الغباء الذي يعتريني من وقت لآخر. لم أرد على الإشارة، وواصلنا الحديث عن كلّ شيء إلا نحن. لم نتناول عشاءً، بل قضينا السّاعات الثلاث في الحديث. ثمّ جاء السّاقي ليعلن قرب إغلاق المكان، ويقترح أن ننتقل للمطعم في الطابق الأخير إن أردنا استكمال الأمسية. بدت مُنهكة، فاقترحت عليها إنهاء السهرة هنا، وأومأت موافقة قائلة إنها لم تنم جيداً منذ وصلت. صمتنا ونحن لا نعرف أين يقف كلّ منا بالضبط. ثمّ سألتني إن كانت نوبة عملي في الصّباح، فقلت "لا"، قالت إن جلسة المفاوضات لن تبدأ قبل الحادية عشرة، واقترحت أن نتناول طعام الإفطار سويًا فوافقتها على الفور، واقترحت بدوري مطعمًا جديدًا بقرب منزلي في بروكلين، واتفقنا أن نلتقي أمام محطة جسر بروكلين في الثامنة. قبّلتها على خدّها، وتركتها ورحلت.

حين هبطت من الكوبري في طريق صلاح سالم دقّ تليفوني المحمول. نظرت للشاشة وأنا أواصل القيادة، وتعرّفت على رقمها. أوقفت السيارة على جانب الطريق ورددت. جاء صوتها الرخيم حذرًا أكثر من العادة.

كنّا في شهر نوفمبر وبقايا مطر مُبكّر تكسو الطريق. السيارات المارة تلقي برذاذ ماء مُتسّخ على زجاج السيارة. قالت إنها لن تستطيع المجيء في عيد الميلاد، سألتها لم؟ فقالت أشياء لم أفهمها عن حاجتها لأنْ تكتشف نفسها أكثر وتفهمها أكثر قبل أن ترتبط بأحد. استوضحتها، فقالت لي إنها ستشرح لي كلّ شيء في رسالة، لكنّها أرادت أن تسمع صوتي، وأنْ تقول لي ذلك في محادثة وليس في رسالة. قلت لها أن تأتي وتقول لي ذلك وجهًا لوجه، وأنّ هذا أفضل عند الربّ من التليفون فضحكت وقالت إن صوتي في التليفون كاف عند هذه النقطة. قالت إنها فكرت كثيرًا في الموضوع، وأنّ هذا هو أشقّ قرار تتخذه، وأنها تعلم يقينًا أنها تحبني، وأنّي توأم روحها، وأنها مستعدة في هذه اللحظة أن تقترن بي وللأبد، لكنّها أيضًا تعلم أن ذلك مستحيلاً، لأنّها هي ولأنّي أنا، ولأنّنا لو حاولنا أن نتخلّى عن أنفسنا، كي نتمكّن من الحياة سويًا فسنفقد أنفسنا. "لا أنت تستطيع الاستقرار في ليدن، ولا أنا أستطيع الاستقرار في القاهرة. كلانا لديه مشروعات لا يمكنه تحقيقها في بلد غير بلده". "وظهوري سيعقّد علاقتك بسلمى أكثر". "واختلاف الدّين، أنا أريد أن يكون أولادي مسيحيين". اعترضت، توسّلت، استرققت قلبها وعواطفها، وحاججت عقلها، وفعلت كلّ ما استطعت أن أُفكرّ في فعله وأنا واقف على حافة صلاح سالم، والسيارات ترميني بماء مُتسّخ، لكنّها كانت قد حزمت أمرها. قالت: "هي هي نفس المعضلة التقليدية، حبّ واستحالة". وبكت، ثمّ أغلقت الخط. ووجدت نفسي أقف وحيدًا في طريق صلاح سالم، أكثر وحدة من أيّ وقت مضى.

التقينا عند محطة جسر بروكلين في تمام الثامنة، لم ينم أيٌّ منا جيدًا لكننا كنا متيقظين. كنّا في حالة من الفرح لا يمكن تفسيرها بغير الذي يجمعنا ولا نتحدث عنه، كأننا نريد أن نقتنص كلّ لحظة ممكنة. تناولنا إفطارنا ونحن نحتفل بالطعام: هذا زبادي، ياسلام. وهذه قَهوة، تصورّي؟ هذا خبز بني بالحبوب، وهذا بيض وذلك سلمون، معقول؟ هناك أيضًا سلطة فواكه وأنواع من الجبن، وعصير برتقال، وتوت، توت حقيقي أحمر وأسود. هذا المطعم رائع. نتناول إفطارنا معًا، كأنّه كلّ الإفطارات التي كان يمكن أن نتناولها معًا. ويتسلّل إلينا شعور متزايد بالأمان يدفعنا للاقتراب من المناطق الخطرة. امتدحت المطعم ثمّ أضافت في تلاعب أن هذا الإفطار يكاد يبلغ في جودته إفطاراتنا في ليدن، فابتسمت وقلت "يكاد، لكنّه يحتاج لمزيدٍ من المران كي يبلغ هذه المرتبة" فضحكت وسألتني إن كنت أذكر المعكرَونة التي أعددناها سويًا في بيتها بليدن، فأجبت أنها كانت بالبروكلي والزيتون الأسود. أبدت اندهاشها من تذكّري لهذه التفصيلة، فنظرت لها مُعاتبًا و لم أزد.

استجمعت شجاعتها أخيرًا، وسألتني عن حياتي العاطفية، فهززت كتفي في لامبالاةٍ مُشيرًا لعدم وجود ما يستحقُّ الذكر. صمت، ثمّ سألتها عن يونانيها، فابتَسمت وهزّت رأسها نافيةً أن يكون هناك شيء. "لم تتطوّر الأمور أكثر من حدود المغامرة الأولى التي ذكرتها لك في رسالتي"، قالت، "لم يكن جادًا، و لم يكن بيننا من التوافق الروحي ما يمكن البناء عليه"، ورمقتني بنظرةٍ متسائلة عمّا إذا كنت قد فهمت، فأومأت وصمتنا. أردت أن أسألها عن توافقنا الروحي وما إذا كان قد شفع لنا، لكنّني تردّدت. لا

أريد إفساد بهجة هذه اللّحظات. لكنّها فسدت وحدها. بدأ يتسلل إليّ ذلك الألم الذي شقّ جنبي، حين قالت أنها لن تأتي للقاهرة، نفس الألم الذي شقّ جنبي في كلّ مرة تحدثنا فيها، وتكاتبنا وتخاصمنا حول حبّنا واستحالته. كم مرة قررت قطع الاتصال بها كي أتفادى هذا الألم! والآن، بمحض إرادتي ألقاها. فيم كنت أفكر حين اقترحت ذلك؟ ما الذي كنت أتوقّع حدوثه؟ أن تختلف هي هذه المرة؟ أن أختلف أنا؟ أن نتفق أخيرًا، ونعيش في سعادةٍ إلى الأبد؟ ما هذا الذي أفعله بنفسي؟ وكيف سأعود بعد ذلك لحياتيَ الخالية من الأمل؟ لماذا ينكأ المرء جراحه بيده؟ وهي، العاقلة، الأبعد نظرًا والأكثر حكمة، لماذا وافقت على اللّقاء؟ هل لديها بعض الأمل – مثلي – في أن نتفق، في أن ينتهي بنا الأمر سويًا؟

قاربت الساعة على العاشرة والنصف، فانتبهنا لضرورة الرحيل.

– متى ستنتهين من عملك اليوم؟

– ليس قبل العاشرة مساءً، لكن يمكنني الإفلات منهم غدًا في الخامسة عصرًا.

– وهل لديك خطط بعد ذلك؟

– لا، أين سلمى؟ ألن تلتقيها غدًا؟

– لا، سلمى في زيارة لواشنطن.

– دعنا نلتقي إذًا.

– بكل سرور.

تأبطت ذراعي ونحن خارجين من المطعم، ثمّ تبادلنا قبلاً صديقة ورحلت. وقفت لحظاتٍ أرقبها حتى دخلت محطة القطار، ورحلت بدوري إلى المستشفى.

تقابلنا أول مرة في نفس المدينة، منذ سبع سنوات بالضبط، في حلقة دراسية نظّمتها الجامعة. أُعجبت بها منذ وقعت عيني عليها، لكنّي كنتُ مرتبطًا، ومن ثمّ لم أسعى لاستكشاف هذا الطريق. قالت لي – فيما بعد – إنها أعجبت بي منذ لقائنا الأول وحاولت استكشاف موقفي، لكني أخبرتها بطريقة غير مباشرة أنّي مرتبط. لا أذكر ذلك، لكنّها تؤكد أنّي كنت أتلقّى مكالماتٍ تليفونية عديدة، وأنّي ابتسمت معتذرًا ذات مرة كنت أحادثها، ودقَّ جرس تليفوني قائلاً إن هذه مكالمة من "نصفي الحلو"، فأحجمت. لم يحدث بيننا سوى هذا الإعجاب الخفي، إعجاب يدرك إمكانية تطوره، لكنّه يظلّ مُؤجّلاً. بعد ذلك بشهور أرسلت لي صورًا التقطتها للمشاركين في الحلقة الدراسية جميعًا، وبعدها بعام أرسلت لها، ولبقية المشاركين أُخبرهم عن بحث طبي قمت به في المجال الذي كنّا نبحثه أثناء الحلقة الدراسية فردّت مُهنّئة، وبعد ذلك بعام كامل أرسلت تُوصيني على زميلة لها ستقضي عدة أسابيع بإحدى مستشفيات القاهرة، وهنا تطورت الأمور.

كنّا في أواخر أغسطس عندما وصلت رسالتها التي تُنبئني فيها بوصول صديقتها للقاهرة، وكان الجو حارًا الدرجة تدفع لليأس. وفي وسط القيظ، وأنا أنضح عرقًا في صالة منزلي الصغير، رددت عابثًا ومتسائلاً عن طبيعة علاقتهما هي وصديقتها، فأخذت رسالتي على مَحْمل الجد وردت قائلة إنها "مستقيمة"، وإن الكثيرين يعتقدون أنها تميل للنساء، الأمر الذي يثير أعصابها. ثمّ سألتني ما هو الأمر الذي دعاني للاعتقاد بأنّها كذلك؟ فلم أجد بُدًا من التظاهر بجدية ما ذكرته مزحًا، فقلت لها إن جديتها

في التعامل مع الرجال ربّما تكون مسئولة عن هذا الانطباع. فجاء ردّها مباشرًا. قالت إن ظنّي هذا يعني أنها حالة مفقود الأمل فيها، حيث إنها شعرت بالانجذاب نحوي، وظنّت أنها عبّرت لي عن إعجابها. أضافت أنّي كنت وقتها مشغولاً بامرأة أخرى، ولكنّ لم يخطر على بالها أنّي يمكن ألا ألحظ إعجابها، بل وأنّ أظُنّ بها الميل للنساء. ثمّ سألتني عمّا إذا كنت مازلت مشغولاً بهذه المرأة الأخرى؟ هكذا. وأضافت نصف اعتذار عن أسلوبها المباشر الذي وصفته بأنّه "أسلوب هولندي أصيل".

تبع هذه الرسالة "الهولندية" سبعمائة وثلاثون رسالةً أخرى خلال عام، بمعدّل رسالة كلّ يوم من كلّ منّا. كانت هذه الرسائل بمثابة اعترافات متبادلة، عن كلّ شيء. كأنّ مسًا قد أصابنا، لم نترك موضوعًا إلاّ وتحدثْنا فيه وبصراحة تامة تكاد تكون جارحة. أخرج كلّ منّا أسوأ مخاوفه عن نفسه وعن الآخرين، كلّ مايعتقد أنه عيوبه، أحلامه التي تخلّى عنها وتلك التي لا يجرؤ على التعبير عنها، ذنوبه التي اقترفها وتلك التي يتمنّى لو أنه قد فعلها، كلّ شيء، كأنّنا نتجرد عمدًا من كلّ قناع ومن كلّ ادّعاء. قلنا لبعضنا كلامًا قاسيًا ولكنّه صريح، وأعجبتنا حالة الصراحة المتبادلة فأكملنا. 365 اعترافًا من كلّ طرف، فتح كلٌ منا قلبه للآخر مثلما لم يفعل من قبل، ربّما لأننا لم نكن نظن أننا سنلتقي. لكننا في أثناء ذلك أدمنّا بعضنا. لا أكاد أذكر من ذلك العام سوى هذه الأمسيات التي قضيتها أمام شاشة الكمبيوتر، قارئًا لاعترافات وكاتبًا لها.

ثم اقترحت عليها أن نلتقي، هكذا دون تفكير مثلما فعلت اليوم. سألتني لماذا نلتقي؟ فقلت كيلا نقضي بقية عمرنا نسأل ماذا لو كنا قد

التقينا؟ وافقت، بشرط أن يكون هذا هو عنوان اللقاء، لا أكثر. اقترَحت أن نلتقي في فينيسيا، فسألتها لم لا تأت للقاهرة فقالت إن سفرها لبلدٍ آخر كي تقابل رجلاً هو خطوة ضخمة لا يمكن أن تأتيها في الإطار الذيَ حدّدناه لأنفسنا، وهي لم تزر فينيسيا من قبل ولا أنا، ومن ثمّ يمكن أن يتم اللّقاء في سياق "زيارة" كلّ منا لفينيسيا. ضحكت، وقلت إن هذه عملية معقّدة، وإنّي لا أمانع في السفر للقاء امرأة ومستعد لزيارتها في هولندا. ضحكت و لم تعترض، واتفقنا على أن أزورها في مدينتها الصغيرة ليدن في الأسبوع الثالث من سبتمبر. أعلنت بهولنديتها الأصيلة أنّي سأنام في غرفة منفصلة أثناء زيارتي لها، ولن يحدث بيننا أيُّ شيء. اعترضت مُتسائلاً كيف سنعرف بعضنا فعلاً إن لم نتخطى هذا الحاجز الّذي يشوش الرؤية بين الرجل والمرأة؟ وقلت إنه إن أردنا معرفة حقيقة مشاعرنا، وما إذا كان ما بيننا يتخطّى مجرد الانجذاب يجب علينا أن نمارس الجنس، كي نخلص من هذا الموضوع، ونرى بعدها إن كنّا فعلاً نريد أن نكون معًا. ردت ساخرة إن هذه حجة رخيصة وقديمة: "لا جنس، وستنام وحدك في غرفة منفصلة". وقد كان.

أخذت القطار من مطار أمستردام حتى ليدن. خرجت من باب القطار، فوجدت تلك الشقراء البديعة تنتظرني بابتسامةٍ عريضة وذراعين مفتوحتين: ترتدي شيئًا أبيض تعلوه سترة قصيرة منَ الجينز الأزرق، وبنطال أسود. شعرها أقصر مما رأيته أول مرة في نيويورك؛ لا يصل لكتفيها. نظرنا لبعضنا طويلاً، وابتساماتنا نحنِ الاثنين تقول أشياءً كثيرة، مثل: "ماهذا الجنون؟" "أحقًا أنت هنا؟ وأنتِ؟" "تُرى هل سيفلح هذا

الذي نفعله؟" "هل يمكن أن تكوني أنت، فعلاً، هي؟" و"كلانا يعلم أن هذا الأمر لن ينجح، لكن لم لا نحاول؟". ثمّ خرجنا من الرصيف، وقادتنا خارج المحطة إلى تاكسي صَغير انطلق كالمجنون نحو منزلها، وهي تمسك بذراعي مع كلّ انحناءة حادّة من التاكسي. قلت لها بصوتٍ هامس إنّي لم أكن أعلم أنّهم يقودون بهذه الطريقة في هولندا، فابتسمت وهزّت رأسها نافية، وأضافت بصوتٍ لا يكاد يُسمع: "يبدو أنك أحضرت معك سائقك الخاص". ابتسمت وهزت رأسي، وسكتنا حتى خرجنا سالمين. دفعت الحساب، وقال لها السائق الأبيض شيئًا بالهولندية، وتضاحكت معه ومضينا.

بيتها رقم 7 في شارع له اسم طويل لم أفلح في حفظه. البيت أبيض، من طابقين، في صفٍ طويل من بيوتٍ مشابهة تمتدّ بعرض ميدانٍ مستطيل تتوسّطه حديقة هادئة. أمام باب البيت مربط للدرّاجات. تحتَل واجهة البيت نافذتان زجاجيتان شديدتا الارتفاع، يقسم كلاً منهما عود من الخشب الأبيض. فتحت الباب مرتبكة قليلاً، ودخلت خلفها وأنا أشدّ ارتباكًا. اقترحت أن نصعد للطابق العلوي ونضع أشيائي في مكانها، ثمّ تريني المنزل، فتبعتها. صعدنا سلمًا خشبيًا ضيقًا رأيت أعلاه صورة لقصيدة بالإنجليزية لم أتبيّن تفاصيلها، وصورًا أخرى على الحائط يبدو أنها لعائلتها. في أعلى السلم وجدت ثلاث غرف. قادتني لواحدة منهم، وقالت: "هذه غرفتك"، وابتسمت وهي تضغط على ضمير الملكية. ابتسمت ونظرت حولي. قالت إنها غرفة بروتسانتية، ليس فيها شيء زائد أو زخرف: فراش، وخزانة ملابس، ومنضدة صغيرة. أشارت

للحمّام بجوار الغرفة وقالت إنّنا سنشترك في استعماله، فرددت مبتسمًا بألاّ اعتراض لدي على المشاركة. تورّد خدّاها وهي تبتسم. أرتني الغرفة الأخرى التي اتضح أنها غرفة للغسيل، ثمّ فتحت باب الغرفة الثالثة قائلة إن هذه غرفتها هي. نظرت عبر الباب فلم أجد فراشًا، فابتسمت قائلة إن الفراش سيصل في الغد، وستحتاج مساعدتي في نقله. سألتها أين كانت تنام فقالت في الفراش الذي أصبح الآن في غرفتي. "أي أنّي سأنام في فراشك! كنت أظن أننا اتفقنا على عدم السّماح بذلك!" لكزتني هازئة من تظرفي وقالت لي أن أسترح وأغير ملابسي إن شئت، وأننا يمكن أن نخرج للعشاء بعد نصف ساعة، أو نعدّ شيئًا في المنزل.

توقّفت وأنا في طريقي للطابق الأسفل وقرأت القصيدة؛ تحكي عن رجل يبحث عن الفردوس الأرضي، وظلّ يبحث عنه ثمّ مات عندما بلغه، ساعتها أدرك أن الفردوس أو الجحيم إنّما يكونان في الرحلة نفسها وليس في المنتهى. هبطت السلّم الخشبي الذي يئز رغم جدته، فوجدتها جالسة في أريكة وثيرة، مكسوة بكتان أبيض مطفي اللون تقرأ الصّحف. أنزلت صفحة الجريدة لأسفل عندما رأتني، وسألتني إن كنت قد ارتحت. أجبت بإيماءة، فسألتني إن كنت أريد العشاء بالخارج أم أريد أن تطهو لي؟ خفق قلبي. لماذا يشعر الرجل بالإطراء عندما تطهو له امرأة؟ لماذا يشعر وكأن هذا عمل حميم؟ أبديت اندهاشًا مصطنعًا من أنها تستطيع الطهو، وقلت إنّي أفضل تذوق طعامها هي، فضحكت وحذّرتني من النتيجة وقامت. أخذتني لأرى بقية البيت: صالة من جزئين بها أرائك بجانب النافذتين المطلّتين على الشارع، والذي تحجبه ستائر من الكتان تهبط من أعلى

لأسفل، ثمّ منضدة صغيرة وأربعة مقاعد في الجزء الآخر، وخلفه مطبخ مفتوح أبيض الجدران، ومن خلفه تبدو حديقة صغيرة في الفناء الخلفي للمنزل. باب معظمه زجاج يفصل المطبخ عن الفناء، وتعلوه ستائر من الكتان أيضًا. خضرة الحديقة الزاهية تبدو واضحة من خلف الستائر وباب الفناء. المطبخ بسيط وأنيق. سحبت مقعدًا وجلست أرقبها وأحدثها، وهي تُعدّ الطعام. أخبرتني أننا سنأكل معكرونة بالبروكلي والزيتون، وسألتني إن كنت لا أحبّ أيهما، وبدأت في إعداد الطعام، وبدأنا في الحكي.

حكيت لها عمّا مرّ بي منذ التقينا في الحلقة الدراسية. لم يكن هناك جديد لم أذكره في رسائلي، لكنّها أرادت الاستماع منّي مباشرة، ثمّ أخذت تقاطعني بأسئلة تستوضح بعض النّقاط في كلّ قصة قصّصتها. ثمّ أخذت تسألني عن أفكار أخرى قلتها:

– ماذا كنت تقصد حين قلت إنّك لا تحب عملك؟ هل هو الطبّ الذي لا تحبه، أم المستشفى الذي تعمل فيها؟ وكيف تفسّر أنك بارع في هذا العمل لهذا الدرجة؟ هل يمكن أن تبرع لهذه الدرجة في شيء لا تحبه؟ ولماذا واصلت هذا العمل كلّ هذه السنوات إذن؟ هل تظن أن المشكلة في نوع العمل فعلاً، أم أنك غير راض لأسباب أخرى، ربّما لا تراها أو لا تريد أن تراها؟

– ....

– لا، أنا لست محللتك النفسية، فقط أريد أن أفهم. لأنّ كلماتك تمسّني، وأشعر أنّي أفهم الروح التي تحرّك قلقك، لكن هذه نقاط غمضت عليّ.

– ...

– هل تفضل الكثير من الزيتون في المعكرونة؟ هل تزرعون الزيتون في مصر، أم أنه يُزرع فقط في فلسطين؟

– ...

واصلنا الحكي، وصبت لنا كأسين من البورتو الذي قالت إنه شرابها المفضّل. لم أكن قد تذوقته من قبل، فأنا أُفضّل النبيذ، لكنّي أحببته من يديها. قاربت الساعة على منتصف الليل عندما اقترحَت أن نخلد للنوم. صعدت للطابق الأعلى وغيرت ملابسي واغتسلت، في حين ذهبت هي لجمع بعض الأغراض في المطبخ، والتأكد من إغلاق النوافذ وغير ذلك سمعت صوتها وهي تصعد السلم ثمّ صوت المياه يتدفّق في الحمام. بعد دقائق خرجَت، فخرجت وحييتها. كنت أرتدي ملابس نوم رمادية، ووجدتها ترتدي ملابس نوم مشابهة. ضحكنا وقلنا إننّا نشبه فريقًا لكرة القدم: الفريق الرمادي! ثمّ قلنا شيئًا عن النوم والصباح والإفطار، وخطّة الغد، وتمنّينا لبعضنا نومًا هادئًا، وذهبت لغرفتها. عند الباب استوقّفتها:

– هل ستتركيني أنام في تلك الغرفة فعلاً؟

– طبعًا!

– لكنّي أخاف من النوم وحدي!

– لا تخف، الدار أمان.

– وأخاف من الظلام.

– هناك مصباح بجوار الفراش.

– طيب ماذا أفعل لو هاجمني الوحش؟

– الوحش!

ضحكَت بصوت عالٍ:

– لوَ أتاك الوحشَ قل له إنّي في الغرفة المجاورة، وسينصرف خوفًا.

تبادلنا قُبلاً صديقة، وخلد كلّ منا للنوم في غرفته. و لم يأتِ الوحش.

استيقظت في الصباح على صوت موسيقى "باخ" الآتية من الطابق الأسفل. هبطت السلم ووجدتها حيث كانت جالسة بالأمس، مستغرقة في الأريكة الكتانية بين الجرائد. رفعت رأسها وابتسمت: "هل أيقظتك الموسيقى؟" أشرت برأسي نافيًا، فأضافت: "لا أدري لمِ؟ ولكنّي أحبّ الاستماع للموسيقى الكلاسيكية في الصباح بصوتٍ مرتفع جدًا". قلت لا اعتراض لدي طالما كانت مقطوعات للبيانو وليست للآلات النحاسية، فضحكت وطمأنتني. كانت ترتدي بلوزة قطنية سوداء، وبنطالاً أسود، وشعرها الأشقر يبدو أكثر صفرة مما هو عادة، أو لعلّها الشمس التي كانت تتسلل من النافذة وتنعكس على شعرها. مشيت للباب المفضي للحديقة فقالت إن هناك قهوة ساخنة في المطبخ. صببت لنفسي كوبًا، وخرجت به للحديقة. الهواء مُنعش مع لسعة بردٍ خفيفة حين تختفي الشمس. استنشقت الهواء وشعرت بأنّ أكسجينًا جديدًا يدخل صدري ويوقظني. فكّرت في نقاء الهواء هنا، وفي رئتي المسكينتين اللتين تتحمّلان تلوث هواء القاهرة منذ سنوات. ما الذي يُجبرني على ذلك؟ سألت نفسي للمرة الألف؛ ما الذي يدفعني للبقاء بالقاهرة رغم كراهيتي لما آلت إليه؟ كيف أفعل هذا بنفسي؟ كيف أعيش في مكانٍ أعلم أنه يأكل منّي جزءًا كلّ يوم،

من بدني ومن روحي؟ هل هذه ضريبة ما يجب أن أدفعها؟ ولماذا يجب أن أدفعها؟ لماذا لا أعيش هنا، في هذه الحديقة؟ أطلّت برأسها من الباب: "إفطار أيها السّيد؟" هززت رأسي موافقًا، وعدت للداخل.

علينا الذهاب وإحضار فراشها الجديد. سرنا في شوارع ليدن اللطيفة حتى وصلنا المتجر، وجدت فراشها قد وصل من المخازن، لكن السيارة التي يفترض أن تحمله للمنزل لن تأتي قبل الغد، بما يعني أنها ستقضي ليلةً أخرى بدون فراش. تطوعت وأقنعتها بأنّ نحمل الفراش للمنزل. لم تكن المسافة بعيدة، وكان الفراش مُفكّكًا ومرصوصًا بعناية في لفة مُحكمة. حملناه وسرنا عبر شوارع ليدن، ونحن غارقون في الضحك من منظرنا.

– هل تعلمين أن الفلاحين في مصر يحملون فراش العروسين على عربة، ويطوفون به شوارع القرية قبل أن تذهب لمنزلها ليلة الدخلة؟

– لا، لم أكن أعلم، ونحن لسنا في الريف.

وصلنا، وتمكنّا بعد لأي من إيصال الفراش الثقيل لغرفتها، ثمّ نصبناه سويًا، ووضعنا عليه المرتبة التي نامت عليها بالأمس. ألقت بنفسها على الفراش تختبره، ووقفت أرقبها في ابتسامة صامتة. انتبهت لنظرتي، فارتبكت قليلاً وقامت. وخرجنا نتجوّل في شوارع المدينة نصف النائمة. أرتني المتنزه الذي حدّثتني عنه في رسائلها، وقالت إن الناس أصبحوا يتجنّبونه، لكنّها تذهب إليه كلّ يوم كيلا يتم التخلّي عنه نهائيًا للسكارى ومتعاطي المخدرات. أرتني الشوارع التجارية الممتلئة بالشباب والشوارع الحزينة التي يقطنها الفقراء والمهاجرون، ثمّ مررنا من عند القناة التي تعبر المدينة أكثر من مرة ووقفنا عند الجسر الصغير فوقها، ثمّ سرنا في شوارع

أخرى بدت على صفيها مباني قديمة، كنيسة، ومجلس المدينة، ودار الأوبرا، والمحكمة. وحدّثتني عن كلّ مبنى وتاريخه، ثمّ عدنا للمنزل.

– قلت إن علاقتك بابنتك سلمى متوترة، وإنّها لا تنظر إليك حين تحادثك، وتظل صامتة معظم الوقت. ما أدراك أن الذنب ليس ذنبك؟ أعلم أنّك فعلت كلّ مافي وسعك لكنّها هي لا تعلم ذلك. وإذا كانت لا تحبك مثلما تشك، فمن تظن المسئول عن هذا؟

– ....

– كيف يمكن أن يكون هذا صحيحًا: إنها في الخامسة عشرة، كيف يمكن ألا يكون الخطأ خطأك؟ إنها طفلة، وغالبًا غاضبة منك ومن أمها ومن العالم كلّه. من واجبك أنت أن تكسبها وتكسب حبّها! تقول إن أمها مُتعصّبة وموتورة، ألا تظن أن سلمى ترى ذلك وتكرهه فيها، وتكره أنك تركتها وحدها مع الأم الموتورة، أو أنك أنت الذي تسببت في جنون أمها؟

– ....

– لابد أن هذا أمر صعب عليها.

– ....

– لكن لماذا تستسلم أنت لتعنّت الأم؟

– ليلى فقدت عقلها و لم يعد للحوار معها فائدة. بدأت بالتصوف ثمّ انتهى بها الأمر بجنونٍ مطبق. لا أستطيع إجبارها على التعقّل، لا أحد يستطيع. طلبت مساعدة أبيها، وهو أمر صعب على نفسي، لكنّه فشل وأعلن يأسه من التفاهم معها.

– وكيف ستشعر سلمى إن وجدت امرأةً أخرى تظهر في حياتك؟

هززت كتفي دون أن أجيب. فغيّرت مجرى الحديث إلى أبويها، وقالت إن أخاها يعيش في المدينة ذاتها، ويمكنه أن يتناول معنا طعام الغداء. وافقت فاتصلت به فورًا، ورتبت اللقاء. دهشت منها ومن نفسي، سأقابل جزءًا من عائلتها، بعد يوم من لقائنا الأول الحقيقي. وكلانا يرغب في ذلك. هل نحن مجانين أم ماذا؟

عندما وصلت للمستشفى علمت بخبر وفاة "إدوارد سعيد". لم أكن قد قابلته، لكنّي كنت أحبّه كأنه أبي، وأحيانًا كأنه أنا. وكانت ماريك تدّعي أن بيننا شبهًا، شكلاً وموضوعًا، ولسببٍ ما تركت نفسي أنجرف في هذا الحبّ المجهول من طرفٍ واحد لشخص لم يسمع عنّي ولو عرضًا. اليوم مات "إدوارد سعيد"، وشعرت بموته وكأنّه فقد شخصي. دقّ تليفوني ووجدت ماريك على الجانب الآخر من الخط:

– لقمان: سمعت عمّا حدث لسعيد؟

– نعم.

– أنا آسفة جدًا.

– وأنا أيضًا.

– هل ستذهب للجنازة؟

– لا أدري. بأيّ صفة أذهب؟ يقال إن المراسم ستقتصر على العائلة.

– تذهب بصفته أبيك الروحي.

– حسنًا، لكنّه لا يعرف ذلك!

– لا يهم أن يعرف، المهم أن تذهب، ولا أعتقد أنه كان سيمانع لو علم. سآتي معك. لنذهب وندع أهله يطردوننا.

– ستأتين؟ فعلاً؟ لكن المراسم ستبدأ قبل الخامسة؟

– لا أعتقد أنّهم سيغرقون بدوني هنا: هذه مفاوضات لانهائية فيما يبدو. سأحصل على تفاصيل موقع الكنيسة. لاقني بعد ساعة عند محطة سنترال بارك في الجادة الخامسة، وسنذهب سويًا.

أيُّ معجزة تلك التي جعلتني أشارك في مراسم وداع الرجل الذي نصبته أبًا روحيًا لي ولم ألتقيه في حياتي، وتتأبّط ذراعي وتواسيني المرأة التي نصّبتها زوجة روحية لي وأنا أعلم أنها لن تكون لي؟ أجلس في أحد صفوف الكنيسة بين أقارب المتوفي وأصدقائه ومعارفه ومتملّقيه، أستمع إلى رثاء محبيه ممّن لهم حقّ الحديث عنه، وبارينبويم يعزف موسيقى باخ، وماريك تمسك بذراعي وتربت علي، وأبواب قلبي تنهار، والدموع تأتي بلا قيود؛ أرتجف من البكاء فتضمّني ماريك وتدفئني فأهدأ قليلاً، ودموعي تسيل دون أن أعرف إن كنت أبكي الميت أم الحي أم المستحيلة.

توجّهنا لمحطة ليدن. في شارع المحطة أشارت إلى مطعم يبيع وجبات مصرية، وأمامه بالضبط مطعم آخر يبيع وجبات إسرائيلية، وكلاهما يضع صور سندوتشات فلافل وشاورمة. ضحكنا وقالت إن المطعمين لم يتقاتلا بعد، ربّما بسبب معاهدة السلام. أخذنا القطار إلى لاهاي. جلسنا صامتين أرقب الحقول الخضراء وقطعان المواشي الهائمة. وصلنا لاهاي وبدأنا جولتنا الصباحية بمحكمة العدل الدولية. كان الجو باردًا. وقفنا لتأخذ صورة لنا

أمام المحكمة: وضعت الكاميرا على نظام "التصوير الذاتي"، وجرت لتقف بجانبي وهي ممسكة بمعطفها الصوف الأسود. اقتربنا من بعضنا، فلمسها كتفي، ثمّ وضعت يدي على كتفها متحرجًا. لم أبسط يدي عليه، وإنما كورتها وتركتها بالكاد تلامس كتفها. ضحكنا – ربّما من ارتباكنا، وتكّت عدسة الكاميرا. قُمنا بجولة كاملة في لاهاي الهادئة، حتى وصلنا للميدان الرئيسي الذي ينتشر فيه الحمام والسياح القليلون الموجودون بالعاصمة، ووجدنا رجلاً يقلد تمثالاً لـ"توت عنخ آمون" فطلبت أن تلتقط صورة لي معه. تناولنا طعام الغداء في مقهى بأكثر أحياء المدينة حركة. مدّ مناضده في الساحة الممتدة أمامه بين الأشجار، وتحت شمسيات كبيرة. أعمدة الإضاءة العمومية تبعث بضوء خافت يبدو غريبًا في الظهيرة الملبدّة بالغيوم، وهناك أربعة أو خمسة زبائن فقط في الساحة كلّها. جاء النادل وتحدّث بالهولندية، وماريك تومئ وتقول "يا، يا، بريما". وجّه الرجل الحديث لي، وهو يكمل ما خمّنت أنه قائمة الوجبات الخاصة، وأنا أومئ وأردّد "يا، يا، بريما" وهي تكتم ضحكتها حتى ذهب. قالت إنّي كنت أرد في المواضع السليمة حتى ظنت أني أفهم ما يقول. طلبنا طعامًا وعدنا للحديث. حكت لي قصّص المهاجرين المسلمين بهولندا وأنواعهم، من القّلة القليلة التي تندمج في المجتمع إلى هؤلاء الذين يريدون ولا تسمح لهم الظروف أو المجتمع بذلك، وهؤلاء الذين لا يريدون الاندماج بل ويحاولون تغيير معالم المجتمع كي تتفق وعاداتهم.

تناقشنا بعض الوقت في معنى الاندماج، وقالت إن من حق الأقلية المهاجرة أن تطالب المجتمع المضيف بالتأقلم مع عاداتها، وأنّ يفسح لهذه

العادات صدرًا، لكن هذا الحق يُثير ضغينة هؤلاء الذين لا يرغبون في تغيير عاداتهم، خاصة حين تكون الأقلّية المطالبة بهذا الحق نفسها غير راغبة في التأقلم مع المجتمع المضيف على الإطلاق. تحدّثنا عن العمل التطوعي الذي تقوم به في أحد المراكز المتخصّصة في مساعدة المهاجرين على التعامل مع النظام الصّحي المعقّد. استأذنت بالمناسبة وأجرت عدة مكالمات تتعلّق بهذا المركز، وسمعتها تردّد بريما وأخذت أقلّدها، فزجرتني وواصلت الحديث. ثمّ قمنا وذهبنا للمشي قليلاً بالمنتزه الرئيسي، وضحكنا من قصة منتزه ليدن الذي تصر على السير فيه كي تحافظ على طابعه المدني. سألتني عن انطباعي، وقلت إن لاهاي تبدو كمدينة هجرها أهلها، على الأقل مقارنة بالقاهرة. ردت بأنّها هي التي تعيش في ليدن تجد لاهاي هادئة ومحافظةً أكثر من اللازم. سرنا وجلسنا وسرنا حتى المساء، ونحن نتحدث ونصمت، دون أن يكون الصّمت ثقيلاً بيننا؛ نصمت، وأشعر أنّنا مازلنا متصلين – كأننا نتحدث لكن بلغة صامتة.

في الثامنة وصلنا أمام كنيسة قديمة قالت إنها تذهب إليها في بعض الآحاد عندما تكون في لاهاي. ابتسمت وأنا أهزّ رأسي في يأسٍ عابث:

– صحيح، مازلت لم تفسري لي قصة الكنيسة هذه؟

– بلى، لقد فسرتها حوالي عشر مرات في الرسائل.

– لقد شرحتيها عشر مرات ياعزيزتي، لكنّك لم تفسريها!

– حسنًا، سأحاول تفسيرها بعد غد. فغدًا سنذهب لأمستردام، ولايصح الحديث عن الدين في هذه المدينة. بعد غد سنذهب لشاطيء قريب لترى المحيط. قلت إنك لم تذهب لشاطيء المحيط من قبل. سآخذك

لهناك، وساعتها لن يكون لدينا شيءٌ نفعله سوى النقاش.

– طيب، لبعد غد إذًا.

– الآن هناك حفل لعازف التشيللو الشهير بيتر وسبلي في هذه الكنيسة: سيعزف مقطوعات لصديقك المفضّل "باخ" لمدة ثلاث ساعات: هل تريد الحضور أم أن لديك مشكلة في الدخول للكنيسة؟!

– هل تمزحي؟ و لم سيكون لدي مشكلة؟

– لا أعرف، واضح أن لديك شيء ضد الكنائس؛ يعني ربّما باعتبارك نشأت كمسلم وكذا.

– وماعلاقة هذا بذاك؟ سؤالي لك عن مسألة الايمان برمتها، ليست عن الدين الذي تتبعينه.

– يعني ندخل؟

– طالما لن أضطرّ للصلاة!

لم يكن أحد مضطر للصلاة، فهذا البيتر وسبلي مسّ شغاف أرواح الجمهور حتى دمعت عيوننا من التأثر. وماريك سعيدة كطفلة، وتختلس النظر لي من وقتٍ لآخر، وعلى وجهها ابتسامة عريضة. أسعيدة هي لأنّنا معًا، ولأننا نشعر بهذه الراحة الكاملة بجوار أحدنا الآخر، أم سعيدة لأنها تراني جالسًا في قلب الكنيسة، وكانت تظن أن ذلك سيُسبِّب مشكلة؟ قلت لنفسي ربّما هي سعيدة لأننا نشعر بالراحة معًا، حتى ونحن في قلب عالمها هي. كنا جالسين في الصفّ قبل الأخير، ملتصقين، والجمهور القليل موزّع على الصفوف الخشبية، يختلس بعضهم النظر نحونا من حينٍ لآخر. أعرف هذه الحالة؛ أنا الوحيد صاحب البشرة

الداكنة في الكنيسة، ولابدّ للجمهور الأبيض أن يتأمّل هذا الغريب. ماذا يفعل هنا؟ هل يتعلّم كي يرتقي ويصبح مثلنا؟ هل هو يا ترى دليل على أن هناك أمل في هذه الشعوب؟ أم أنه يتظاهر كي يخدع هذه الشّقراء المسكينة؟ أعرف هذه الحالة وأكرهها؛ لا أريد أن أكون دليلاً أو عينة أو حتى نموذجًا. لكنّي الليلة لا آبه، أبتسم للجمهور الفضولي، أملأ ناظري من ماريك الجميلة، وأغرق مع الموسيقى التي تغمر جنبات الكنيسة الخالية من الزخرف. ولتصلي روحي، إن استطاعت، من أجل باخ.

خرجنا من كنيسة الموسيقى في الحادية عشرة، وقررنا أن الوقت قد تأخر على العشاء، فعدنا للمنزل وتناولنا بعض الفاكهة، وقمنا بطقسنا المسائي حول الحمّام المشترك، والقُبلات الصديقة، ثمّ ذهب كلٌ منا للنوم في غرفته.

في العاشرة تمامًا رأيت وجهها المشرق يظهر رويدًا رويدًا على سلم محطة جسر بروكلين وشعرها الأصفر القصير يتهادى حول وجهها مع صعودها للسلّم نحو الشارع. رأتني وابتسمت ابتسامتها العريضة الحانية. عند الدرجة الأخيرة من السلّم مددت لها يدي، فأمسكتها واقتربت مني فاحتضنتها. استسلمت لحضني. طال عناقنا والتصقنا أكثر. جسمي كلّه يمسك بها. لا يريد أن يفلتها. لم أكن أعرف أن أجزاء جسمي يمكن أن يكون لكلٍ منها إرادة مستقلة. لم أكن أعرف أن أعضائي يمكن أن تشتاق، وأنّ تشعرَ بالتصاقي بأحد، وأنّ تهدأ هكذا في حضنه. كأن كلُ جزءٍ مني يطالبني بالاّ أدع هذه المرأة تبتعد. لا أريد تركها، وهي لا تتركني. تراجعنا

برأسينا للوراء قليلا كي نرى بعضنا أفضل، لكنّنا ظللنا ملتصقين. احمر وجهها قليلاً من الخجل، لكنّها لم تبتعد.

عدنا ودفّنا وجهينا في حضن بعضنا، ثمّ نظرنا لبعضنا مرةً أخرى. عيناها حمراوتان هذه المرة، من الدمع، وفي عينيّ مثل دمعها، وفي قلبي ألم مقيم. التصقنا، لا ندري ماذا نفعل بنفسينا. بعد وقت، لا أعلم كم، تراجعنا قليلاً وإن ظللنا ممسكين بعضنا البعض. وضعت ذراعي حول كتفها، وأمسكت هي بذراعي الأخرى، بلعت ريقي، وسرنا. تجوّلنا على شاطيء النهر، وبدت مباني نيويورك من الناحية الأخرى. أناس من كلّ لون وصنف يجلسون على الأرائك الحديدية المتناثرة في المكان، يابانيون يلتقطون صورًا لواجهة نيويورك البحرية كما تبدو من هنا، وآخرون يركضون أو يتنزّهون وكلابهم. جلسنا، وسرنا، والتقطنا الصور لبعض الأزواج المحتاجين ليد ثالثة.

"لا مفر. أنا أحبّكِ"، قلت. "وأنا أحبك"، قالت. "أنت توأم روحي"، قلنا. وكلّ هذه السنوات لم تمر، وكلّ هذا العذاب لم يكن، أو لا يهم. غفرت لك ما لقيته على يديك، أنا الذي لا يَغفر. واعتذرت هي عن الألم الذي سببته، وقلت "لا داعي"، فقد كان الحقّ معها. ربّما أعمى الحب بصري عن الصعوبات، لكنّه لم يمنعها هي من رؤيتها، وهذا لا يجعل الخطأ خطأها. اعترفتُ بأنها كانت مُحقّة، وبأنّ حبنا كان مُستحيل التحقّق. لا أحد منا يمكنه أن يصبح شخصًا آخر. حبّ واستحالة مثلما قالت. أومأت، وسرنا نحو الشقة التي أقطن فيها. صعدت معي لتراها، هي التي لم تر أبدًا مكانًا أعيش فيه. وابتسمت وهي تقول إن المكان يشبهني، واعترضت

أني لست بهذه الفوضى، فقالت "على العكس". شربنا سويًا كأسًا من البورتو، وقلت كاذبًا إني أشربه منذ رحلتي إلى ليدن منذ عشر سنوات. ضحكت وقالت إنها أقلعت عنه منذ زمن. غادرنا المنزل وتجوّلنا في بروكلين طيلة النهار. لا نعرف كيف نترك بعضنا، ولا كيف نظل سويًا. ثمّ قالت ربّما، بعد سنوات أخرى، ربّما في نهاية طريقنا أو قبلها بقليل يمكننا أن نكون سويًا. ذكّرتني بأننا فكرنا ذات مرة أن نزور فينيسيا سويًا، ربّما يمكننا أن ننتقل للعيش هناك، هي وأنا، في يوم ما. واصطلحنا على أن تكون فينيسيا هي مكاننا المشترك، الحقيقي أو الخيالي، المدينة التي يمكن فيها للحبّ أن يقهر المستحيل مثلما تقول القصص، المكان الذي لا يكون فيه للواقع المعقّد وزن، وأنّ نقضي آخر أيامنا هناك. اتفقنا على فينيسيا، ثمّ سرت معها إلى محطة جسر بروكلين حتى تلحق بالقطار الأخير، وتعانقنا طويلاً، ثمّ افترقنا على أن نلتقي في اليوم التالي عند سنترال بارك.

أخذتني ماريك من يدي، ولفّت بي أمستردام حيًا حيًا. استأجرنا دراجتين لنتنقل بهما، واكتشفت عندها الفرق بين أن تعرف ركوب الدراجات، وبين أن تقود دراجة في مدينة بها الآلاف من قائدي الدراجات. لكنيّ صمدت ونجحت في إتمام الجولة دون إصابات. كان الجو باردًا أكثر من الأمس، و لم أرتدِ ملابس ملائمة. وهي تضحك من ارتجافي من البرد أحيانًا، وتبقيني في أماكن مغلقة حتى أتدفّأ أحيانًا أخرى. أخذنا مركبًا له سقف من الزجاج تجوّل بنا في القنوات التي تربط المدينة ببعضها. ومشينا كثيرًا، يتخلّل سيرنا توقّفات عديدة للطعام، أو الدفء

والقهوة. وفي كلّ ذلك، وساعة بعد ساعة، كانت الحقيقة تتجلّى أكثر لكلينا.

هذه توأم روحي، وما كنت أظنّ يومًا أن أقول كلمةً كهذه، وسأخجل لو سمعت نفسي أقولها، لكنّها الحقيقة. هذا شعوري، وشعورها، وكلّ شيء فينا يقول ذلك بلا مواربة. نصبح أكثر ارتياحًا مع بعضنا، كأننا عازفان يعرفان كيف يوائما نغماتهما سويًا دون تدريب. لم أُخطّط لهذا، لم أتوقّع هذا، كنت آمل في أن ينجح الأمر، لكن ليس بهذه الدرجة، وليس بهذه السرعة. أنا أحبّ ماريك. دفاعًا عن نفسي، يمكن إن أقول أن ذلك حدث على مدار العام، عبر الرسائل وكلّ هذا، لكني لست واثقًا من صلابة هذا الدفاع. لا أعرف، حقيقةً لا أعرف، لكن شيئًا غير مألوف حدث لي خلال هذه الأيام القليلة، كأنّ بابًا انفتح داخلي ودخلت هي منه وملأت المكان. أو كأنّها مدت يدها داخل روحي فاتصلت بها، وسارت روحها عبر أيدينا حتى سكنتني.

أنظر إليها وأعرف أنّي لست وحدي. سعيدة هي، مضطربة بعض الشيء لكنّها سعيدة. لا تكاد ابتسامتها العريضة تُفارق شفتيها. ولديها غمازتان طفيفتان لم أرهما من قبل، لا يكادان يختفيان من فرط الابتسام. احمر أنفها وشفتاها أكثر، وتضيق عيناها وتدمع أحيانًا. ثمّ تقلق، وتسرح بعيدًا، وأخمن فيم تفكّر، ثمّ تعود إليّ مرة أخرى. أعرف أنها مثلي. لم أكن واثقًا من شعور أحد مثلما أنا الآن، ليس تمنيًا أو خبرة، لكنّني أعرف. أنظر إليها وأعرف، لا أُحتاج أن تقول شيئًا.

نامت على كتفي في القطار، وفي محطة ليدن احتضنتها، وسرنا لبيتها

وأنا أطوّقها بذراعي، وفي صالة البيت تعانقنا بحق، وعلى الأريكة الكتانية قبلتها وقبلتني، وظللنا على الأريكة حتى بدأ الضوء يتسلل من النافذة الكبيرة فصعدنا لغرفتها، ولم نستيقظ إلا متأخرًا في اليوم التالي.

وجدتها مستيقظة عندما فتحت عيني، مُستلقية فيّ مكانها بالفراش لكنّها مستيقظة، وتنظر إليّ بعمق. ابتسمت، فابتسمت. خشيت أن تكون مرتبكة، أو نادمة، أو خاب ظنها. لكن ابتسامتها اتسعت، ومدت يدها ومسدت وجهي. قبلت يدها، واحتضنتها. تتخلّل أصابعي شعرها القصير وأعلى رقبتها، وهي تستكين برأسها على صدري. قلت:

– صباح طيب.

– قل يومًا طيبًا؛ الساعة العاشرة والنصف. لم أستيقظ متأخرة هكذا منذ سنين.

– اتضح أن الفراش جيد، فيما أرى، وأحسنًا التركيب أيضًا!

قلت متظارفًا، فلكزتني:

– هيا، يجب أن ننهض.

نهضت، رائعة الحسن، وذهبت نحو الحمّام. غفوت مرة أخرى، ثمّ شعرت بحركتها في الغرفة. نظرت إليّ في لوم:

– سأذهب لإعداد القهوة، وسيشرفني مشاركتك لي في احتسائها.

قفزت من الفراش بمجرد خروجها. اغتسلت وارتديت ملابسي، وهبطت الدرج الخشبي الذي صرت أحبّه، ولحقت بها عند المنضدة بجوار الحديقة. قررنا سريعًا أن نؤجّل زيارة الشاطئ، فالجو ملبّد، ويبدو أنها ستمطر، كما أن الوقت تأخر، والنهار قصير في كلّ الأحوال.

أفطرنا بشيء خفيف وخرجنا. ذهبنا لمحل يبيع تسجيلات موسيقية، حيث اشتريت بعض الشرائط التي كنت أبحث عنها منذ فترة، وأهدتني هي مجموعة لمغنية السوبرانو الهولندية الأولى، ومجموعة أخرى لموسيقى "باخ". ذهبنا بعد ذلك في جولة قصيرة في المدينة، تخلّلها توقّف للقهوة ونقاشات أخرى. تحدثنا عن عملها، وقالت إنها تريد أن تتركه وأنّ تعمل شيئًا له فائدة عامة أكبر، مثل العمل في مستشفى عام، أو على إصلاح نظام التأمين الصحي. ابتسمت ساخرًا:

– مستشفى عام؟ آه لو رأيتِ المستشفى التي أعمل بها في القاهرة! لو كانت مسلخًا لما اختلفت كثيرًا!

– لهذا الحد؟ لماذا؟

– لماذا؟ لأننا بلا أسرة كثيرة، وبلا أدوية في أحوال أكثر، وبلا أطباء مُؤهَلين دائمًا، ولدينا سيل لاينقطع من المرضى لا يمكن لنا بأي حال أن نرعاهم رعاية لائقة، فيفعل كلّ منا ما يشاء. هناك المخلص الذي يحاول دائمًا فعل الخير، لكنّه مضطر بحُكم الظروف لأنّ يختار قلة من المرضى، ليتلقّوا رعاية حقيقية في حين يتخلّى عن البقية، وهناك من يحاول أن يكون عادلاً، فيوزع الرعاية المحدودة المتاحة على الجميع بالتساوي، حتى لو أدى ذلك إلى تفاقم مرضهم جميعًا، وهناك من لا يأبه ويحاول بذل أقل جهد ممكن إزاء هذا السّيل العارم من المرضى، حتى لو ماتوا جميعًا، وهناك طلبة الامتياز الذين يجدون في هؤلاء المرضى فرصة لا تُعوض؛ لتجربة خبرتهم المحدودة فيهم، خاصة وأنّ نقص عدد الأطباء المؤهَلين يجعلهم أقلّ وقوعًا تحت الرقابة والإشراف، وبالتالي أكثر

استقلالاً. يتعلّمون فيهم بحق، بطريق التجربة والخطأ!

– هذا شيء مريع!!

– نعم.

– وكيف تعيش مع هذا الوضع؟ كم مضى عليك هناك؟

– سبع سنوات.

قلتها وصمت. اغرورقت عيناها بالدموع واحتضنتني. قلت لها ألاّ تأبه، وإنني تعودت وليس في الأمر شيئًا يستحق الدراما، لكنّها ظلت تحتضنني، وتقول إن هذا شيء مريع، وتسأل كيف احتملت كلّ هذه السنوات؟ ثمّ لا أعرف ما الذي جرى بالضبط بعد ذلك، لكنّني شعرت شيئًا فشيئًا باختناقٍ في حلقي، وبدأت أبكي في صمت، ثمّ انقلب البكاء لنشيج مسموع، وهي تحتضنني أكثر. كنا جالسين على سورٍ حجري قديم بجوار جسر صغير على قناة رفيعة، وأنا مختبيء في حضنها، وجسمي ينتفض من حين لآخر. لا أذكر كم من الوقت مرّ علينا حتى هدأت. ظللتُ صامتًا برهة، ثمّ قلت إنها قد تضطرّ للعودة للمنزل لتغيير سترتها المبلّلة، وضحكت، وضحكت وقبّلتني، ثمّ تحركنا نحو البيت.

سألتني لِمَ أحبس عواطفي داخلي لهذا الحد؟ وكيف لا أريد أن أكره عملي مع كلّ ما أراه فيه؟ حاولت أن أشرح لها.

– ليس هناك من حل آخر، لو تركت الأمر لعواطفي لما عشت طويلاً في مصر. كلّ شيء يجرّي بنفس الطريقة تقريبًا، بأشكال مختلفة ولكنّ بنفس المنطق. في المستشفى هناك أناس يموتون: ربّما ترين نتيجة الإهمال مباشرة أمام عينيك، لكن ماذا عن أشكال الاهمال الأخرى التي تقتل

الآلاف ولا ترينها بعينيك؟ ماذا تفعلين بهذا إن فهمتيه وأدركتيه؟

هزّت رأسها في أسىً، وقالت:

– لا أعرف. لا أستطيع أن أعرف. أقرأ عن هذه الأمور. أسمعك، وأسمع الآخرين يتحدثون، لكنّها تبدو لي أكبر من قدرة البشر العاديين على الاحتمال. أنت لا تعرف لأيّ مدى أحترم هؤلاء الذين يعيشون في هذه الظروف. لا أرثى لهم، بل أحترمهم وأراهم أقوياء وفوق البشر بشكلٍ من الأشكال. أتعرف أوّل ماجذبني إليك؟ هذا المزيج من إدراكك للمأساة الإنسانية والتفاؤل في نفس الوقت. حتّى طريقتك في الفكاهة، تجمع بين إحساسٍ حاد ومرهف بعمق المأساة الإنسانية، وفي نفس الوقت التفاؤل والرغبة في الحياة. لا أدري كيف تفعل هذا، ولا أظنّني قادرة على فعله.

– الأمر بسيط، ولا عظمة فيه على الإطلاق. أنت تكبرين وتجدين نفسك تحت عجلاتٍ منظومة شديدة القسوة تهرس من ممرّ فوقه، وحين تهرسك أول مرة تصرخين من الألم، لكن عليك القيام والمشي، حتى لو على قدم واحدة. هل تشاهدين أفلام الحرب أحيانًا؟ أترين كيف يستطيع الإنسانُ التأقلم مع أسوأ الظروف؟ هذه هي الفكرة العامة، وكلّنا هذا الرجل وهذه المرأة: مهما ساءت الظروف، فإنك تحاولين أن تكملي اليوم الذي بدأ. ماذا يمكنك أن تفعلين غير ذلك؟

– لا أدري، الأمر كلّه أكبر من قدرتي على التخيّل. لقد عشت حياتي كلّها هنا، بين ليدن ولاهاي وأمستردام، ولما سافرت ذهبت لباريس وألمانيا، ثمّ إلى نيويورك والتي اعتبرتها مغامرةً مثيرة. وأنا

محظوظة، كلّ ما أعرفه عن المآسي الجماعية أعرفه من آخرين، منك، من مهاجرين ألقاهم هنا، من كتب، من التليفزيون. ومن ثمّ لا أستطيع أن أدّعي القدرة على إصدار أيّ حكم. من أنا غير فتاة مرفّهة؟

– أنت امرأة في غاية الذكاء، والرقة، والصفاء، ولديك قدرة مذهلة على التغلغل لروح الآخرين، وعلى فهم تفكيرهم، وما يعتمل في نفوسهم خلف هذا التفكير. لم أر أبدًا أحدًا هكذا!

قلت، مخلصًا. ابتسمت وقالت في هدوء، ولكنّ بجدية تامة:

– يمكنني أن أستخدم نفس هذه الكلمات في وصفك. أنا لا أكاد أُصدّق مايحدث لي. لا أُصدّق أني وجدت هذه الدرجة من الاتصال مع شخصٍ آخر، ومع شخصٍ آتٍ من عالمٍ آخر تمامًا، ولكنّه مع ذلك كأنه أنا أخرى.

صمتت وترقرق دمع في عينيها فاحتضنتها. ضحكت مرتبكة:

– ماذا؟ هل هذا دوري كي أبلّل معطفك؟

ضحكنا وسِرنا متشابكي الأذرع بجوار القناة باتجاه المطعم الذي سنلتقي فيه بأخيها. كنت متهيبًا هذا اللقاء. دخلنا المطعم، وتوجّهت لتوّها لشابٍ وقبلته. هو أكثر شقرة منها؛ مهذّب ولكنّه بعيد. عيناه لا تفصحان عن نظرته: كأنّه يراك من خلف زجاج. تبادلنا أحاديث عامة، عن هولندا ومصر وغير ذلك من توافه الحديث عندما لا يكون للناس ما يتحدثون فيه. فذكر شيئًا عن دراسته، وسألني عن عملي. تساءلت ماريك عن صديقته فأجابها بأنّها رحلت، وأنّ الأمور غامضة بينهما. صمتنا جميعًا لفترة، ثمّ سألني عن رأيي في الأحداث التي تجري في الشرق الأوسط. ابتسمت

ورددت بين قطعتين من الخبز أنِّي لا أعرف عمّا يتحدث بالضبط، فلم أسمع الأخبار منذ عدة أيام. احمرّ وجه ماريك ونظرت لي معاتبة. قال إن هناك أحداث عنف في الضفة الغربية، وهناك قتلى يسقطون يوميًا منذ ثلاثة أيام. كنا في أول أكتوبر، ولم أكن فعلاً قد شاهدت أو سمعت خبرًا واحدًا منذ وصلت. صَمتُّ. سألني عن رأيي في كيفية تسوية هذا الصراع، وبدأت أشعر بالضيق من سير المحادثة. حاولت الاختصار؛ لكنّه كان يشعر بالرغبة في المتابعة فيما يبدو، فشرح لي وجهة نظره بأنّ العرب ارتكبوا خطئًا حين عارضوا هجرة اليهود لفلسطين في القرن الماضي، وأنّهم لو فعلوا مثل الهولنديين الذين رحّبوا بكلّ المضطهدين، وأفسحوا لهم مكانًا لما نشب هذا الصراع أصلاً. قلت شيئًا عن الفارق بين الهوجونوت الباحثين عن ملجأ من الاضطهاد، وبين الحركة الصهيونية التي كانت تبحث عن مكان تُخليه من سكانه وتستوطنه هي، واختلفنا طبعًا حول سير التاريخ، فقال إنه يتفهّم حدة شعوري كوني فلسطينيًا، فقاطعته ماريك، متضايقة بعض الشيء، ومذكّرة إياه بأنّي مصري. صمت لحظة، ثمّ واصل، وشعوري بالاختناق يزداد. ابتسمت، ومازحته حول دقّة معلوماتنا التاريخية نحن الاثنين، ثمّ اقترحت أن نذهب لبيت ماريك، ونشاهد الأخبار ونحاول معرفة هوية القاتل اليوم. اعتذر بارتباط سابق. قمنا، وتصافحنا وذهب في حين عدنا نحن للمنزل رقم 7.

جلست أمام التلفاز، ودخلت ماريك تُعدّ لنا كأسين من البورتو. بدأت النشرة وفهمت عندها ما كان يجري منذ 28 سبتمبر في الأراضي الفلسطينية، وفجأة رأيت على الشاشة رجلاً وبجانبه طفل، في الحادية أو

الثانية عشرة، يجلسان على أرض شارع بجوار كتلة أسمنتية لا تحميهما تمامًا، وصوت إطلاق رصاص لا ينقطع، والرجل يحتمي بالكتلة، ويدفع بالولد خلف جسمه؛ ليحميه من الرصاص في نفس الوقت الذي يحاول فيه أن يُشير بيديه لمطلقي الرصاص أن معه طفلاً. استمر المشهد ثواني، ويبدو أن صوتي كان يعلو لأنّ ماريك أتت مسرعة وأنا أصرخ "ياإلهي" في اللحظة التي تكوم فيها الولد قتيلاً بين يديّ الرجل الذي سقط فوقه من الإعياء. حلّ عليّ صمت مطبق، وجلست بجواري واحتضنتني. لكني لم أبك. ظللت أُحدّق في التليفزيون في صمت. مدت يدها، وأغلقت التليفزيون. ظللت جالسًا بلا حراك. وظللنا صامتين طيلة المساء.

التقينا في اليوم التالي كما اتفقنا، وسرنا قليلاً في المنتزه، ثمّ أخذتها لمحل برجدورف وجودمان.

– أريد أن أشتري لك شيئًا.

– ما المناسبة؟

– لأني لم أشتر لك شيئًا أبدًا، وأريد أن أفعل ذلك.

– من برجدورف وجودمان! هل تدفع لك المستشفى أموالاً وفيرة لهذه الدرجة؟

– لا يهم، سأشتري لك شيئًا صغيرًا.

وذهبنا، واشتريت لها طاقية من الصوف بستمائة دولار، وضحكنا، ثمّ ذهبنا لمطعم جديد في حي كان في الأصل مقرًا لتجارة الجملة في اللحوم، وتحوّل مؤخّرًا لمنطقة مطاعم وتناولنا عشاءً فاخرًا. ثمّ سرنا طويلاً حتى

وصلنا لمركز روكفللر، وشاهدنا معرضًا فنيًا غرائبيًا في ساحة المركز. سرنا طيلة اليوم وأذرعنا متشابكة، أو أيدينا، أو يد أحدنا ممسكة بالآخر، أو ذراعي ملتفة حول كتفها، أو رأسها على كتفي، أو ذراعها حول خصري. طيلة اليوم لم ينقطع تلامسنا، كأنّنا نعوض ما فاتنا، وما سوف يأتي. لماذا نفعل هذا بأنفسنا ياماريك؟

استيقظت مبكرًا في اليوم التالي، ولم أجدها في الفراش. اغتسلت وهبطت بملابس نومي الرمادية فوجدتها في المطبخ. ألقت عليّ بتحية الصباح، وقالت إن القهوة جاهزة، وإنها استيقظت مبكرًا فذهبت واشترت لي الجرائد الإنجليزية. ابتسمت وشكرتها. قبّلتها في ظهر عنقها أسفل شعرها، وجلست أحتسي القهوة وأقرأ الجرائد. كانت صور محمد الدرة، الفتى الذي شاهدت قتله على الشاشة بالأمس، تملأ واجهات الصّحف، وقالت لي ماريك إن هذه صحفًا محافظة لا تسعى خلف الإثارة، ولا تنشر صورًا حادة كهذه في العادة. تحدّثنا قليلاً عن الموضوع، ثمّ خرجنا لنذهب لشاطيء سخيفينينجن القريب. كان الجو مُشمسًا بعض الشيء، وسرنا في هدوء. تحدّثنا عن الأمس، وعمّا يحدث في الأراضي المحتلة، وأمسكت بذراعي، وهي تشرح لي كم تشعر بالأسى عندما ترى هذه الأشياء، وكم ينفطر قلبها على قسوة البشر وغبائهم الذي يدفعهم للقتل. في الحافلة استقرّت في حضني، وعدنا نرقب الطريق. سألتني كيف أشعر وكيف أتعامل مع هذا الأمر؟ هززت كتفي وقلت إنّي لا أتعامل مع هذا الأمر، مثله في ذلك مثل المستشفى التي أعمل فيها، مثل الهواء الملوّث الذي أستنشقه.

– كثيرًا ما سألت نفسي لم لا أهاجر؟ لكنّي أكتفي بالسؤال. لا إجابة لديّ، لكنّي أعلم أنّي لن أفعلها أبدًا.

– أعلم.

– كيف تعلمين؟!

– لأنه هذا هو أنت. ولو هاجرت لن تكون نفس الشخص.

– غريبة! عادة لا أنجح في شرح هذه النقطة لأحد.

– الأمر لا يحتاج للشرح، يحتاج للشعور. من يعرفك حقًا، من يلمس روحك، سيعرف أنها لا يمكن أن تعيش خارج وطنها.

– بالمناسبة، ما حكاية الروح هذه؟ لقد وصلنا سخيفيننجن، يمكنك أن تعترفي الآن!

– لا تسخر منّي، ولا يوجد اعتراف في كنيستي.

كنا قد وصلنا بالفعل للشاطيء. أمواج المحيط هادئة، تتداعى على شاطيء رملي طويل دون صخب، وتلال صغيرة من الرّمل الأبيض يعلوها بعض العُشب، ولا شيء آخر. الجو ملبدّ بالغيوم ويُنذر بالمطر، وهناك بعض الريح. سرنا على الشاطيء وقد تلفّعنا بكلّ ما معنا من ملابس. تلفّ كوفية من الصوف الأحمر حول رقبتها، وتثبّت نظارتها الرفيعة على وجهها الذي اكتسى بجدية مطلقة. حكت لي عن إيمانها. ليس المسيح بالنسبة لها شخصًا عاش بالفعل من ألفي عام:

– ربما يكون هذا هو الأمر وربّما لا، لا فارق عندي. فهو فكرة، فكرة عن التسامح وعن التضحية، وعن رفض الإنسان إيذاء أخيه، فكرة عن الحبّ بين البشر. أما الله فهو في قلبي، هو النّور الذي يضيء لي الطريق.

لا يهّم الأدلة والبراهين، ليس الأمر مُتعلقًا بإثبات وجود أو غياب، وإنّما يتعلق بأنْ تغوص في أعماقك، فتجد شيئًا نقيًا يدلّك على الطريق الصواب وعلى الحق. هذا الضوء داخلك وداخلي وداخل كلّ إنسان، وهذا هو الأمر.

– والكنيسة؟ والطقوس؟

– الكنيسة هي رابطة تجمع الناس سويًا، تجمعني وأهل ليدن ممّن يشاركونني هذا الاعتقاد. لسنا كنيسة تقليدية، ولا تنسَ أننا بروتسانت في نهاية الأمر. إيماننا رابطة مباشرة بين كلّ فرد منا وبين الله، لا نحتاج لوسطاء. لكنّنا نحتاج لكنيسة تجمعنا على فعل الخير، وعلى التضامن. تعرف، كثير من اجتماعاتنا تدور حول أمورٍ دنيوية: مثل إصلاح المتنزه الذي حدّثتك عنه، أو مساعدة بعض المحتاجين، من الفقراء أو المهاجرين، عن تحسين المدينة وأمورها، أو حتّى عن مصاعب رُوحية نقابلها. هي شبكة للتضامن.

– لا أدري لم، لكن كلّما شرحتي الأمر كلّما زاد نفوري منه. ألا ترين أن الموضوع برمّته مزيف؟ ما هذه الكنيسة إن لم تكن قائمة على اعتقاد ديني: شبكة للعلاج الجماعي؟ مجلس مدينة؟ ولم تناقش هذه الأمور في مؤسّسة دينية؟ أليست هناك جمعيات خيرية، ومجلس مدينة حقيقي وأحزاب؟ الأمر يبدو كأنه طائفة سرية!

– لا طائفة ولا سرية، هذه كنيسة ومفتوحة للجميع. ونعم هناك كلّ هذه المؤسّسات، لكننا رابطة روحية، وبيننا رباط روحي وديني، وهو ما يمكّننا من العمل في هذه المؤسّسات التي تتحدّث عنها.

– ما زلت لا أستطيع أن أفهم هذه الحالة الروحية الدينية. هل أنت مؤمنة فعلًا: يعني بإله خلق العالم في ستة أيام، وبالجنة والنار والخلاص، وهكذا أمور؟

– كثير منا غير مؤمن بهذه الأمور، لكن الرابطة الروحية التي تجمعنا شيء أقوى من مجرد الإيمان بالشكل الذي تقدّمه المسيحية القديمة!

كان المطر قد بدأ في الهطول، فقلت ضاحكًا إن الله يعاقبنا على هذه الهرطقة، لكن مزاحي لم يرقّ لها. اختبأنا في مطعم صغير شبه مهجور، واستمرّت في محاولة شرح أبعاد إيمانها وارتباطها الكَنَسي، لكن الأمر ظلّ مُستغلقًا على فهمي. أعلنت استسلامي، لكنّها رفضت وقالت إن هذا الأمر هام لها، ويعنيها أن أفهمه بوضوح. أخذنا راحة من النقاش قضيناها في تناول ما قدّمه لنا المطعم المهجور، ثمّ استأنفت مُحاولة الشرح خلال طريق العودة، لكني ظللت لا أفهم كيف يمكن أن تكون هذه الطبيبة الهولندية المتفتّحة بهذا التدين، وظللت هي لا تفهم كيف يمكن أن أغلق عيني عن "روحي" لهذه الدرجة.

اليوم لدى كلّ منا عمل طيلة النّهار، لكننا التقينا وقت الغداء، لساعة واحدة. لم نتناول طعامًا، وإنما أخذتني من يدي، وسارت بنا نحو الجادةّ الثالثة. ذكّرتني بحاجتي لحقيبة لأوراقي – كنّا قد تناقشنا في الأوراق، والحقائب عرضًا في رسائل منذ عام – وقررت أن تأخذني لمكان تعرفه نشتري منه واحدة. حدّثتني عن أنواع الحقائب الجلدية، ورشّحت لي نوعًا قالت إنه شهير، وبالفعل اخترت اثنتين من هذا النوع، وتركت

لها الاختيار النهائي، ففعلت، واشترت لي حقيبةً بنية اللون. سألتني إن كنت قد اشتريت شيئًا لسلمى فهززت رأسي مُؤكدًا أن لديها مايكفي من الحقائب. ضحكت وقالت إني فعلاً أحمق، وألاّ وجود لشيء اسمه مايكفي من الحقائب لبنت. اختارت حقيبة صغيرة كان من المستحيل أن أختارها واشتريتها، وخرجنا نسير مرةً أخرى في الشوارع. الساعة الثانية ويجب أن يعود كلٌ منا لعمله، ولا نريد الافتراق. ثمّ استجمعنا شجاعتنا، وتضاحكنا حول سلوكنا الصّبياني، وتوجّهنا لمحطة المترو.

عدنا لمنزلها حيث جمعت أغراضي بسرعة، ورحلنا باتجاه محطة القطار في بداية رحلة العودة. في شارع المحطّة توقّفنا لنتناول بعض الطعام، واقترحت أنا أن نجرّب المطعم الإسرائيلي. كنت أريد أن أعرف ما هو هذا الطعام الإسرائيلي الذي يبدو لي وأنّه مجرد شاورما وفلافل مصرية. دخلنا المطعم، وتولّت هي الحديث حتى لا تُفشي لكنتي جنسيتي المعادية. لكن لكنة النادل بدت لي مصرية مائة بالمائة. قلت لها ذلك فضحكت، وسألتني كيف يمكن أن أعرف أنه مصري من لكنته في الحديث بالهولندية. أقسمت لها إنه مصري، وعندما عاد ليحضر الطعام سألته بالعامية المصرية دون مقدمات:

– هو انتو بتعملوا الطعميه بالفول ولاّ بالحمص؟
– لا ياباشا بالحمص، أصل مفيش فول كفاية هنا.
– هو المطعم ده بتاع مين؟
– بتاعي أنا ومجموعه أصحابي.

– أمال إيه حكاية الأكل الإسرائيلي ده؟
– أصله كان بتاع واحد إسرائيلي زمان، وإحنا اشتريناه منه، ولقينا أن الجماعه الهولنديين عاجبهم حكاية الأكل الإسرائيلي دي فخليناها، إنما إحنا كلنا مصريين.
– طيب وحياتك هاتلي طحينة.

غرقت في الضحك عندما ترجمت لها فحوى الحديث. تناولنا طعامنا الإسرائيلي وتوجّهنا للمحطة، وجلسنا ننتظر القطار. كانت المناقشات قد استغرقتنا وأنستنا موعد رحيلي، ونسينا أن نتحدّث عن الأمور الهامة: متى سنلتقي؟ هل سنلتقي؟ ما معنى ما حدث هنا بيننا؟ كنا نتصرف كزوجين يعرفان أنّهما سيظلا معًا، ولكننا هنا في محطة، وسيأتي قطار وأركبه، وأمضي في حين تظل هي هنا. لم نتفق على شيء، لم نحسم شيئًا، ولكننا نتصرف وكأنّنا اتفقنا على كلّ شيء، وحسمنا كلّ شيء. أحبّها، وتحبني، ونشعر بالخجل من الإقرار بأنّنا وقعنا في الحب بهذه السرعة. ماذا سنفعل؟ هل ستنتقل هي لتعيش معي في القاهرة: هي التي لم تر العالم الثالث إلا في نشرات الأخبار، أم أغترب أنا، وهي تعلم أني لا أستطيع حتى إن شئت؟! كيف قضينا الوقت في مناقشة كلّ شيء إلا هذا. الوقت يمر، و لم يتبقَّ على قطاري سوى ساعة أو بعض ساعة. جلسنا في مقهى واسع في شارع المحطّة، مقاعده خشبية كمقاهي وسط القاهرة، وطلبنا شوكولاته ساخنة. قلت لها إنّي أريد رؤيتها قريبًا فأمّنت على كلامي. قررت أن أكون هولنديًا ولو لساعة، وسألتها إن كانت تريد أن تأتي وتقيم معي بالقاهرة. احمرّ وجهها، وقالت إنها تريد أن تجرب الإقامة معي،

لكنّها ليست متأكدة من أن هذه فكرة طيبة، الوقت، والظروف، وغير ذلك. اقترحت أن تجرب، أن نجرب، لماذا لا تأت في عيد الميلاد القادم وتقضي عدة شهور معي؟ تحدثنا قليلاً واتفقنا على ذلك. ضحكت من قلبي لأول مرة هذا اليوم، وتعانقنا عناقًا طويلاً على رصيف القطار، وافترقنا على أن تأتي لتقيم معي في عيد الميلاد.

سألتني ماذا سأفعل هذا المساء بعد رحيلها؟ قلت إن اليوم عيد ميلاد سلمى، وستعود من واشنطن بعد الظهر، ونحتفل كلنا بها. أصرت أمها، المصمّمة على إدارة حياة سلمى عن بعد، أن يكون عيد الميلاد لدى الجد درويش، وليس في بيتي أو في مطعم، أو مكانٍ عام، وأنّ يكون الجدّ هو صاحب الدعوة، وأنّ ندعو خالتها المحجبة أميرة وزوجها داوود الغريب الأطوار. بيد أن كثرة التعليمات ضايقت الجد درويش، وهو الذي تعوّد إصدار التعليمات، فقرّر دعوة كلّ من له علاقة بسلمى من قريبٍ أو بعيد. وهكذا أفسدوا حميمية عيد ميلاد ابنتي الواحد والعشرين. ربّما هذا ما أرادته ليلى؛ مادامت هي غائبة فلا يجب أن يكون هناك عيد ميلاد حقيقي. لا جديد في هذا.

نظرت لي طويلاً، وسألتني بحدّة: "ولم تقبل أنت بهذا؟" تناقشنا مطولاً، مثلما فعلنا ذات يوم في ليدن، وقلت أشياء كثيرة وقالت أشياء، لكنّها كانت حادة بعض الشيء، وقالت شيئًا في وسط حديثها عن الفارق بين احترام مطالبَ الآخرين، وبين السلبية. ظلّت الكلمة ترن في رأسي: "سلبية؟ أنا؟". سألتني إن كنت سأقابل سلمى في المحطة، فقلت إنّي لست

متأكدًا بعد. هزت رأسها مستنكرة، وقالت في ود: "أرأيت؟ هذه سلبية". لم لا تقابلها في المحطة ومعك ورد أو هدية صغيرة، وتأخذها في تاكسي للبيت، أو تتمشّيا سويًا؟ سيعطيك هذا وقتًا للحديث معها قبل انقضاض الباقين". أردت أن أحتجّ على وصفي بالسلبية، لكن ليس هذا وقت النقاش، فماريك ستسافر هذا المساء. قلت إنّي ربّما أذهب فعلاً لمقابلتها في المحطة بعد أن تسافر ماريك. سألتها إن كان يجب عليّ توصيلها هي أيضًا للمطار، فضحكت و لم ترد.

أخذت اليوم أجازة، وفعلت ماريك نفس الشيء، والتقينا مرة أخيرة عند محطة جسر بروكلين. سرنا وتحدثنا عن كلّ شيء ثمّ وصلنا لنفس النقطة التي نصل إليها دائمًا. قالت:

– لا أستطيع الحياة في مصر، بل ولا أستطيع الحياة خارج هولندا، وربما خارج ليدن. هكذا أنا، اكتشفت أنّي هكذا، مرتبطة بهذه الأرض وبهؤلاء الناس الذين هم أهلي وجماعتي، وبالكنيسة التي تسخر منها، ولا أستطيع. ربّما نيويورك.

ضحكت، وذكّرتها أن نيويورك في الأصل اسمها أمستردام الجديدة، وأنّ أسلافها هم الذين بنوها، وبالتالي فهي لا تشكّل استثناءًا حقيقيًا مما قالته. سألتني بجدية إن كنت أستطيع أن أعيش في نيويورك للأبد. سألتها كيف يمكن للحبّ أن يكون مُحددًا جغرافيًا؟ غضبت وقالت: "ليس الحب المحدد، بل إمكانية الحياة سويًا". هززت كتفي نافيًا: "ومصر؟" قالت "أعرف"، وصمتنا. لكن لماذا لا نحاول؟ حتى ولو كنّا نحاول كي نفشل، ونشفى من هذا الحبّ الذي لا يتركنا. لكن فشلنا لن يشفينا بالضرورة،

وهل نريد فعلاً أن نشفى. تناقشنا من جديد حول أمرنا، وكلّ شيء قلناه من قبل، ولم نصل لنتيجة لم نصل إليها من قبل. الوقت يمضي، وموعد الرحيل يقترب. قالت: "ربّما في آخر العمر نلتقي، وربما في عمرٍ آخر، زمن آخر". نظرت لها و لم أجب. هل هذه هي السلبية التي تتحدث عنها: أن أقبل بموقفها هذا؟ هل هناك طريق آخر "غير سلبي" يمكنني من إبقائها معي؟ أخْرجتْ من حقيبتها الطاقية الصوف التي اشتريتها لها وارتَدَتْها، والكاميرا وجهّزتها. حملتُ الحقيبة التي اشترتها لي على كتفي كي تظهر في الصورة، ألصقنا رأسينا ببعضهما، والتقطت صورة أخيرة لنا معًا.

6

مدرسة كوينسي آدامز الابتدائية

واشنطن. الجو حار. خلع عدنان معطفه ووقف بالقميص. بلا فائدة؛ رطوبة الجو تكبس على الأنفاس. ليس هذا بأنسب الأوقات للبحث عن الذّكريات، لكنّه لا يملك غير هذا الوقت، فلن يظلّ بواشنطن سوى ساعات قليلة. وصل مساء الأمس، وقضى الصباح في تسوية بعض الأمور القانونية، ثمّ ذهب للبحث عن بيتهم القديم، وبعدها جاء لهنا. أخذ المترو حتى ميدان ديبون ثمّ سار على قدميه إلى هنا، تمامًا مثلما كانت أمه تفعل حين تصحبه للمدرسة. لم يعد لواشنطن منذ أنهى المدرسة، وكلّ ما يَذْكره عنها، وعن الطريق والبيت مُتداخلاً ومُشَوشًا. كان قد طوى هذه الصفحة منذ زمن، وظنّ أنه نسيها، منذ ذهب للجامعة في ديترويت واستقرّ بها.

كم من الوقت مر؟ عشرين سنة، تغيرت فيها حياته كلّها، لكنّه حين سنحت له الفرصة عاد ليلقي نظرة على بيته القديم، ومدرسته الابتدائية.

واشنطن، وعدنان يتصبّب عرقًا. يسير على قدميه بحثًا عن مدرسة كوينسي آدامز الابتدائية. كانت هنا في مكان ما. بحث على الانترنت هذا الصباح في الفندق، وتأكّد من العنوان: 2020 شارع 19 بحي آدامز مورجان. ذكر موقع الانترنت بأنّ الحي لم يُسمَّ على اسم شخص واحد مثلما يظنّ الكثيرون، وإنّما على اسم مدرستيه الابتدائيتين: كوينسي آدامز المخصّصة للبيض، وتوماس مورجان المخصّصة للأطفال الملونين. لم يكن عدنان يعرف ذلك. فكر أنه من مفارقات القدر أن يذهب هو لمدرسة آدامز، هو الذي ينتمي كلية لجانب مورجان. لابدّ وأنّ أباه أعطى المدرسة عنوانًا وهميًا في المنطقة، وإلا فما الذي جعله يرتاد هذه المدرسة رغم أنهم يقطنون فرجينيا! هذا هو شارع 19، يصعد الشارع قليلاً كلّما اقترب من المدرسة، يذكر هذا، وهذا هو مبنى المدرسة يلوح من بعيد. لا بد وأنّه هذا. التفت حوله ونظر نحو آخر الشارع، ليس هناك مبنىً آخر يمكن أن يكون مدرسة. نعم، لا بد وأنّها هذه إذًا. لكنّها تبدو أكبر مما يتذكّرها. استغرب، عادة تبدو الأشياء أصغر.

اقترب من باب المدرسة وصعد ببطء درجات السلّم الرخامي العريض. حتى الأبواب تبدو أكبر. دخل من الباب ونظر. لا يُوجد بالمدرسة سوى بعض الموظّفين. ابتسمت له سيدة بدينة، وأومأت برأسها وهو يمر أمامها. لا بد وأنّها اعتادت هذا المشهد. أناس يأتون في الأجازات، ليلقوا نظرة على حياتهم التي كانت. لا يتعرّفون على أحد، ولا يتعرّف عليهم أحد.

خرج من الباب، وسار في الممر الطويل المحاذي للفصول من الخارج حتى وصل إلى السلم الآخر، ذلك الدرج الصغير والضيق، حيث كان التلامذة الفتوات ينصبون الكمائن للمساكين من أمثاله. هنا كان يتمّ التنكيل به، ربّما مرة كلّ أسبوع. هنا كان يتم تجريده من أيّ مال يتصادف وجوده معه، وهو أمر نادر. لكن كان دائمًا معه طعام، وهو ما كان الفتوات يأخذونه، وينظرون إليه في قرف، ويسألونه ساخرين عن اسم "المسحوق" الذي أعدّته له أمه. أول مرة أجابهم: "فول"، قالها بالعربية لأنّه لم يعرف المرادف بالإنجليزية، ولم يصدّق الأولاد أنفسهم. ضجّوا بالضحك، تذوق أحدهم بعضًا منه ثمّ بصقه، وتبادلوا شم نصف الرغيف الملفوف بعناية في ورق سلوفان شفاف وهم يضحكون، ثمّ فتتوه أمام عينيه وهو واقف بلا حول ولا قوة. من يومها أصبح اسمه في المدرسة "فول"، ولكنّ بالمعنى الإنجليزي طبعًا.

دار دورة أخرى في ممرات المدرسة ثمّ خرج. وقف أمام الباب لحظات. هل انتهت الزيارة هكذا؟ جاء إلى هنا بعد صراع طويل مع نفسه، وتساؤلات عمّا إذا كان من الأفضل أن يدع الماضي في حاله وينساه. سأل وتساءل، بل وبحث في كتب علم النفس، وبعد تردّد وتفكير طويل قرر أن يأتي. جاء ليُحاول استعادة نفسه التي كانت، يُحاول استعادة شعوره وهو طفل في الثامنة، أو العاشرة، أو الثانية عشرة. لكنّه لا يشعر بشيء: لا عواطف جيّاشة تعتريه، ولا دموع تغالبه. جُلّ تركيزه مُنصبٌّ على محاولة التذكر: هل كان هذا هو نفس الممر الذي يحتفظ به في ذاكرته؟ هل كان هذا فعلاً هو الدرج الذي يهينه عنده فتوات المدرسة ويخشى عبوره

كلّ يوم؟ أم أنه أخطأ في المكان؟ لا، لا مجال للخطأ: هذه هي مدرسة "كوينسي آدامز"، هكذا تقول اللافتة، لكنّه لا يشعر بشيء سوى تلك الرطوبة الخانقة.

سنوات وهو يأتي هنا كلّ صباح. يأتي به أبوه في سيارته الشيفرولية من طراز إمبالا إنتاج عام 1974 بشكلّها المضحك. من أين أتى أبوه بهذه السيارة العتيقة الفارهة؟ من يوم ما وعي على الدنيا وهو يرى أباه يقودها؛ كان واضح الفخر بطولها الذي قال إنه ستة أمتار. ذات يوم خرج عدنان ليقيس طولها، فوجده يقل عن ستة أمتار بأربعين سنتيمترًا، فعاد للمنزل بسرعة وأخبر أباه متحديًا باكتشافه. كان الأب يأكل شيئًا، حساءً على ما يذكر. احمّر وجه الأب فجأة، وألقى بالملعقة في وجه عدنان مباشرة. يذكر جيدًا قطرات الحساء وهي تتطاير في الهواء، والملعقة تشقّ طريقها لوجهه. أخطأته وأصابت شاشة التليفزيون بدلاً منه، مما أثار الأب أكثر فقام ليمسك به، لكن الأم عطّلته ثوان ثمينة سمحت له بالفرار قبل أن يفتك به الأب الغاضب. لا يذكر كيف انتهت الحادثة؛ لا بد وأنّه اعتذر لأبيه، لا بد وأنّ الأم طلبت منه ذلك، ففعل اتقاءً للشر. مرّت الحادثة بسلام، لكنّه من يومها تعلّم ألاّ يُبدي ملاحظات سلبية بشأن الإمبالا.

ترتبط المدرسة في ذهنه بالإمبالا أكثر من أيّ شيء آخر، ربّما باستثناء المتنزه الصغير المجاور للمدرسة. تلفت بحثًا عن المتنزه فلم يجده. سيذهب للبحث عنه بعد قليل. كان لدى الأب سيارات كثيرة، ربّما ستة أو سبعة، تُشكّل أسطوله من السيارات التي يُؤجّرها المكتب الذي افتتحه، وعدنان في الصفّ الرابع. يذكر ذلك اليوم، حيث أوصلته أمّه للمدرسة بدلاً من أبيه

على غير العادة؛ لأنّ الأب كان قد ذهب لينهي بعض الإجراءات المتعلّقة بافتتاح المكتب. كان حدثًا جللاً للعائلة الصغيرة، به انتقل الأب من كونه سائقًا أجيرًا لصاحب عمل. في البداية لم يتغيّر شيء في حياة عدنان، سوى أن أمّه أصبحت تأخذه للمدرسة أكثر، ربّما مرّة كلّ أسبوع وأحيانًا مرتين، وكان يحبّ ذلك. إذ كانت الأم تأخذه في المترو حتى محطة ميدان ديبون؛ تُبهره عربات المترو، والأضواء التي تضيء وتنطفيء وحدها على الرصيف حين يقترب القطار من المحطة، ويفتنه جريان القطار بهذه السرعة الكبيرة تحت الأرض ودون عوائق. يذكر دهشته الشديدة عند خروجه من محطة ديبون أول مرة: ظلّ السلم الكهربائي يصعد بهما لفترة طويلة، وهو لا يصدّق أنه وكلّ هؤلاء الناس كانوا على هذا العمق. كان يحب كلّ شيء في رحلة الذهاب للمدرسة مع أمه: إمساكها بيده طول الوقت، التصاقه بها، المعجنات التي تطعمه إياها، صبرها عليه عندما يقف فجأة للفرجة على شيء لفت نظره، بل ومشاركتها هذا الاهتمام وانخراطها معه.

لم تكن قلقة أن يتأخّر على المدرسة، عكس أبيه المستعجل دومًا، بل هو الذي يُذكّرها أحيانًا بأنّ عليهما الإسراع. كانا كأنّهما في نزهة، يتأمل الوجوه العديدة التي يراها في عربات القطار، ويشير لأمه لترى ما يرى فتسكته بابتسامة مُتواطئة، فيضحك ويدفن رأسه في حجرها، وتمسح على شعره.

الإمبالا كانت واسعة جدًا، ومقاعدها الأمامية عبارة عن كنبة كبيرة ممتدّة من الباب للباب، فكان دائم الانزلاق من مكانه في انحناءات الطريق الكثيرة التي يأخذها أبوه بسرعة. في البداية يجلس ملتصقًا بالباب،

ويسرح بنظره في الطريق وإشارات المرور، والاتجاهات وأشكال السيارات الأخرى، ثمّ فجأة تدور السيارة في أحد الملفّات بسرعة، فينزلق على الكنبة نحو الأب الذي يسدّد له نظرة نارية آمرًا إياه أن يعتدل في جلسته، فينتبه عدنان من أفكاره ويزحف عائدًا نحو الباب، ويجاهد أن يظلّ ملتصقًا به أطول قدر ممكن، لكنّه يسرح بأفكاره مرة أخرى حتى تدخل السيارة في انحناءة أخرى، وهكذا. وبالإضافة لهذه الانحناءات، والقيادة السريعة، واتساعِ الكنبة الذي كان يبدو بلا نهاية، والخوف الدائم من إثارة غضب الأب، كان هناك الشعور بالغثيان الذي يلازمه كلّما جلس في الإمبالا. لم يجرؤ على البوح بذلك لأبيه. أخبر أمّه، فقالت له إن كلّ الناس تصاب بدوار السيارات، وإن ذلك أمر مشابه لدوّار البحر.

لم يكن يعرف ما هو "دوار البحر"، فصمت. يدخل السيارة في الصباح الباكر وهو يغالب النوم، ويترقب مجيء الغثيان، ثمّ يظلّ يقاومه ويحاول التشبّث بالباب بما جعله دائم الصمت، شاحب الوجه. إذا حدّثه الأب أو سأله في شيء تلعثم وتاه فيحدجه الأب بنفاذ صبر، ويعود للقيادة وهو يهزّ رأسه يأسًا، فيعود عدنان للكُمون ومحاولة الثبات. يمران على تقاطعات كثيرة من البيت للمدرسة، وعند كلّ تقاطع ينظر عدنان للطريق الذي لمْ يأخذوه، ويتمنّى من قلبه لو أن أباه أخذ ذلك الطريق بدلاً من الطريق المعتاد. لا يدري لماذا، ربّما لأنّه يعرف الطريق المعتاد ولا يريده، يحلُم بشيء آخر. ذات مرة سأل أباه إلى أين يقود ذلك الطريق الآخر، فنظر إليه الأب بسخرية، وأجاب بأنّه يؤدّي لمكان غير ذلك الذي هم ذاهبون إليه. يتذكر ذلكَ ويتساءل عن هذه الطرق؛ نسي أسماءها الآن،

لم يدخل منها وهو طفل، وربّما دخلها بعد ذلك، و لم يعرف أنها هي تلك الطرق التي كان يتحسّر وهو يخلفها وراءه في الإمبالا المسرعة.

هبط درجات السّلم، وسار على الرصيف بحذاء المدرسة صاعدًا التلة بحثًا عن المتنزه الصغير. سار دقائق قليلة، ثمّ لاح له سوره الحديدي. واصل الصعود حتى بلغه. لماذا يبدو مختلفًا؟ سأل نفسه وهو يحدق بقلق في أرجاء المتنزه. الملعب في وسطه هو هو، والتلّ المنحدر الحواف صعب التسلّق كما هو. لكن لماذا يبدو مختلفًا؟ هل كان هذا المبنى هنا؟ هل هذه دورة مياه أم غرفة لحارس؟ هل أعادوا بناءه؟ هل يُعاد بناء المتنزهات، أم تراه أخطأ الاتجاه؟ ربّما هناك متنزه آخر في الناحية الأخرى.

كان أبوه ينزله من السيارة عند هذه الناصية؛ كي يتفادى إضاعة الوقت في الالتفاف من شارع كولومبيا، فيمر على المتنزه يوميًا في طريقه لباب المدرسة. يجب أن يكون هنا إذًا، أو ربّما في الجانب الآخر. هل للمدرسة باب آخر من شارع 18؟ امرأة سمراء طويلة القامة تدخل المتنزِه من الجانب الآخر، وتجلس عند المبنى الصغير الذي لم يتعرّف عليه. فكر أن يذهب ويسألها لكنّه تراجع. ماذا سيقول لها! نظر ناحيتها مرةً أخرى؛ من بعيد تشبه تلك الفتاة التي كانت معه في المدرسة، التلميذة الأجنبية الأخرى. لم يكن يعرف اسمها. قال أحد الفتوات إنها هندية، فأخذوا يتندّرون عمّا إذا كانت ترتدي ريشًا، وتحمل سهامًا. ضحكوا، لكن تلميذة مجتهدة علّقت في سخرية من جهل زملائها بأنّ البنت هندية من الهند، وليست هندية حمراء، فردّ كبيرهم بغلظة مُتسائلاً عن الفارق: أليسوا كلّهم هنودًا؟ ومن ساعتها صار اسمها "البنتُ الحمراء". كان عدنان يستلطف "البنت

الحمراء" لكنّه لم يجرؤ على مخاطبتها يومًا، كما أنها كانت محلّ سخرية، فلم يُرد أن يزيد من وضعه سوءًا إن شُوهد معها. هل يمكن أن تكون هي تلك الجالسة في آخر المنتزه؟ نظر بإمعانٍ ناحيتها: ما الذي تفعله؟ تُخرج منديلاً، وتمسح وجهها. هل تبكي؟ ما هذا؟ يوم تذكر الماضي؟ لا، لابدّ أنه الحر. امرأة سمراء طويلة تستريح في منتزه ليس أمرًا نادرًا، صحيح إنها في نفس العمر الذي ستكون عليه البنت الحمراء، لكن لا يمكن أن تكون هي. دعك من هذه الترهات، دع المرأة في سلام، قال لنفسه.

واشنطن، والحر خانق. جال بخاطره أن ملابسه غير ملائمة بالمرة. هو الآتي من ديترويت لم يخطر بباله أن يكون الجو بهذه الحرارة في واشنطن. ابتسم لنفسه: "ملابسك دائمًا غير ملائمة، وأنت طفل مثلما وأنت في الأربعينات، لابد أن العيب فيك أنت". يذكر هذا الأمر كأنّه مسمار يوخز قلبه: شعوره وهو طفل يرتدي ملابس غير ملائمة للبرد في الشتاء، وغير ملائمة للحر في الصيف، وغير ملائمة للسّهر في حفلات المدرسة، وأعياد ميلاد زملائه القليلة التي دُعِي إليها. تشعر بالعار من نفسك وأنت ترتدي ملابس غير ملائمة، كأنكَ تحمل وِزرًا لا تريد للناس أنٍ يروه، تحاول أن تخفيه عن أعينهم بأنّ تُخفي نفسكَ. تحاول أن تأخذ أقلّ حيزٍ من المكان، وألاّ تأتي في طريق نظرات الأطفال الآخرين. في الفصل، تجلس في مقعد جانبي، لا في الأمام حيث المجتهدين، ولا في الخلف حيث الفتوات، بل في الوسط حيث لا يلاحظك أحد. وفي الفناء أو الحفلات تأخذ مكانًا قصيًا، وتصمت قدر الإمكان، وإن قابلك أحد أو وجّه الحديث لك تحاول أن تنهي هذه اللّحظة بأسرع وقتٍ ممكن. الصّمت ليس حلاً مضمونًا،

فقد يجرّ عليك المزيد من التحديق، والمزيد من الرّغبة في الاختفاء. دائمًا ما سأل نفسه من أين يشتري أبواه ملابسه، أليست هي نفس المتاجر التي يشتري منها بقية أولاد المدرسة أغراضهم! ذات يومٍ رأى في مدخل محل بجوار مكتب أبيه بنطلونًا من الجينز يشبه ذلك الذيّ يرتديه أحد الأولاد المحبوبين، فاستجمع شجاعته وطلب من أبيه شراءه، لكن الأب قرعه لجشعه ومطالبه التي لا تنتهي، فصمت و لم يعد لمثلها. الملابس غير الملائمة، الأدوات المدرسية غير الملائمة. واللّعب غير الملائمة، قرر أن يتوقّف عن التفكير في هذه الأشياء، لو استرسل في التذكّر فلن يغادر واشنطن اليوم. لو استرسل في تذكّر لعبِه المضحكة، والسخرية التي جرتها عليه طيلة سنوات طفولته، أو أدوات التزلّج على الجليد التي جاء بها يومًا لهذا المتنزه فجعلته أمثولة بين زملائه، أو أغطية الرأس والقفازات الأكبر منه مقاسًا، أو الأصغر مقاسًا. لم تكن له صديقة واحدة طيلة هذه السنوات أو صديق: الجميع نأى عنه. الولد الأسمر الأحمق. لا، لا داعي للاسترسال.

نظر مرةً أخرى للمنتزه: هل هذا فعلاً نفس المكان الذي كان يرتاده يوميًا؟ هنا كان ينتظر مجيء أبيه بعد المدرسة؛ كي يقله في رحلة أخرى بالإمبالا إلى البيت. كان يحب هذه الرحلة ويكرهها في نفس الوقت. يحبُها لأنّها تأخذه لراحة البيت وعناية أمّه وطعامها وتدليلها له. ويكره العودة لأنّ الإمبالا تكون حارة صيفًا باردةً شتاء، فالأب لا يحب تشغيل تكييف السيارة عندما تقف في الإشارات. لا يدري لِم، حين سأله ردّ بأنّ التكييف يُتعب المحرّك أثناء الوقوف. وجد عدنان ذلك الأمر غريبًا: لماذا صمّمت شيفرولية محرك سيارة بهذا الغباء؟ ألا يعرفون أن في أمريكا

إشارات؟ سأل أباه، وفاجأه السّباب والوعيد الذي خصّه به الأب عندئذ (كان ذلك قبل حادثة قياس طول الإمبالا). استسلم من يومها لتقلّبات الجو في السيارة أثناء رحلة العودة، وشغله ذلك لحد ما عن الشعور الطاغي بالغثيان، ونجح أحيانًا في النوم أثناء رحلة العودة، مقابل بعض التقريع من أبيه عند الوصول. في البيت ينام الأب بعد الغداء، وتفرض الأم على البيت الصغير حظرًا للتجول والتحدث فينتهي الأمر بعدنان للنوم أيضًا، لكنّه عندما يستيقظ يكون الأب قد غادر المنزل إلى مكتبه الذي يظلّ به حتى العاشرة مساءً. قبل العاشرة يكون قد تسلّل للفراش حتى يتفادى عودة الأب المصحوبة بلعنات يصبّها على سائق بالمكتب، أو زبون تأخر أو جارٍ ترك سيارته في مكانه المفضّل، أو البنك الذي يُطالبه بالقسط الربع سنوي أو – إن تعذّر كلّ ذلك – على من يراه في البيت أولاً. لتفادي كلّ ذلك يضحّي عدنان بما يشاهده في التليفزيون، ويتسلّل للفراش في العاشرة إلا خمس دقائق، ويظل يترقّب. يغوص قلبه في ضلوعه عندما يسمع صوت محرّك السيارة الضخم وهو يهدأ تحت النافذة، ثمّ صوت درجات السلّم الخشبية الخمسة، وهي تئزّ تحت ثقل الأب الضّخم الجثّة، يعقب ذلك تكّة المفتاح في قفل الباب، وصخب الوعيد والسّباب.

كما كانت هناك الأمسيات التي يصاحب فيها أباه للمكتب، وذلك في العطلات. يحاول عدنان التملّص لكن بلا فائدة. يقول الأب أشياءً عن مساعدة الابن لأبيه، وعن أنه يأكل ويشرب طيلة العام على حسابه، ولن يقتله أن يرد بعض الجميل بمساعدة طفيفة يقدّمها بتواجده بالمكتب، والرد على التليفون. يكره الذهاب معه، لكنّ المكتب لم يكن كلّه عذابًا،

فقد كان هناك سونيتا، موظفة الاستقبال الهندية الأصل، والتي كثيرًا ما تأتي المكتب مرتدية الساري الهندي الملوّن. أجمل مافيه، من وجهة نظر عدنان، هو أنه يكشف وسط جسمها بالكامل، بطنها وظهرها وجنبيه، وأنه يمكنه الجلوس والنظر إلى هذا الجسد دون عواقب، خاصة إن لم يكن أبوه بالمكتب. كلّما مالت في اتجاه أو غيّرت وقفتها تغيّرت ملامح ثنيات وسطها وظلاله، وصار يعرفها كلّها ويبحث عنها. كانت تلك هي متعته الرئيسية في هذه المرحلة من حياته، هي والبرنجلز بطعم الجبن حين ينجح في انتزاع دولار من هنا أو من هناك. وحين يُغمض عينيه ويتخيّل ملمس وسط سونيتا، كان يتخيّله حريفًا مثل طعم البرنجلز. كذلك كان يحبّ الاستماع لـ أبو زهدي، السائق الفلسطيني. فهو يحكي حكايات مسلية عن مصر وفلسطين وبلاد أخرى يزعم أنه عاش فيها، ويحدثه أيضًا عن أبيه، ويحرّضه ألاّ يقبل صفعاته وإهاناته أمام الآخرين هكذا بلا رد.

يذهله ما يقترحه عليه أبوزهدي: كيف يرد؟ سيتسبّب ذلك في المزيد من الصّفعات، وربّما في الربط بالحبال والضرب بالحزام مثلما حدث في العام الماضي حين رفض الذّهاب معه للمكتب. والأسوأ من ذلك سيؤدّي إلى أيام من الصمت المرعب في البيت كلّه، وسينغّص على أمه. يرد أبوزهدي بكلام كثير لا يفهمه عدنان، لكنّه يحب أن يسمعه. والحقيقة أنه كانت هناك مصادر أخرى للمتعة في المكتب، حتى حين يكون الأب حاضرًا، مثل وجبات الدجاج المشوي والخيار المخلّل والخبز اللبناني التي تأتي في بعض الأمسيات، أو وجبات الفول والحمّص والتي يحضرها أبوزهدي في الصباح في العطلات (حيث إن الأب لا يؤمن بمبدأ الراحة الأسبوعية

للمكتب). لكنّ الذهاب للمكتب يعني أيضًا ضياع فرص ثمينة في قضاء أمسيات هادئة وحنونة مع الأم والتلفاز، وفرص أكبر للتعرض لنوبات الغضب المفاجىء للأب بما تحمله من تهديدات.

أدرك عدنان وهو واقف أمام المنتزه أن كل لحظات طفولته اختلط الحبُّ فيها بالكراهية، والسعادة بالتعاسة. استغرب أنه لم يفكر في الأمر بهذا الشكل من قبل. كان غاضبًا ومخنوقًا من سلطة أبيه وتحكمه حين غادر منزل العائلة إلى الجامعة في ديترويت. كان غاضبًا على أبيه، وانفجر غضبه حين ماتت أمّه بعد رحيله للجامعة بعامين وقام الأب بدفنها دون أن يُخطر الابن الغائب. برّر الأب ذلك بتعاليم الشريعة التي تحبذ الدفن في أسرع وقتٍ ممكن، لكنّها كانت القشّة التي قصمت ظهر البعير، أو لعلّها كانت فرصة انتهزها عدنان ليفعل ما كان يتوق سرًا لفعله منذ طفولته. لم يرد على أبيه ساعتها، قال له "شكرًا" ووضع السماعة ثمّ لم يعد للاتصال به بعدها. لم يتّصل به الأب أيضًا، وهو ما أدهش عدنان قليلاً، وإن كان أراحه من عناء مواجهة يخشاها ووفّر له مددًا من الأسباب التي تثبت أنه على حق في مقاطعته للأب. وهكذا ماتت علاقتهما، في صمت، حتى مات الأب نفسه منذ شهرين.

لم يحضر عدنان دفن أبيه، انتقامًا. قرر أن يردّ الصاع لأبيه الميت، وكلّف جمعية إسلامية خيرية بتولّي مراسم الدفن، وكلّف محاميًا بتصفية ما بقي من أملاكه وديونه. لم يعد هنا حتى الأمس حين دعاه الدكتور درويش خال أمّه لزيارته في نيويورك بمناسبة عيد ميلاد سلمى. مسّته هذه الدعوة في الصّميم، فقرر المجيء لهنا وتصفية هذه الأشياء، والذهاب

لنيويورك لرؤية سلمى. لم يكن يعلم أنها في نيويورك. لم يرها منذ كانت طفلة حين كان يقابلها مع أمها في الأجازات الصيفية. عدنان يحب الدكتور درويش منذ طفولته: يذكر زياراتهم لبيته في نيويورك، واحتفاء أمّه به. ربّما لهذا السبب يحبّه، فهو لا يذكر أن الدكتور درويش كان حنونًا عليه بصورة خاصة - ربّما أهداه شيئًا ذات يوم، على الأغلب كتاب. لا يذكر تمامًا. كان يحبه لأنّ أمه كانت تحبه، وتقول إنها فخورة بأنّ يكون خالها رجل عظيم كهذا وتدعو لعدنان أن يكبر ويصبح مثله. لكن الأهم من ذلك أنه كان أحيانًا يقابل ليلى ابنة الدكتور أثناء هذه الزيارات. ليلى في مثل عمره تقريبًا، لكنّها أكثر جرأة منه. هي التي بدأت بالتعرّف عليه، وأخذته في جولاتها "السرية" بنيويورك. لم يكن في هذه الجولات شيء خاص: عربة السّجق، محل البرجر، قهوة ومحل لعصير، ومكان على النهر تحت جسر لا يذكر أين، و"مخابئ" سرية من التي يتفنّن الأطفال في خلقها. كانت تتحدّث طيلة الوقت وهو يصغي، مبهورًا أكثر من أيِّ شيء آخر. حكت له عن حياتها في مصر والمدرسة هناك، والأولاد والبنات، وكأنّها تفتح له عالمًا سحريًا، عالم كلّه أولاد في مثل شكله واسمه، وعاداته وملابسه. قال إنه يُحب لو ذهب للمدرسة في مصر تلك التي تصفها، فقالت له إنه لو فعل لصار نجم المدرسة، فهو آتٍ من أمريكا.

ظلّ يحلُم بذلك أسابيع طويلة: هو نجم المدرسة. ثمّ سافرت ليلى. و لم يرها إلا بعدها بسنتين أو ثلاثة، لا يذكر. كانت قد كبرت ولكنّها ظلّت مندفعة مثلما كانت. واستعادا صداقتهما بسرعة، وأصبح يتحدّث هو أكثر

قليلاً لكن ليس بالقدر الكافي، ليشاركها الأفكار التي تدور برأسه. ثمّ سافرت مرة أخرى، وعندما رآها بعد ذلك كان مع أمّه في زيارة سريعة لنيويورك. كان قد أنهى المدرسة وعلى وشك الرحيل للجامعة بديترويت، وهي انتقلت لتوها لتعيش مع أبيها بعد وفاة أمها. صارت عروسًا مثلما قالت أمه لها وهي تحتضنها وتتفحّصها. أحبّها حين رآها، في ثيابها السّوداء، وحزنها الداعي للاحتضان. نظر إليها وأدرك أنه يحبها منذ أول صيفٍ قابلها فيه. لكنّه لم يجروْ على مُصارحتها بشيءٍ من هذا. وحين طلبتْ منه مراسلتها من ديترويت أومأ موافقًا في تلعثم، وهو يعلم أنه لن يفعل.

لم يبق عدنان على اتصال بالدكتور درويش بعد مغادرته بيت أهله في واشنطن. لم يراسل ليلى بالطبع، فهي ولاشك لديها معجبين كثيرين في نيويورك، ولن تهتمّ بشابٍ مثله. لكنّه كان يرسل للدكتور درويش بطاقة معايدة في العيد مثلما طلبت منه أمه، وواظب على ذلك حتى بعد وفاتها. كما توقّف مرة أو مرتين منذ سنوات في نيويورك وزاره، وبالصّدفة رأى سلمى هناك. خفق قلبه بشدة حين رآها أول مرة، قدر ما كانت تشبه ليلى أمها وهي صغيرة، تلك التي يحتفظ بها في مخيلته على الأقل. لم تكن ليلى موجودة بالبيت في المرتين اللتين رأى فيهما سلمى، وحمد الله على ذلك. لكنّه شعر بحبٍ أبوي غريب يجرفه ناحية الطفلة. ثم انقطعت أخبارها بعد ذلك، ولَم تعد تأتي لزيارة جدها درويش. ولهذا استغرب عدنان اتصال الدكتور درويش به، ودعوته له لحضور عيد ميلاد سلمى. ماالذي أتى بها؟ هل أتت وحدها أم أن ليلى ستكون بالحفلة؟ لم يجروْ

على سؤال درويش، سيرى بنفسه حين يصل نيويورك هذه الليلة.

وصل عدنان لواشنطن مساء الأمس، وقّع على الأوراق، وأنهى بقية متعلّقات أبيه هذا الصباح، ثم قرّر أن يُلقي نظرة على الماضي: على المدرسة والبيت. قضى ساعةً يبحث عن البيت، ثمّ قالت له سيدة عجوز إنّهم هدموا المربع الذي كان البيت جزءًا منه، وبنوا محلّه تجمعًا سكنيًا متكاملاً: كوندو. نظر للكوندو و لم يشعر بأيّ شيء: لا شبهًا من قريب أو من بعيد للبيت كما يتذكّره، حتى ملامح الشارع تغيّرت. لم يضع المزيد من الوقت وجاء للمدرسة، وهاهو أمام كوينسي آدمز.

هنا، في هذا المنتزه، على ما يذكر، كان ينتظر أباه كلّ يوم بعد المدرسة. وكان الأب دائم التأخّر؛ لا يذكر عدنان مرة واحدة خرج فيها من مدرسته ووجده. أحيانًا يتأخّر حتى يرحل كلّ الأطفال، ولا يبقى في المنتزه أحد غيره. عندئذ، يتظاهر عدنان بأنّ المنتزه حديقة قصره، وبأنه باشا كبير مثل هؤلاء الذين تقول أمّه إنّهم جدّودها، ويجري في المنتزه يتفقّد أحوال أملاكه، ويأمر الفلاحين ويضربهم بالكرباج. وعادةً ما تلعب الحيوانات الحديدية الصامتة دور الفلاحين المؤلم، وتتلقّى كرابيجه في صمتٍ وخضوع. يفعل ذلك ليتظاهر بأنّه ليس خائفًا، ولا متضايقًا من وجوده وحده في المنتزه. لكن الخوف يعبه في النهاية، فينسحب بكرباجه الوهمي إلى أحَد الأركان، وينكمش فيه حتى يسمع صوت محرك الإمبالا العتيقة. يبتهج، للحظاتٍ قليلة، ويجري نحو السيّارة، حتى يرى أباه بقامته الفارعة ونظراته النارية، وسحنته المهدّدة فيُهدّئ من سرعته، ومع حلول الأمن محلّ الخوف تعود المشاعر الأخرى لموقعها. يدخل الإمبالا،

ويلتصق بالباب، ويحاول عدم إثارة غضب الوالد.

فجأة خطر له هذا السؤال: كيف يمكن لأبيه أن يُشعره بالأمن وبالخوف في نفس الوقت؟ غريبة؛ لم يفكّر في الأمر على هذا النحو من قبل. لكن الحقيقة أن حضور أبيه كان يطرد ذلك الخوف عنه، ويُنزل فيه خوفًا من نوع آخر. الخوف الأول غامض، فهو لا يعرف ممّ يخاف حين يكون وحده. يخاف أن يخطفه أحد أو يظلّ في الشارع ولا يعود لبيته أبدًا، وهي أمور عواقبها تُنذر بشرور غامضة. مرّ حارس المدرسة مرة عند المنتزه ووجده منكمشًا في أحد الأركان. كان قد مرّ وقت طويل منذ انتهاء موعد المدرسة ورحل كلّ الأطفال والمدرسين والعمال وفرغ الشارع تمامًا. توقّف الحارس ونزل من على دراجته، وقال شيئًا لعدنان لم يفهمه. الحارس طيب الملامح، لكنّه يتحدث بلكنة قوية لا يفهمها عدنان. أدرك أنه يطلب منه الركوب معه على الدرّاجة، فتردّد قليلاً ثمّ فعل. لا يعرف أين سيأخذه الحارس، فهو نفسه لا يعرف عُنوان بيته. لكنّه لم يعرف ماذا يفعل غير أن يطيع الحارس، وهنا ظهرت الإمبالا، وانتهى الأمر على خير. ظلّ بعدها يتجنّب الحارس، ويسأل نفسه عمّا إذا كان الحارس ينوي اختطافه (طبعًا الأب قرعه تقريعًا شديدًا على شروعه في ركوب الدرّاجة مع الحارس). وجود الأب يطرد هذه الهواجس، لكنّه يملؤه بخوف آخر؛ خوفًا من احمرار وجهه المفاجيء واستدارته إليه بغتة ثمّ نزول الصفعة على وجهه، أو الشيء الذي سيقذفه به، أو السّباب والوعيد بتقييده بالحبال وضربه بالحزام وتكسير عظامه، أو خوفًا أعظم حين يحدث ذلك لأمه.

في هذه اللّحظات كانت كراهيته لأبيه تعصف بأحشائه، ويتخيّل نفسه ممسكًا بأبيه يهزّه من كتفيه العريضتين ويدفعه نحو الحائط أو خارج السيارة وهي مُسرعة. يتمنّى ويدعو في قلبه بإخلاص أن يختفي الأب؛ أن يموت فورًا، أو أن يذوي ويتبخّر في الهواء، أن يرتطم بالإمبالا أو يسقط بها في الوادي العميق الذي يعبرونه كلّ يوم. أحيانًا يتخيّل نفسه وهو يهجم على مقود السيارة عند عبور الوادي ويدفعها لتسقط فيه. لكنّه لا يفعل، بل يصمت، ثمّ تطلب منه الأم أن يعتذر فيفعل، ويسامحه الأب على الشيء الذي لا يعرفه. مع الوقت، أصبح هدفه الرئيسي في وجود الأب أن يتفادى ثورات غضبه، بل وبدأ يتعلّم بعض الأشياء التي تجلب عليه رضاه، كلمة يقولها تأييدًا لشيء يقوله، مديحًا للأب أو ثناءً على الإمبالا، وكثيرًا من الابتسامات. يفعل ذلك تقريبًا من أجل الحصول على بعض رضاه وتجنّب بعض غضبه. ثمّ بدأ يستخدم هذه الحركات لتحقيق أهداف محددة، كأمسية هادئة مع أمّه أمام التلفاز بدلاً من الذهاب للمكتب، أو دولار يشتري به البرنجلز الممنوع دخوله البيت، أو من أجل الهدف الأكبر: الحصول على ساعة في عيد ميلاده الحادي عشر. مع التمرين زادت قدراته على التحايل، وتعلّم أن يذكر لأمّه كلامًا أثناء نوم أبيه في الظهر يعلم أنه سيسمعه ويُعجب به، وبلغت به الحنكة أن قال لها أثناء نوم أبيه المفترض أنه يشعر بالذنب لأنّ أباه يبذل جهدًا كبيرًا في العمل من أجله، وأنّه يحلُم باليوم الذي يكبر فيه ويردّ هذا الجميل لأبيه. كان ذلك بهدف تليين مقاومة الأب والحصول على الساعة، وقد أتت المحاولة أُكلَها في الأيام التالية؛ حصل على الساعة، لكنّه شعر بما يشبه الهزيمة.

الحرّ يزيد؛ هذه الملابس فعلاً غير ملائمة. قامت السيدة السمراء، ونفضت ملابسها وشرعت في الرحيل. الوقت يمر، ويجب أن يرحل هو أيضًا. نظر في ساعته؛ طائرته في السادسة ولو فاتته لفاته عشاء الدكتور درويش. يجب أن يكون بالمطار قبلها بساعتين لإنهاء إجراءات الأمن. من الأفضل إذن أن يرحل الآن قبل حلول ساعة الزحام. اقتربت السيدة السمراء من الناحية التي يقف فيها. حدّق فيها، فوجدها تنظر ناحيته. أومأ في مجاملة فقطبت جبينها مُستغربة. توقّفت ونظرت ناحيته مرةً أخرى:

– معقولة؟ هل هذا أنت؟

– أنا؟

– نعم، إنه أنت، ولد الـ "ماكين"!

– أظنك مخطئة. أنا لست ماكين.

– طبعًا، أنت "الأحمق"، لكنّي وأصدقائي كنا نسمّيك "ولد الماكين".

– أنت الـ ....

– الحمراء! نعم يا "أحمق!"

قالتها وانفجرت ضاحكة، ثمّ تقدّمت بتلقائية واحتضنته. ارتبك، ودخل في حضنها بتحفّظ. انفتحت في الحديث: هي تعيش بالحيّ منذ طفولتها، وانتقلت منه للجامعة في نيويورك، واستقرت هناك وتزوجت وأنجبت، ثمّ عادت لواشنطن بعد انفصالها عن الزوج ووجدت وظيفة بالحكومة الفيدرالية واستقرت في نفس البيت الذي كبرت فيه وتعيش فيه الآن مع طفليها. لا ليست هندية، لا من الهند ولا من السكان الأصليين

مثلما زعموا وإنما من "أوكلاهوما". نعم، ذلك اليوم الذي نظّمت فيه المدرسة حفلة طعام وكان من المفترض أن يأتي كلّ طفل بطبقٍ يمثّل تراث عائلته، وفُوجئنا بك ومعك هذه الكعكة الجاهزة المسمّاة ماكين:

– كانت تلك مزحة رائعة، لقد ضحكت وصديقاتي طيلة العشاء. ماذا كان هذا؟

– لم تكن مزحة للأسف. الحقيقة أن أمي أعدت شيئًا يُسمّى "ملوخية"، لكن أبي تشاجر معها لسبب ما وقذفها بالطبق الذي أعدته، ومن ثَمّ لم أجد شيئًا آتي به، فاشترى لي هذه الكعكة من محل بقالة صغير في الطريق. لم يأكل منها غيري في الحفلة.

– حسنًا. لست أدري أي العملين أسوأ: قذف الأم بالطبق أم شراء هذه الكعكة السخيفة! لكن أتعلم، لقد جعلك ذلك مشهورًا. معظم صديقاتي ظنن أنّك فعلت ذلك عامدًا، كنوع من الاستهزاء بهذا التقليد النمطي من المدرسة؛ يعني، معاملتنا على أننا أجانب، ونأتي من أماكن بها طعام غريب لدرجة تنظيم حفلة للفرجة على "تقاليدنا" وكلّ هذا. وجدنا أن إحضار كعكة ماكين، أكثر المأكولات اعتيادية في أمريكا، عمل ذكي للغاية منك!

– فعلاً؟

– لا تتصور لأي درجة! ولد الماكين: الولد الأسمر الوسيم الهادىء يرد على عُنصرية المدرسة بمنتهى الأناقة. لقد تحولت إلى بطل! لو سألت أيًا منا أن تواعدك وقتها لما تردّدت لحظة. لقد كنا نتراهن من منّا ستحظى بهذا الشرف!

ثم استرسلت في حديث عن المدرسة، وغباء الأولاد في هذه السن. ابنها يذهب الآن لنفس المدرسة وهي يسعدها ذلك. نعم، المدرسة صعبة لأبناء الأقليات ولكنَّ الحقيقة أنها صعبة للجميع، فالأطفال شديدوا القسوة مع بعضهم البعض، ماذا يمكن أن نفعل؟ سعدت بالحديث إليه، ماذا يفعل هنا؟ هل يريد احتساء قهوة؟ هناك مقهىً قريب يمكن أن يمشيا إليه. آه، لديه طائرة ليلحق بها؟ خسارة. هل يأتي هنا عادة؟ لن تصدق باتي صديقتها حين تقص عليها أنها قابلته. "من باتي؟". "لا تذكرها؟" تلك الفتاة الشقراء النحيفة التي كانت بصحبتي دائمًا. لقد كانت هي الأخرى واقعةً في غرامك آخر سنتين بالمدرسة. آه، لا يهم، هي ستتذكَّرك. لقد كان لك معجبات كثيرات. أين تعيش الآن؟ ياه، ديترويت، لقد اخترت نقطة بعيدة. هل هناك عرب كثيرون هناك فعلاً مثلما يشاع؟ حقيقي أسعدني الحديث إليك بعد هذه السنوات. خسارة ألا نستطيع احتساء القهوة، والحديث عن الماضي قليلاً. ولد الماكين؛ غير معقول، ياللمصادفة! صافحته، ورحلت بنشاط هابطةً التل. ارتدى مِعطفه مرةً أخرى، ووضع يديه في جيبه، ومضى ليلَحق بالطائرة.

7

رباب العمري

وصلت رباب المطار في تمام الخامسة؛ أمامها ساعة واحدة حتى موعد إقلاع الطائرة لنيويورك، وهو وقت ضيق في ضوء إجراءات الأمن الجديدة بالمطار والتي قد تستغرق خمسًا وأربعين دقيقة. لكن رباب لا تأبه لذلك، فهي مُصمّمة أن الوصول للمطار قبل الإقلاع بساعة كافٍ لإنهاء الإجراءات، وإن كانت سلطات المطار قرّرت تعقيد إجراءات الأمن فتلك مشكلتهم وعليهم تحمل تبعاتها، ليس المسافرون. وإن فاتتها الطائرة بسبب تلك الإجراءات، فهي مستعدّة لمقاضاتهم. قضية أخرى لن تضيرها. رباب تكره المطار والطائرات، وعادة ماتذهب لنيويورك بالقطار، لكنّها مسافرة إلى لوس أنجلوس بعد ذلك ووجد المكتب الذي

تعمل به أن السفر بالقطار سيكون أكثر تكلفة، فاستسلمت لرغبة المكتب في ضغط النفقات. طائرة أخرى لن تضيرها. كان من المفروض أن تقضي الأسبوع الماضي في واشنطن، ولكن المكتب أرسلها في مهمة مفاجئة لبوسطن. والآن هذا. ستصل في السابعة إلا عشر دقائق، ومن ثمّ يمكنها أن تكون بمنزل أستاذها الدكتور درويش في السابعة والنصف. ستتعشّى عنده، وتقابل سلمى حفيدته وابنة ليلى صديقتها الحميمة أيام الجامعة، ثمّ تحضر اجتماعين في اليوم التالي، وبعدها ترحل للوس أنجلوس ليومين – لمزيد من الاجتماعات، ثمّ تعود لواشنطن.

يرهقها السفر، لكنّها مضطرة إليه. يثير أعصابها الذهاب للمطار، وإجراءات الأمن السّخيفة، والسّير في ممرات المطارات الطويلة. والبحث عن البوابات، والدخول في طائرة مزدحمة، وحشر نفسها في كرسي ضيق، وجيرة شخص يكون في الغالب فظًا، وطعام الطائرات الماسخ، وتغيير روتينها اليومي، ثمّ الوصول وانتظار فتح باب الطائرة، ثمّ البحث عن سير الحقائب ثمّ انتظار ظهور حقيبتها، وجرها، والبحث عن المخرج وسط يافطات وإشارات المطار العديدة، والعثور على تاكسي، وشرح العنوان، ودخول الفندق، وإبراز تحقيق الشخصية، وملء استمارة بياناتها وإعطاء رقم بطاقتها الائتمانية، ثمّ البحث عن الغرفة، والتعامل مع حامل الحقائب الذي ينتظر الإكرامية، ثمّ إخراج ملابسها وأدوات تجميلها وأوراقها، وفرش أشيائها في الغرفة، ثمّ النّوم في فراش لا تعرفه، والتعامل مع درجة حرارة الغرفة التي تكون عادة أبرد أو أدفأ مما ينبغي، وهواء

التكييف الذي يصب دائمًا فوق الفراش مباشرة، وتسأل نفسها كلّ مرة هل مُصمّموا غرف الفنادق كلّهم حمقى؟ ثمّ التعامل مع طعام الفندق الذي يجمع بين ارتفاع السعر غير المبرر وسوء النوعية وقلة التنوع، أو الخروج والبحث عن طعام في مكان بالخارج في مدينة تجهلها ولا تريد أن تكتشفها في الساعتين المتاحتين لها، ثمّ العثور على مكان الاجتماع، والوصول في الموعد، ومقابلة غرباء ينظرون لها ويحكمون على كلّ شيء فيها؛ جمالها وهندامها، وحديثها ولكنتها، ولون بشرتها وتسريحة شعرها، وذكاء ملاحظاتها ومدى خفة دمها، ودرجة تحرّرها ومدى شجاعتها، وقوة شخصيتها، ثمّ ما ستقوله ومدى أهميته وصحته وسلاسة عرضه إلى آخر تلك الاختبارات التي لا آخر لها.

بينما هم يقيسونها تُحاول هي إقناعهم بفعل شيء أو آخر لصالح مساواة العرب الأمريكيين ببقية الناس. وهم يومئون، دائمًا ما يومئون، حتى حين يكونون غير مقتنعين بالمرة. وبعد أن تنتهي من مداخلتها، يقولون كلامًا مائعًا أو نصف مائع، ويتذرّعون بشيء ما يحول بينهم وبين تنفيذ ما تطلبه منهم: نُظم العمل بالشركة، أو بالولاية، أو بالجامعة، اعتبارات المنافسة، ضيق الوقت، هذا أو ذاك، أيُّ شيء. وهي تُواصل الزن، وحين يتضح أنّهم لن يستجيبوا الشيء تنتقل للموجة الثانية: التلويح بالمقاضاة، ثمّ تتغيّر اللهجة، بعضهم يُبدي مزيدًا من المرونة وبعضهم مزيدًا من العناد، ثمّ تنتقل للموجة الثالثة: التهديد السّافر، وتتغير النغمة مرة أخرى. أحيانًا ينتهي الأمر بالاتفاق، وذلك نادر، لكن في معظم الأوقات ينتهي بها الأمر مطرودة من المكان، وتكون تلك بداية القضية التي سيرفعها المكتب.

وصلت المطار ودفعت حقيبتها الصغيرة أمامها، وتوجّهت لماكينة شركة الطيران لتنهي إجراءاتها بنفسها، هكذا تقلّل عدد الموظفين الذين عليها التحدث إليهم واحدًا. اختارت مقعدها في الطائرة ومرّرت بطاقتها في الماكينة، تسلّمت بطاقة الصعود للطائرة، ثمّ توجهت نحو بوابة الدخول. وقفت في طابور الفحص الأمني. لحسن الحظ كان الطابور قصيرًا هذه المرة وتقدم بسرعة. جاء رجل في مثل عمرها ووقف خلفها. طويل، أسمر، عربي الملامح وله جاذبية غير واضحة المنشأ. يرتدي معطف مطر. نظر لها وأومأ في مجاملة دون أن يقول شيئًا. ردّت الإيماءة وهي تلف لتنظر أمامها. استغربت أن يرتدي أحد معطفًا للمطر في واشنطن في يوم حار بلا مطر كهذا. تحرّك الطابور بسرعة. خلعت حذاءها ووضعته مع حقيبة يدها في جهاز الأشعة. أخرجت الكمبيوتر الصغير من حقيبتها ووضعت الاثنين في الجهاز، ثمّ نظرت للسيدة الواقفة بجوار البوابة الإلكترونية، فأومأت لها فمرت من الباب. لم تُصدر البوابة صفيرًا فتوجهت رباب نحو حاجياتها؛ لتجمعها من الناحية الأخرى لجهاز الأشعة. في أثناء ذلك كانت ترقب بطرف عينها الرجل الواقف خلفها، والذي بدا عليه ارتباك كبير وهو يوزّع اهتمامه بين الأشياء المتعيّن عليه فعلها في نفس الوقت فعطّل الحركة. بدا التبرّم على موظّفي الأمن وهو يمر من البوابة فتصدر صفيرًا حادًا، ثمّ يتذكّر شيئًا نسيه في جيبه فيتراجع لإخراجه بما يربك الحركة أكثر. أوقفه أحد موظفي الأمن وهو ينادي عليه بصوت عالٍ وشبه آلي:

– سيدي، من فضلك، توقّف هنا. تفضّل من هنا. من هنا، نعم على جنب. لا، دع حاجياتك هنا سنتولّاها نحن.

التفتت رباب، وهي تحمل حقائبها لموظف الأمن:

– ماذا هنالك؟ لماذا تأخذونه على حدة؟

– سيدتي، إن كنت أنهيتي إجراءاتك من فضلك لا تقفي هنا، تقدّمي للأمام.

– نعم أنهيت إجراءاتي، ولكني أسألك لماذا تأخذ هذا الرجل على حدة؟

– سيدتي، هذه إجراءات أمنية، من فضلك لا تتدخّلي في عمل الأمن.

– هل تأخذونه على حدة لأنّه عربي الملامح؟

– سيدتي: من فضلك، لا داعٍ لهذا الحديث.

– أنا أسألك سؤالاً.

– هل أنت معه؟ هل تعرفين هذا الرجل؟ من فضلك تنحي جانبًا، تعالي من هنا مع حاجياتك.

– لماذا آتي على حدة؟ لقد أنهيت إجراءاتي. هل تشكّ في سلامة إجراءات الأمن التي قمت بها؟

– سيدتي: ممكن أرى جواز سفرك وبطاقة صعود الطائرة؟

هنا تدخّل الرجل صاحب الملامح العربية لأول مرة:

– من فضلك ياسيدة، لا داعي.

– من فضلكما أنتما الإثنين؛ تعالا على جنب.

وهكذا، بين تعليقٍ منها، ومحاولة منه لإبقائها خارج شئونه، وقلق عصبي من جانب رجلِ الأمن، انتهى بهما الأمر معزولين في غرفةٍ صغيرة يقف على بابها اثنان من موظفي الأمن؛ رجل وسيدة. مدّت ربابُ يدها نحو الرجل:

– رباب العمري، محامية.

كانت يد الرجل في طريقها لمصافحة يد رباب الممدودة ناحيته عندما جاء صوت حارس الأمن يطلب منهما الهدوء. تردّد ثمّ أعاد يده بجانبه، وظلّت يد رباب وحيدة في الهواء لثانية قبل أن تنتبه إلى أن جارها قد وجّه تركيزه للحارس. سحبت يدها وتركته في حاله، كيلا تزيد من ارتباكه. تردّد الرجل لحظة، ثمّ مدّ يده في ضيق:

– عدنان فكري، محاسب.

سألته عن وجهته، فأجاب باقتضاب: نيويورك. قالت إنها هي أيضًا ذاهبة لهناك. سألته إن كان من واشنطن كوسيلة مهذبه للسؤال عن بلده الأصلية، فرد بأنّه ولد وعاش بواشنطن وهو صغير، لكنّه رحل منذ سنوات طويلة فهزّت رأسها، وعلّقت بأنّ عدد الناس الذين تربوا في واشنطن واستمروا في الحياة فيها قليل. انتظرت أن يوضّح من أي بلدٍ جاء أو يسألها عن أصلها، لكنّه لزم الصمت. لم يكن ينظر إليها، ولا لشيء آخر محدد. ينظر أحيانًا لباب الغرفة الصغيرة التي اقتادوهما لها بجوار

أجهزة الفحص، وأحيانًا ينظر أمامه في الفراغ. كان مرتبكًا؛ غير متأكد إن كان عليه أن يكون ممتنًا لها لمحاولتها مساعدتها، أم ناقمًا عليها لجعلها المشكلة أكبر بتدخّلها الذي لم يطلبه. علّقت رباب بشيءٍ ما لتُخفّف من حدّة الموقف لكنّه لم يرد. بعد دقائق جاء رجل الأمن وانتحى به جانبًا. سأله بعض الأسئلة، ثمّ أشار له بالذهاب لحيث كانت أمتعته، فخرج دون أن ينظر لها. هزت رأسها في سخرية وانتظرت. جاء رجل الأمن بعد قليل وأشار لرباب في تبرّم لا يحاول إخفاءه. أعطاها أوراقها وأشار لها بالرحيل، فسألته عن مصير عدنان. غمغم بشيءٍ لم تسمعه وتركها، وعاد لأجهزته.

سارت في ممرات المطار تبحث عن بوابة طائرتها. أين ذهب هذا العدنان؟ وأيُّ اسم هذا؟ هل هو فلسطيني؟ يبدو في مثل سنها، ربّما أكبر بسنة أو اثنتين. ملابسه وهيأته تُوحي بأنّه غير متزوج، أو على الأقل ليس لديه امرأة تعتني به. ربّما لديه زوجة لاتفهم في الهِندام، أو غبية، وربما زوجته آتية لتوّها من بلده، ولا تفهم ما يجب ارتداؤه هنا. لم تستطع أن تضع يدها على الشيء الخاطىء في هِندامه، ربّما هي هيأته نفسها، طريقة وقفته، حركة رأسه وجسمه، لكن لديه هذه الجاذبية التي لا تعرف من أين تأتي. وجدته واقفًا يحدّق أمام شاشة الإعلان عن مواعيد وبوابات إقلاع الطائرات. توجّهت ناحيته وبسرعة ذهنها المتّقد لمحت رقم بوابة طائرة نيويورك على اللّوحة قبل أن يجدها هو: "55، من هنا". أشارت باتجاه البوابة، فتنبّه لوجودها وابتسم ابتسامةً متعثرة.

سارا سويًا نحو البوابة. لم يبق سوى عشرين دقيقة على موعد الإقلاع. سيصلان للطائرة ويفترقان، ربّما للأبد. تملّكها الفضول. سألته إن كان يعيش في نيويورك فنفى وصمت، فلم تستسلم وسألته عن سبب زيارته لنيويورك إذًا، وشيئًا فشيئًا، وكأنها تقتلع أسنانه، فهمت أنهما ذاهبان هما الاثنان لعشاء الدكتور درويش. شرح لها أنه خال أمّه، وفهم منها أنها تلميذة قديمة لدرويش وصديقة لليلى، وذاهبة لحضور عيد ميلاد سلمى، وتندّرا على الصدفة التي جمعتهما في المطار. وعند هذه النقطة التي تصوّرت أن يبدأ منها الحديث بشكلٍ أسهل، صمت تمامًا. وصلا للبوابة المخصّصة لطائرتهما.

كانت البوابة مُكتظّة بالمسافرين، وهناك أطفال كثيرون يصرخون ويجرون في المكان، وشباب مُمدّد على الأرض ينتظر، ولا مقاعد خالية. توجّها للموظفة، وسألاها في نفس واحد عن موعد الإقلاع، فعلما أن الطائرة ستتأخّر لمدة خمس وأربعين دقيقة. تبادلا إبداء الانزعاج، فذلك يعني تأخّرهما على موعدهما. لكن الموظفة هزّت كتفيها بألاّ يسعها فعل شيء وتركتهما ومضت. نظرت رباب لعدنان، وأخبرته أن لديها بطاقة تسمح لها باستخدام صالة رجال الأعمال واصطحاب ضيف، وعرضت عليه في دلالٍ مازح أن يكون ضيفها. لكن عدنان ارتاع من الفكرة؛ كيف يذهب لقاعة رجال الأعمال وهو مسافر في الدرجة السياحية؟ لا يعتقد أن ذلك من حقّه. أكدت له أن ذلك هو النظام المعمول به، وأنّها لا تنوي تهريبه للقاعة، لكنّه أبدى ترددًا كبيرًا. قالت له في نفاذ صبر إنها لا تريد التطفّل وإنّه إن كان يفضّل الانتظار خمسًا وأربعين دقيقة وسط

صراخ الأطفال بدلاً من الجلوس بهدوء في القاعة المميّزة، وتناوُل شراب أو قهوة، وقراءة جريدة أو مراجعة بريده الإلكتروني، فإنّها لن تحرمه من هذه المتعة. ردّ بشيء غير واضح عن أنه لا يريد أن يبدو وكأنّه يتسول خدمة غير مُخصّصة له. نظرت له بنفاذ صبرٍ فسار معها.

استقرا في القاعة، وسألته عمّا يريد أن يشربه فشكرها، وقال إنه سيقرأ الجريدة. أتت لنفسها بكأسٍ من النبيذ الأبيض وكوب ماء وعادت. جاء بالجريدة وجلس بجوارها، لكنّها عاجلته بالحديث قبل أن يشرع في قراءة جريدته. تطوعت بإخباره أنها على عكسه وُلدت وتربّت في مصر، لكنّها أتت لواشنطن واستقرت بها، ولم تعد تستطيع أن تبرحها. أومأ موافقًا وهو يكرّر "نعم، نعم". لم يكن في كلامها ما يستدعي الموافقة. نظرت إليه وهي تتساءل فيم يفكر؟ كيف يراها؟ هل يشعر بأنّها تطارده أم أنه فقط خجول وغريب الأطوار؟ كانا قد استأنفا الحديث بالإنجليزية بعد الجُمل العربية القليلة التي تبادلاها عندما اكتشفا أصولهما المشتركة. تحدّث بكلماتٍ قليلة عن عمله كمحاسب بشركة السيارات الكبيرة بديترويت، وبكلماتٍ أقل عن عائلته وعن حياتهم السابقة بواشنطن، لكنّهما تحدثا بعض الإسهاب عن واشنطن نفسها، وخاصة ميدان دوبون حيث تسكن والذي بدا أنه يحبه بشكل خاص. تساءلت عمّا إذا كان له ذكرى خاصة في المنطقة، ربّما حبيبته الأولى. ثمّ أدركت فجأة أنه يشبه ألكس زوجها السابق. انزعجت من هذه الفكرة وبدا عليها ذلك، وظن عدنان أنه قال شيئًا ضايقها فصمت. بعد عدة ثوان من الصمت الحرج، بدأ يقرأ في جريدته، وأخرجت هي تليفونها، وبدأت تراجع بريدها الإلكتروني.

ثمّ عاودت الكَرّة:

– هل عشت بديترويت فترة طويلة؟

– نعم، حوالي خمسة وعشرين عامًا.

– ياللهول! خمسة وعشرين عامًا في نفس المكان؟ ألم تشعر بالملل؟

– الملل موجود في الأماكن الأخرى أيضًا.

لا بأس بهذا الرد، فكّرت. لكنّه صمت مرةً أخرى وبدأت تشعر وكأنها تطارده، فصمتت وصمت هو الآخر. بعد خمس دقائق أخذ المبادرة، لأول مرة، وسألها عن عملها. شرحت له رباب أنها محامية في مكتب للدفاع القانوني عن الحقوق المدنية للأقلّيات، وأنّ اختصاصها حقوق العرب والمسلمين. أبدى بعض الاهتمام، فاسترسلت في شرح العمل الذي تقوم به، ومدى صعوبته وكيف زادت هذه الصعوبة أضعافًا مضاعفة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. أومأ برأسه عدة مرات، وعلّق بشيء عن صعوبة وضع الأقليات بشكلٍ عام. سألته عمّا يقصد، فأجاب أن الأقلية محكوم عليها بأنْ تخضع للتّمييز. انتابها غضب مفاجىء، وسألته بنبرة مُتهكمة، وبالعربية لأول مرة منذ بدءا الحديث:

– يعني إيه إن شاء الله؟ يعني عادي إنهم يدوسوا علينا؟ نقول لهم إحنا آسفين للإزعاج، اتفضلوا، دوسوا كمان؟

– ماقصدتش كدة، لكن التمييز ده في كلّ حاجه، من البقّال إلى سلطات الأمن، ومش كلّ حاجة ينفع يترفع فيها قضية.

– أهو الكلام الفارغ ده اللي جابينا لورا.

– حضرتك ليه عدوانية؟

– ولا عدوانية ولا غيره، بس أنا ماليش طقطان على الكلام ده. دي حوارات خلّصتها وأنا عندي خمسة وعشرين سنة.

نظرت إليه وشعرت أنه ينكمش. كأنّ ملامح وجهه تصغر في الحجم. حلّ عليه صمتٌ كامل. بعد دقيقة واحدة قال إنه سيذهب ليرى ما إذا كانت الطائرة على وشك الإقلاع. قالت له ألا فائدة من كثرة السؤال، فالطائرة لن تقلع قبل ربع ساعة أخرى، لكنّه تحجّج بأنّه يريد شراء شيء، وقام في تلعثم مُومئًا لها برأسه. أومأت له بدورها ومضى بسرعة. عادت لتفقّد بريدها الإلكتروني بغضب وهي تدمدم بصوت مسموع: "ياله من متخلّف". تسأل نفسها عمّا أصاب الرجال. ألكْس كان يشبه هذا الأخرق؛ جذّاب ولطيف، وطيب وذكي، لكن ليس بما فيه الكفاية. قالت لنفسها ساعتها إن ذلك لا يهم، فألكس يفهّمها ويتفهمها ويعتني بها، ويحتويها ولا يعاني أيًا من مشكلات وعقد الرجل الشرقي. كانا أصدقاء في البداية، وكان يحتمل كلّ ترهاتها وسخافاتها حتى حين يفر منها بقية أصدقائها. ثم، مثلما يحدث في الأفلام الباهتة، انقلبت الصّداقة لحب، وظَنّت أنه رجل حياتها. تزوجا بسرعة، رغم اعتراضاتِ ليلى. ربّما لم تكن هي نفسها متأكّدة من صواب اختيارها، فأسرعت بالزواج قبل أن تقنعها ليلى بالعدول عنه.

لم يدم هذا الزواج سوى عام وبضعة شهور. بعد أربعة شهور من

زواجهما فقدت عملها بمكتب المحاماة المرموق الذي كانت تعمل به منذ تخرجت. كانت حديثة التخرج، مخلصة ومجدّة في عملها. قالت لها مديرتها ذات صباح إنّهم مضطرون لتخفيض عدد المحامين بالمكتب، وأنّ وظيفتها ستُلغى. بعدها بشهرين قابلت زميلة سابقة لها بالجامعة، واكتشفت إنّها عُينت في نفس المكتب، تقريبًا في نفس عملها القديم. صُدمت و لم تفهم في البداية، وانتابتها شكوك حول كفاءتها. لم تكن قد وجدت عملاً آخر، لم تفلح محاولاتها في العثور على وظيفة مماثلة لتلك التي فُصلت منها. دعمها ألكس بشدة لكن شعورها بالفشلّ ظلّ يتزايد حتى توقّفت تمامًا عن البحث عن عمل، وأصبحت تقضي وقتها كلّه في المنزل. تتذكّر تلك الفترة كأسوأ فترة في حياتها. رحلت ليلى في نفس الوقت عائدة لمصر، قائلة إنه لا سبب يدعوها للبقاء في أمريكا، وإنّها كي تفعل شيئًا مفيدًا عليها العودة للمكان الوحيد الذي يُحدث وجودها فيه فرقًا. آلمها ذلك أيضًا، ليس فقط لأنّ ليلى لم ترَ في وجودها وصداقتهما مسألة ذات أهمية، ليس فقط لأنها اتخذت هذا القرار وحدها ودون مناقشة معها، وإنما لأنّ ليلى ضغطت على الجرح الذي كانت تشعر به، وهو أنها عديمة القيمة وبلا فائدة. ظلّت تطفو هكذا في الحياة دون مايشغلها، ثمّ قابلت كريستي.

كانت كريستي ثملة تمامًا عندما اعترفت لرباب أن المكتب قرر الاستغناء عنها بسبب أصلها الأجنبي. قالت إن الكثير من العملاء أبدوا عدم رغبتهم في أن تتولّى قضاياهم، إمّا عدم ثقة في كفاءتها أو لمجرد شعورهم بأنهم لا يستطيعون التواصل معها بنفس الدرجة التي يتواصلون

بها مع محام يشاطرهم اللّهجة والمزاج وروح الدعابة. بعد فترة أصبح وجودها يشكّل عبئًا ماليًا وإداريًا على المكتب، لكنهم لم يستطيعوا تبرير إنهاء خدمتها، فقاموا بإلغاء الوظيفة نفسها، ثمّ أعادوها بعدها بشهرين وعيّنوا تلك الزميلة التي قابلتها رباب. اعترفت كريستي أنها شعرت بالرثاء لرباب لكنّها تفّهمت ظروف المكتب. رباب كانت قد ثملت أيضًا عندما بدأت كريستي هذا الحوار، لكنّها شعرت أنها تفيق من نوم طويل. عندما أنهت كريستي حديثها قامت رباب واقفة، وجمعت حاجياتها كي ترحل. طلبت منها كريستي توصيلها لمنزلها إذ لن تستطيع في حالتها تلك القيادة أو حتى العودة في تاكسي، وهنا انفجرت فيها رباب بسيل من أقذع الشتائم التي فاجأت رباب قبل غيرها من رُوّاد البار. صمت المحيطون بهما كلهم، في حين انهالت رباب بالسّباب على كريستي الغير فاهمة لما يجري لها، ثم سحبت حقيبتها وخرجت من البار.

حكت رباب القصة في نفس الليلة لألكس الذي استمع بصبرٍ وتشكّك. لم تفهم رباب بالضبط رد فعل ألكس، لكنّه ظلّ يشكك في صحة القصة في نفس الوقت الذي بدا فيه وكأنّه قد قبل فكرة الربط بين أصل رباب الأجنبي وعدم قدرتها العثور على وظيفة تتناسب ومؤهلاتها. الأسوأ من ذلك، على الأقل في نظر رباب، أنه بدا وكأنّه قد تعايش مع الفكرة باعتبارها أمر طبيعي، فصار يُثنيها عن التقدّم للوظائف المرموقة على أساس أن ذلك "تضييع لوقتها"، فهم "طبعًا لن يقبلوك بهذا المكتب". كان الغضب يتزايد داخل رباب يومًا بعد يوم، وفي حين عادت ليلى لمصر فإن رباب قررت أنها لن ترحل، ولن تستسلم، ولن تقبل بتلك الفكرة

التي قبل بها ألكس الجبان. واجهته أكثر من مرة، وتشاجرا كثيرًا، واتهمها بأنّها تعاني من عقدة اضطهاد مرضية، واتهمته بأنّه ليس رجلاً، وظلّت الأمور تتدهور حتى انتهى الأمر بطلاقهما. كان ذلك تقريبًا في نفس الوقت الذي أرسلت فيه ليلى من مصر تخبرها بأنّها قابلت لقمان وقررت الزواج منه.

أحيانًا كثيرة تفكر رباب أن حياتها وليلى تكملان بعضهما بشكلٍ من الأشكال. كأنّ لهما معًا نصيبًا واحدًا عليهما اقتسامه. وحين تركت ليلى عملها في مصر، وحملت فيمن سيصبح بعد ذلك سلمى، كانت رباب قد نحّت حياتها الشخصية جانبًا، واستقرت حياتها كمحامية للدفاع عن حقوق الأقليات. لو كانت قد حملت من ألكس لربما كان طفلها الآن في عمر سلمى. على العموم لم تتزوج رباب ثانية، لكنّها دخلت في علاقة جادة كادت أن تفضي إلى زواج، وكان ذلك في نفس الوقت الذي انفصلت فيه ليلى عن لقمان. كادت العلاقة أن تفضي لزواج، لكن رباب قررت الاحتفاظ باستقلالها، وقد كان. ومن وقتها وهي تعيش وحدها، لا تريد أحدًا يحكم عليها أو يحاسبها ولو معنويًا، وتسأل نفسها خلسة إن كانت قد أخطأت الطريق.

أين ذهب المتخلف عدنان؟ سألت نفسها وهي تنظر في ساعتها. لقد حان موعد إقلاع الطائرة؛ قامت واتجهت للموظفة الجالسة عند مدخل القاعة، وسألتها ببراءة عمّا إذا كانوا يعرفون الآن الموعد النهائي لإقلاع الطائرة المتجهة لنيويورك. نظرت لها الموظفة بارتباك، وسألتها:

– نيويورك؟

حدقتها رباب بنظرة استغباء، وأومأت في صمت. نظرت الموظّفة في شاشة الكمبيوتر، وطلبت منها بطاقة صعود الطائرة. أعطتها رباب البطاقة. نظرت فيها الموظفة بإمعان، ثمّ نظرت للشاشة مرة أخرى. نادت على زميلتها الأكبر سنًا وأرتها البطاقة والشاشة. نظرت لها الموظفة الأكبر في نصف دهشة ونصف استهانة، وقالت ببساطة:

– سيدتي: لقد أقلعت طائرة نيويورك منذ ربع ساعة.

– ماذا؟

– أقلعت. لقد نادينا على الركاب أكثر من مرة.

– لكن الموظفة عند بوابة الرحيل قالت إنها لن تقلع قبل السادسة وخمس وأربعين دقيقة.

– نعم، لكن الطائرة حصلت على تصريح مغادرة المطار قبل ذلك، فنادينا على الركاب وأرسلنا الطائرة. لقد جاء الجميع فلماذا لم تأتِ؟

– لماذا لم آتي؟ لأنّ زميلتك قالت "في السادسة وخمس وأربعين"، والساعة الآن السادسة وأربعين دقيقة!

– نعم، ولكنّ هل تسيرين خلف أيّ كلام يُقال لك؟

– أي كلام؟ هذه موظفة بوابة الرحيل التابعة لكم! أليس من المفترض أن أُصدقها؟

– على العموم الطائرة رحلت.

– والحل؟

– لا أدري، لا يوجد طائرة أخرى لنيويورك الليلة، أول طائرة غدًا في التاسعة صباحًا.

– غدًا! لا يمكن. لديّ ارتباطات في نيويورك الليلة. لا بد من أن أرحل الآن.

– لا أدري كيف يمكن أن ترحلي الآن ياسيدتي؛ لا يوجد طائرات لنيويورك الليلة من هذا المطار.

– ما هذا الكلام؟

– أنا آسفة، لكن لا يُوجد ما يمكن فعله.

قالت ذلك ومضت. ظلّت رباب واقفة في ذهول تنظر للموظفة الأصلية المرتبكة، بينما انهمكت الأكبر سنًا في عمل ما على الكمبيوتر الخاص بها. ما هذا الهراء؟ شعرت بموجة من الغضب تعصف بها، لكنّها تمالكت نفسها.

– سيدتي؛ من فضلك.

– نعم.

– ماذا يُفترض بي أن أفعل الآن؟

– لا أدري، ليس هناك سوى أن تقضي الليلة في واشنطن، وتعودي لنا في الصباح.

– وماذا أفعل في ارتباطاتي بنيويورك؟

– لا أدري. ربّما هناك طائرة أخرى من مطار دالاس.

– هل يمكن أن تتقصّى ذلك؟

– لا، هذه ليست مسئوليتنا.

– كيف؟ أليست مسئوليتكم أنكم ضلّلتم راكبة؟

– سيدتي نحن لم نُضللك. لقد نادينا أكثر من مرة على الركاب، وأنتِ التي لم تستجيبي للنداء. أين كنتِ؟

– أين كنت؟ هل تفترضين أن أجلس هنا طيلة الوقت أترقّب نداءً لا يُفترض فيه أن يأتي؟ لماذا سأنصت لهذه النداءات الغير مفهومة وأنا أعلم – وأنتم قلتم – إن الطائرة لن تُقلع قبل خمس وأربعين دقيقة؟

– لقد جاء الجميع.

– فعلاً؟ ماذا لو كنت صمّاء؟ ماذا لو أن سمعي ثقيل؟ هل تُميّزون في المعاملة ضد ضعاف السمع؟ أليس من حقّ ضعاف السمع ركوب طائراتكم المتأخّرة عن موعدها عندما تقرّرون أن تُبكّروا موعدها مرة أخرى؟

– ليس بوسعي مساعدتك ياسيدتي.

– هل هناك من يمكن أن أقدّم له شكوى؟

– بالطبع، ستجدين بياناته على موقعنا على الإنترنت. والآن، اسمحي لي فلديّ أعمال أخرى.

وتركتها ورحلت. شعرت رباب بالدم يصعد لرأسها. لا يمكن أن يفعلوا هذا! لا يمكن أن يلقوا بها في الشارع هكذا! أين حقوق الراكب؟ طيب، ولنفترض أن خطأً ما قد حدث، ألا يجب على الأقل أن يعتذروا ويتحملوا المسئولية؟ لكن هذه المرأة تتّهمها هي بأنّها أساءت التصرف. الكلبة. خرجت رباب من القاعة، وتوجّهت لمركز خدمة العملاء. انتظرت في الصف الطويل وهي تغلي. بعد ربع ساعة كاملة وصلت للموظف. كان ألطف قليلاً، لكنّه لم يحد عن موقف زميلته. قال الموظف إن سياسة الشركة وبنود التذكرة تحول دون تحمّلها لمسئولية هذا الوضع. لم؟ لأنّ الخطأ من الراكب. كيف؟ عُدنا لقصة النّداء وعدم استجابتها. عليهم اللعنة جميعًا. قررت رباب أنها ستكتب لقسم الشكاوى فيما بعد. لو استطاعت للكمت وجه هذا الموظف حتى يدمى. تركت الموظّف وعادت للقاعة.

دخلت على شبكة الإنترنت تبحث عن طائرة أخرى من مطار دالاس أو عن طائرة أخرى تابعة لشركة أخرى، عن أي شيء يمكن أن يأخذها لنيويورك قبل الثامنة. فجأة تذكرت عدنان؛ لابدّ أن الأخرق لحق بالطائرة، مادام ظلّ ملتصقًا ببوابة الرحيل كالذليل، فلا بد أنه سمع النداء. طبعًا لم يفكر في البحث عنها. لم تجد شيئًا ذا بال على الإنترنت، لا طائرات أخرى في موعد معقول. ماذا تفعل إذًا؟ فجأة خطر ببالها البحث عن القطارات. ربّما تلحق بقطار السابعة والنصف. ستحتفظ بكل

التذاكر والفواتير، وترسلها لشركة الطيران، وإن رفضوا دفعها وتعويضها ستُقاضيهم. هؤلاء الملاعين.

حملت حقيبتها الصغيرة وتوجهت لباب الخروج. نظرت للموظفة الأكبر سنًا ولمحت على وجهها نظرة شماتة. شعرت بحقد دفين على هذه المرأة: كيف يمكن لموظفة أن تكره أحد الركاب هكذا؟ ماذا فعلت لها؟ فكرت في أنها يمكنها أن تقاضيها، لكنّها كانت تعرف أن ذلك عبثًا. لا يمكنها إثبات سوء النية أو الغلظة في المحكمة، ولا حتى في شكوى للشركة. لا يمكنك أن تثبت أن شخصًا يعاملك بكراهية. ليس أمامك إلا تلقّي الكراهية في صمت. وهي تلقّتها، والآن تتلقّى أيضًا نظرة انتصار المرأة الكارهة. تذكرت عدنان وماقاله عن التمييز، وعدم إمكانية منعه بالقضاء فزاد غضبها أكثر، على المرأة الكارهة وعلى عدنان وعلى نفسها. عزّت نفسها بأنّها لن تركب على طائرات هذه الشركة مرة أخرى، وقمعت شكّها في أن ذلك الأمر يمكن أن يتكرّر من أيّ شركة أخرى، وخرجت من القاعة.

ماذا تفعل الآن؟ ليس معها ملابس؛ لأنّ الشركة اللعينة أرسلت حقيبتها على الطائرة. لا يمكنها شراء شيء الآن ولا في الصباح، لا وقت. ماذا ستفعل: تذهب بملابسها للعشاء، ثمّ بنفس الملابس غدًا لاجتماعاتها الهامة؟ لا يمكن أن تدخل قاعة الاجتماعات بالشكل الذي ستكون عليه ملابسها في الصّباح بعد ليلة كهذه. يجب أن تجد مكانًا في نيويورك في الصباح الباكر؛ لتشتري منه شيئًا وترتديه في المحل، وتلحق بموعدها في العاشرة، ثمّ تلحق بالطائرة الذاهبة للوس أنجيلوس. غير مؤكّد أن ينفع هذا

السيناريو. الأمر كلّه مزعج. لعنة الله على الشركة وعلى الفوضى. جال بخاطرها أن مرتكبي هجمات 11 سبتمبر قد يكونون في الأصل ركابًا على متن هذه الشركة اللعينة رحلت طائراتهم بدونهم، وأُسيء معاملتهم، وتحطّم جدول التزاماتهم دون أن يتحمّل أحد المسئولية أو يساعد في إصلاح ما دمرّ، فقرروا اختطاف الطائرات الموجودة وتفجيرها انتقامًا من شركات الطيران. تشعر الآن بغضب يكفي أن تجعلها قادرةً على إيذاء المسئول عمّا يحدث لها لو أمسكت به. لكنّه غير موجود، وربما ليس له وجود فعلي؛ مجرد نظم وقواعد، وأخطاء وأشخاص عديمو التعاطف. ماذا تفعل الآن؟

ستذهب لمحطة القطار الآن، فورًا، قبل أن تفقد رشدها من الغيظ. أنعشتها الفكرة الجديدة. قامت لتخرج نحو موقف التاكسيات، فلمحت عدنان جالسًا على أحد المقاعد في نهاية الصالة. إذن لَمْ يسافر هذا المتخلّف! فكّرت أن تتركه وتمضي، ثمّ عادت وغيّرت رأيها. توجّهت لحيث يجلس، وسألته بالعربية:

– فاتتك الطياره؟

نظر إليها وأشار بيديه أن نعم. سألته عمّ سيفعل؟ فقال إنه غيّر تذكرته ليعود إلى ديترويت مباشرة. وماذا عن العشاء؟ سيتصل بالدكتور درويش ويعتذر له. ولِمَ لا يذهب معها بالقطار؟ لأنّ القطار يصل في منتصف الليل، سيكونُ العشاء قد انتهى، وسيتعيّن عليه السفر في اليوم التالي لديترويت، ومن ثمّ فلا معنى لذهابه هناك. وقفت لحظة أمامه دون أن

تعرف ماذا يمكن أن تقوله. لا تعرف حتى ماذا تريد منه أن يفعل. كلامه منطقي، وهي لا تعرفه، فماذا تريد منه؟ أن يأتي معها؟ لو أراد السّفر معها لكان عليها أن تقلق، فسيكون ذلك أمرًا غريبًا حقًّا. فلم لا تتركه في حاله وتمضي؟ تنظر إليه ولا تعرف ماذا تريد منه أو يريده أن يفعل، تسأل نفسها لم تشغل نفسها به أصلاً ولا تجد إجابة فيزيد ذلك من غضبها عليه وعلى نفسها وعلى شركة الطيران. "كفى اذهبي الآن". قالت لنفسها، أمرت نفسها، فسلّمت عليه مرة أخيرة، وتمنت له التوفيق ومضت نحو باب الخروج تبحث عن التاكسيات.

وجدت تاكسيًا وحيدًا وبه سائق نصف نائم. نادته وركبت، وقالت له بلهجة آمرة: محطة الاتحاد. تحرك التاكسي، وبعد نصف ساعة وصلت المحطة. عندما تحرك القطار برباب شعرت أخيرًا بأنّها تستعيد بعض السيطرة على مجريات الأمور. لكنّها لن تصل نيويورك قبل منتصف الليل. وداعًا لعشاء الدكتور درويش وللقاء سلمى. لن تتمكن حتى من رؤيتها في الغد، حيث سيكون عليها اللّحاق بطائرة لوس أنجلوس وعندما تعود ستكون سلمى قد رحلت. فكّرت في الاتصال والاعتذار؛ لكنّها لم تجد في نفسها من الشجاعة ما يكفي لمواجهة سخط الدكتور الأسطوري النظام. ستتصل به في الغد وتشرح. ستصل محطة بن عند منتصف الليل، وستكون المحطة مهجورة عند ذلك الوقت. ستأخذ تاكسيًا غالبًا ما سيكون الوحيد أمام المحطّة وتذهب لفندقها. ستكون مُنهَكة، ستكون ليلة مُنهِكة؛ أغمضت عينيها كيلا تفكر في كلّ ذلك، ونامت.

8

منتصف الليل في محطة "بن"

عند منتصف الليل، أيِّ بعد نصف ساعة بالضبط، ستبلغ سلمى الواحدة والعشرين. نظرت لساعتها مرة أخرى ولامت نفسها على تأخرها؛ لابد وأنّ جدها غاضب جدًا. لو لم تخطىء في الرصيف لما فاتها قطار الثالثة والنصف، ولوصلت نيويورك في موعدها، وحضرت حفلة عيد ميلادها الذي يُعدُّه لها جدها منذ أسبوعين. لقد دعى الكثيرين، تقريبًا كلّ من له صلة بها في أمريكا، وهو لا يحبُّ عدم الدقة في المواعيد، فما بالك بأربع ساعات فرق! ستصل في منتصف الليل، وسيكون المدعوون قد انصرفوا، وربمّا ذهب جدها نفسه لفراشه. تحمد الله أنه ترك لها نسخة من المفتاح،

فما كانت لتجرؤ على إيقاظه في هذا الوقت المتأخّر. لكن لِمَ تلوم نفسها؟ لقد أربكتها كثرة الأرصفة والتعليمات والإشارات في المَحطة، وهم لا يسمحون للركّاب بالتوجّه للرصيف إلاّ قبل موعد رحيل القطار بعشر دقائق، فيتكدس الجميع عند الأبواب، وإذا أخطأت، مثلما فعلت هي، يكون من الصّعب العودة للمكان الصحيح في الوقت المناسب. ولا أحد تسأله أو يردّ عليك. عندما فهمت أنها على الرصيف الخطأ جريت ناحية الرصيف الصحيح، لكنّ القطار كان قد أغلق أبوابه عندما وصلته. كان واقفًا، وظلت تدق على الباب وهناك مفتش أو محصل يقف داخل القطار وينظر لها مبتسمًا وهو يهز رأسه، ثمّ تحرك القطار وتركها على الرصيف. هكذا. عادت وهي دامعة العينين للصالة الرئيسية ولحسن الحظ وجدت جيسي جالسة في المقهى لم تغادر. شرحت لها بين دموعها ماجرى، وجيسي تربت عليها وتلعن "أبو شركة القطارات" وسلمى تبكي وتضحك، ثمّ أخذتها جيسي لشباك التذاكر واشترت لها تذكرة جديدة للقطار التالي. ادّعت جيسي أنها السبب في تأخير سلمى، ورفضت أن تأخذ ثمن التذكرة.

المشكلة الحقيقية أن القطار التالي يغادر واشنطن في السابعة والنصف، ويصل نيويورك قرب منتصف الليل. فزعت سلمى: "جدي سيقتلني". طمأنتها جيسي وهي تضحك مُؤكِّدة لها أن جدها لن يقتلها، على الأقل ليس بسبب تأخّرها، وقامت بالاتصال به نيابة عنها وشرحت الأمر له. لم يكن سعيدًا، وأدركت جيسي من اقتضابه في الحديث أن الرجل حانق

ويكظم ضيقه. سألها لماذا انتظرت سلمى حتى آخر لحظة؟ لماذا لم ترحل في قطار الصباح أو الظهيرة؟ وكيف فاتها القطار بالضبط؟ ولِمَ فاتها هي بالذات في حين لحق به بقية الركاب؟ وما الذي يضمن أنها ستلحق بالقطار التالي إن كانت المشكلة أنها تخطئ الرصيف؟ استخدمت جيسي كلّ لطفها مع الجد المتبرم حتى أذعن، لكنّه طلب منها أن تخبر سلمى أن حفلة عيد الميلاد قد فسدت بسبب فعلتها، وأنّه مضطر لإخبار الضيوف بذلك، وأنّ تحاول عدم اقتراف مزيدًا من الأخطاء حتى تصل.

– يا الله شو صعب جدك!

– هو إنتِ شفتي حاجه!

جيسي، ياسمين في الأصل، صديقة أبيها، وهي أمريكية من أصل لبناني، مرحة ودافئة وترحابة، وتبدو أصغر بكثير من سنينها الخمسة وأربعين. أخذتها في اليوم الأول لزيارتها في جولة بالسيارة، كي تريها معالم واشنطن العاصمة. جدّها لم يأخذها لأيّ مكان في نُيويورك بل أعطاها خريطة وبطاقة لركوب المترو عند وصولها، وتركها تتجول وحدها. المكان الوحيد الذي اصطحبها إليه كان مُتحف الفن المعاصر حيث شاهدا معرضًا للصور لم تفهم منه شيئًا. غير ذلك تركها مع نفسها، وفي المساء يسألها باقتضاب كيف كان يومها وما إذا كانت جائعة، ثمّ يتركها ويخلد للنوم. أبوها لا يراها إلا قليلاً، لأنّ أمها أصرّت ألا تقيم معه وهو مشغول في المستشفى معظم اليوم.

جيسي أخذتها منذ أول يوم إلى ميدان "ديبون" حيث تعشيا سويًا في مطعم يبيع كتبًا قديمة بجوار الطعام والشراب. وحكت لها حكايتها مع أمريكا منذ هاجر إليها جدّها في أول القرن العشرين، وهو لا يحمل في جيبه غير خمسة عشر دولارًا. هو، الطبيب المحترم في بلدته الصغيرة في لبنان، ترك كلّ شيء ورحل فرارًا من قيود الحكم العثماني وبحثًا عن حياة حرة. قصّت عليها كيف أنه رغم ذلك عندما أراد الزواج عاد إلى لبنانً فتزوج ببنت من قريته، وهو نفس الشيء الذي فعله أبوها.

– كلهم هيك الشباب العرب، يصاحبوا من هون، بس تيجي على الزواج إلا وبدّهم بنت من الضيعة. ياحرام راح يضلوا هيك ما فاهمانين شي!

سألتها عما تقصده فضحكت، وقالت إنها لا تريد إفسادها. سألتها سلمى كيف تشعر بنفسها؛ لبنانية أم أمريكية؟ وما إذا كانت تريد أن تعود يومًا للحياة في لبنان؟ وجيسي تضحك وتقول لها:

– لبنان؟ والله أنا بصحى كلّ يوم، وأحمد الله إنه ماني عايشة بدولة عربية!

وسلمى تحكي لها قصصها هي و"محمود" زميلها بكلية التجارة الذي تحبه، والصعوبات التي تواجهها معه ومع نفسها ومع صديقاتها ومع أبيها ومع أمها، "تناقضات حياة البنات في مصر"، قالت سلمى. أحيانًا تشعر أنها "قريبة من ربنا" وأنّها تودّ أن تقترب منه أكثر، وأن تتوقّف عن كلّ

الأشياء التي يمكن أن تغضبه. وأحيانًا تشعر أن هذه الأمور كلّها مُقيدة. سألتها جيسي أيّ أمور؟ فردت: "كل الأمور، كلّ هذه القواعد. أحيانًا أشعر أني أعيش في سلسلة لا تنتهي من القواعد، وأنّي الوحيدة التي تعيش هكذا". قالت سلمى إن الناس تكسر القواعد طول الوقت، ولكن أمها تتخيّل أن الناس يلتزمون بها. وهي تعلم، وترى صديقاتها، وتعلم إلى أيّ حد يفعلون "كل شيء" ولكن في السر، لكنّها في نفس الوقت لا تريد ذلك، لا تريد أن تغش أمها، أو أن تخون ثقة أبيها، ولا تريد أن تعيش في قفص من حديد. ولا تعرف ماذا تفعل. سكتت طويلًا، ثم أضافت –وكأنها تذيع سرًا– أنها تعرف فتاة في بروكلين، إحدى قريبات خالة أمها أميرة، قالت لها منذ أسبوع إنها تحسدها على بلوغ الواحدة والعشرين. سألتها لم؟ فقالت إنها تنتظر هذا السن بفارغ الصبر كي تترك المنزل وتفرّ من بيت أهلها. شعرت سلمى بالهلع لسماع ذلك، وسألت الفتاة لم؟ فأجابتها تلك بأنها لا تريد أن تكون مسلمة. "تصوّري؟ سألتها لم؟ فقالت لي إنها لا تريد أن تتبع دينًا يجعلها تشعر بالذنب طول الوقت". صمتت سلمى، وربتت جيسي على كتفها في صمت.

سألتها جيسي عن أبيها، وما إذا كان قد حدّثته في كلّ هذا، فحدّثتها عن افتقادها الدائم لأبيها، واشتكت من أنه رغم وجوده بنيويورك هذه الأيام، فإنها لم تتمكّن من رؤيته إلا مرات قليلة. سألتها جيسي بحرص عن أمها، وما إذا كانت بالصّرامة التي تُشاع عنها، فضحكت سلمى وقالت إن أمها مزاجية أكثر منها صارمة. سلمى تحكي وتسأل، وجيسي تدور بها في

واشنطن: أخذتها للبيت الأبيض، والكونجرس، والمحكمة العليا، والنصب التذكاري لأبراهام لنكولن وتوماس جيفرسون، والمقبرة العسكرية بأرلنجتون حيث يرقد بعض ضحايا الحروب الأمريكية العديدة، والبنك الدولي، ومتحف الفضاء، والمتحف التذكاري لضحايا محرقة النازيين، وسلمى سعيدة بكلّ هذه الأشياء التي تسمع عنها طول حياتها وتراها لأول مرة. تمطر جيسي بالأسئلة وجيسي تضحك، وتأخذها لأماكن جديدة وتطعمها وترد على أسئلتها. ثم فجأة حلّ عليها موعد قطار العودة إلى نيويورك، وإلى جدها الصامت وأبيها الغائب، وخريطة المترو. كيف مر الوقت بسرعة هكذا؟ حاولت التفاوض مع جدها بالتليفون كي تبقى فترة أطول، لكنه رفض فورًا. كانت تعلم أن ذلك صعب، فهناك ارتباطات أخرى لها في نيويورك غير حفلة عيد الميلاد: هناك أبوها، وهناك أميرة خالة أمها. عندما فاتها القطار، قررت جيسي أن تأخذها في نزهة إضافية بقارب الكاياك في نهر البوتومك، وطارت سلمى من الفرحة. ركبا سويًا في القارب الضيق واندفعا وسط مياه النهر وسلمى تصرخ من الانطلاق: ليس لديها أدنى فكرة عن التجديف، لكنّها تفعل ما تقوله لها جيسي.

بعد قليل توقّفتا في وسط النهر للاستراحة والتأمل. جميل نهر البوتومك، قالت سلمى، وأومأت جيسي مؤكّدة. تشجّعت سلمى، وسألتها بغتة عن الموضوع الذي لم تجرؤ أن تسألها عنه حتى الآن. قالت بحرص إنها سمعت أمها تتناقش مع أبيها بالتليفون قبل سفرها حول برنامج الرحلة، وأنّ أمها احتدت على أبيها عندما علمت أن سلمى ستقيم عند جيسي في واشنطن وليس عند صديقتها القديمة رباب التي

تبين في آخر لحظة أنها ستكون خارج المدينة، وسألته بغضب كيف يسمح بأن تقيم ابنته عند امرأة غير سوية! سألتها لماذا تقول عنها أمها إنها غير سوية؟ صمتت جيسي لحظات، ثم أجابت بهدوء إن الناس مختلفين فيما يريدون، وإن الانسان يجب عليه أن يعرف ويفعل ما يريده هو ليس ما يريد الآخرون له. ثم أضافت أن بعض الناس – مثل أمها – لا يقبلون بهذه الاختلافات. قالت هذا، ثم طلبت منها بمرح أن تُجدّف كيلا يدور القارب حول نفسه، و لم يعودا لهذا الحديث.

فكرت سلمى أن هذه الرحلة كلّها متناقضات. اقترحها الجد، وعارضتها أمها بشدة، لكنها في النهاية وافقت تحت ضغط حاسم من جدها. تستغرب سلمى علاقة أمها بجدها، وسألتها عن ذلك لكنها لم تحصل على جواب شاف. سألت أمها: "لم لا تذهب لزيارته في نيويورك أبدًا؟" فأجابت الأم إنها لا تحب نيويورك. كيف لا تحبّها وقد عاشت فيها عشر سنوات في النهاية وافقت الأم، لكن بشرط أن تكون سلمى في رعاية الجد، وخالتها أميرة وزوجها، وهما نوعية تختلف تمامًا عن جدها. في نفس الوقت، ورغم وجود أبو سلمى في نيويورك هذه الأيام، فإنّ الأم رفضت رفضًا قاطعًا أن تقيم عنده، وكان لها ما أرادت، وأصبحت سلمى تراه وتخرج معه، لكنها لا تقيم معه. لم يستسلم الجميع لأمها هكذا؟ ولم يستسلم الأب لها حتى بعد طلاقهما؟ تودّ لو تسأله لكنها لا تجرؤ. فكرت في أن تسأل جيسي، فهي صديقته، لكنّها لم تجرؤ أيضًا. فكرت أن تسأل خالة أمها، طنط أميرة، لكنّها شديدة الالتزام بالأصول والتقاليد، ولن تجيبها.

أوقفت جيسي سيارتها أمام "محطة الوحدة" فأفاقت سلمى من أفكارها السارحة. دخلتا المحطة وجلستا في المقهى الرئيسي ببهو المحطة من جديد حتى جاء موعد القطار. عانقتها جيسي، ومشت معها حتى آخر نقطة مُمكنة ولوّحت لها وهي تمضي نحو رصيف قطارها. سلمى أحبت جيْسي، لكنّها تخاف. تحب أن تكون مثل جيسي عندما تكبر: قوية ومستقلّة، لكنّها لا تريد أن تكون "غير سوية". تريد أن يجعلها تميّزها محبوبة أكثر، لا أن يتهامس الناس من خلف ظهرها. وتريد أن تنجب أطفالاً، لا أن ينتهي بها الأمر وحيدة مثل جيسي. لكنّها أحبت أيامها الثلاثة معها، ومرّوا كأنهم حلم. وهي الآن تفيق شيئًا فشيئًا لتجد نفسها في عربة القطار شبه الخاوية هذه، والليل يقارب على منتصفه وهي على بلوغ الواحدة والعشرين. ستصل لمحطة بنسلفانيا في نيويورك في الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة. اتصلت بجدها مرتين في الطريق؛ حدّثها مرة ولم يرد في المرة الثانية. ربما يكون مشغولاً مع المدعوين. تشعر بالأسف الآن أنها فوتت حفلة عيد ميلادها؛ مسكين جدّها، تجشّم كلّ هذا العناء من أجلها وهي بتخلّفها تسبّبت في إفساد الليلة. اتصلت أيضًا بخالة أمها، أميرة، التي حذّرتها من المحطّة في هذا الوقت، فهي تفرغ من مرتاديها وموظفيها وتستقطب المتسكّعين والسّكارى. حتى سيارات الأجرة لا تنتظر أمام المحطة في هذه الساعة لقلّة القادمين. نصحتها بالخروج من رصيف القطار إلى الباب الرئيسي في منتصف صالة المحطة، لأنّ الأبواب الأخرى تغلق قبل منتصف الليل. ستفعل ذلك، سيكون كلّ شيء على مايرام، هكذا قالت في سرها، لكنها تلوم نفسها: كيف اقترفت مثل هذا الخطأ السّخيف؟

أثناء إقامتها مع خالة أمها ببروكلين أخذتها للمسجد الذي يؤمه زوجها الشيخ داوود، وعرفتها على بعض الفتيات العرب ممن يدرسن بأمريكا. في طريق العودة سألتها طنط أميرة عمّا إذا كانت أمريكا قد أعجبتها، ولمّا أجابت بالإيجاب قالت لها إن أمريكا بلد جميل ومليء بالنعم التي لا يقدّرها أهلها. سألتها عن جامعتها بالقاهرة، وأردفت بعد أن استمعت بإمعان لرد سلمى أنه من الخسارة ألاّ تدرس بأمريكا حيث الفُرص متاحة للتعلّم بلا حدود، وحكت لها عن مصريين يعيشون بأمريكا، ويدرسون ويقومون بأشياء مذهلة بعد ذلك خدمةً لأهلهم ووطنهم وأمتهم. تدخّل الشيخ داوود في الحديث شارحًا:

– فيه ناس فاكرة إنه علشان أمريكا مش بلد مسلمة يبقى مفيهاش مكان للمسلمين، بالعكس، دي أرض الله قطعها لعباده، والمفروض المسلمين يعمّروها زي أيّ شعب تاني ما بيعمل. بصي حواليك تلاقي كلّ الجنسيات ما شاء الله، وناس من كلّ ملّة بتبني وتخترع وتعمّر، ليه المسلمون يعزلوا أنفسهم!

سألتها الخالة مباشرة إن كانت قد فكّرت في البقاء واستكمال دراستها بأمريكا، وما إذا كانت تعتقد أن أمها ستوافق. طنط أميرة تعلم تحفّظات أمها على الحياة في أمريكا، هي التي تركت أمريكا طواعية، وعادت لتستقر بمصر. صمتت سلمى وهي تفكر، لم غيرت طنط أميرة من موقفها: في البدء عارضت مجيئها لأمريكا، والآن تريدها أن تستقر بها! أعادت أميرة السؤال، فردّت سلمى أنها فكّرت في ذلك، ثم صمتت. كانت

المحادثة تدور في السيارة وسلمى ذاهبة مع أهل أمها في نزهة أثناء نهاية الأسبوع الذي تقضيه عندهم ببروكلين وفقًا لما اتفقت عليه أمها مع الجد. كلّ شيء مُعقّد مع هذه الأم، كلّ خطوة بمناقشات ومفاوضات. السيارة تعبر جسر بروكلين، وقطرات مطر خفيف تتناثر على زجاج السيارة، وصوت واعظ ما يأتي من جهاز التسجيل مُتحدثًا عن فضائل الجهاد. بدا التوتر على داوود وهو يقود السيارة، قرّب رأسه من زجاج السيارة كي يرى:

– أجيبلك النضارة يا بابا؟

– أيوه الله يخليك؛ مش عايزين البنت تفتكرني بسوق وحش!

ابتسم وابتسمت أميرة. شغّل داوود مساحات السيارة، فأخذت تُصدر ذلك الصوت الرتيب لمسح زجاج غير مبلّل بالكامل. صوت الواعظ يأتي من جهاز التسجيل، وذراع طنط أميرة يحيط بكتفها. شعرت سلمى بالاختناق:

– ما أفتكرش ماما توافق، ولا بابا، وبعدين دي أكيد مكلّفة قوي.

– إنتِ تقديرك كان إيه في الجامعة السنة دي؟

أجابتها سلمى بأنها حصلت على تقدير "امتياز" هذه السنة أيضًا، فحيتها أميرة على تفوقها وهي تربت على كتفها. ثم أردفت أنه قد يكون من الممكن تدبير منحة دراسية لها لدراسة الماجستير في أمريكا إن أرادت،

وأنّ هناك جمعية خيرية تُقدّم مثل هذه المنح يعرف الشيخ داوود القائمين على أمرها، ويمكنه مساعدتها في الحصول على إحدى منحها مادامت درجاتها بهذا المستوى. سيكون عليها أن "تلتزم دينيًا" بعض الشيء، لكن في المقابل ستتكفّل الجمعية بكلّ مصروفاتها حتى تتخرج، وتساعدها في العثور على عمل، والاستقرار بأمريكا: "ده أنا كمان عندي ليك عريس، والله شاب زي القمر وابن ناس، ومولود هنا وملتزم. وحاتاخدي الجنسية. بس لما تكبري شوية. يعني ممكن نفكّر في خطوبة آخر السنة، وبعدين تبقوا تتجوزوا لما تتخرجي"، قالت، وغمزتها في جنبها. شكرتها سلمى باقتضاب، لكن طنط أميرة ألحت عليها أن تفكر مليًا، وأردفت أنها ستُحدّث أمها عن الموضوع.

توقف القطار مرة أخرى، ودققت سلمى عبر الشباك فرأت يافطة كبيرة تقول "محطة بن" – اختصارًا لبنسلفانيا. جذبت حقيبة ظهرها وخرجت بسرعة من عربة القطار، وسارت على الرصيف في ثبات باتجاه علامة الخروج. رحل القطار في الاتجاه المضاد، وشعرت بلفحة الهواء تدفعها قليلًا، وابتسمت لنفسها في ثقة: "أنا في أمريكا، وحدي، في محطة قطار. أتنقّل بين واشنطن ونيويورك وحدي، أُعدّ أغراضي بنفسي وأنظّم تذاكري ونقودي، وأمشي وفقًا لخريطة، وألتقي بأناس لم أقابلهم من قبل، وأنتقل من بلد لآخر، ومن مطار لآخر، ومن محطة لأخرى. أمشي بجوار القطارات المسافرة التي تلفحني بهوائها، أعبر شوارع لم أرها من قبل، وأتحدّث مع أجانب بلغتهم. أين أنا من تلك الطفلة الخائفة التي تمسكها أمها من يدها، وتقودها من باب السيارة حتى باب المدرسة؟!" ابتسمت

لنفسها راضية، وشعرت بموجة من القوة تجتاحها. أخرجت "الآي بود" من حقيبتها، ووضعت سمّاعاته البيضاء الصغيرة في أذنيها، واستأنفت الاستماع لفرقة "وسط البلد" التي تحبّها. بدت إشارات الصّالة الرئيسية للمحطة مختلفة بعض الشيء عن يوم ركبت القطار إلى واشنطن. توقّفت لتتأكد من صحّة الاتجاه الذي ستأخذه. أحكمت إغلاق معطفها الرمادي، وتوجّهت نحو الباب الرئيسي. لفحها الهواء عند الخروج، ولكنّها وجدت تاكسيًا واقفًا ينتظر، فتوجهت إليه مباشرة وفتحت الباب وهي تُحيّي السائق بهزة من رأسها -كما قالت لها جيسي أن تفعل- ودخلت:

– تقاطع 79 مع ريفرسايد من فضلك.

– هه؟

– شارع 79 مع طريق ريفرسايد!

– أين هذا؟

– أين هذا؟ في مانهاتن! الجانب الغربي!

– مانهاتن! آنسة، نحن في نيوجيرسي.

– نيوجيرسي! كيف؟ أليست هذه محطة بِن؟

– نعم، محطة بِن نيوجيرسي. كان يجب أن تهبطي في المحطة القادمة، بِن نيويورك.

– فعلاً؟ لماذا تحمل محطتان نفس الاسم؟ طيب، ممكن توصلني، وسأدفع لك ما يحدّده العداد؟

– لا ياآنسة، هذه تكلفة كبيرة، وليس لدي الوقت للذهاب والعودة، ولن أجد من يريد العودة معي. الأفضل أن تأخذي القطار مرة أخرى؛ إنها محطة قطار واحدة.

غادرت التاكسي متكدّرة، وقد تبخّر إحساسها بالرضا وبالشجاعة. تلوم نفسها مرة أخرى: "كيف يمكن أن أكون بهذا الغباء؟" المحطة الغريبة تبدو الآن مهجورة تمامًا. ذهبت لشباك التذاكر الوحيد المضاء، وسألت السيدة القابعة خلفه عن القطار التالي لمحطة "بن نيويورك"، فقالت لها إن القطار آت بعد خمس دقائق وهو الأخير. ونبّهتها إلى أن تسرع لأنّ المحطة ستُغلق عند رحيله. اشترت تذكرة بسرعة، وسألتها عن الرصيف الذي سيتوقّف عنده القطار فأشارت إلى الزاوية الأخرى من الصالة. بدت لها الزاوية مظلمة تمامًا، فأعادت السؤال عن المكان تحديدًا لكنها لم تسمع ما غمغمت به السيدة من خلف الحاجز الزجاجي السميك للشباك. كرّرت السؤال، لكن السيدة تظاهرت بعدم الانتباه وتجنبت النظر إليها. وقفت سلمى لحظة تنتظر لكن السيدة واصلت تجنب النظر إليها وبدأت تجمع أوراقها. تحركت سلمى في الاتجاه الذي أشارت إليه السيدة. محال الأطعمة السريعة كلّها أغلقت تاركة بعض الإضاءة لكن الناس رحلوا. كشك الجرائد، الصيدلية، ومحال أخرى مُبهمة الغرض، كلّها أغلقت وبدت المحطة موحشة وتشبه أماكن وقوع جرائم القتل والاغتصاب في

الأفلام. وصلت لزاوية الصالة، ورأت علامة ترشد لمكان الرصيف، لكنّها ليست متأكدة من أنه الرصيف الصحيح. نظرت لتذكرتها لكن نظرتها المرتبكة ارتطمت بأرقام كثيرة، ولم تستطع تمييز رقم الرصيف من رقم القطار من رقم التذكرة من رقم البائعة. سارت حيث تشير اللافتة في ممر ينتهي بسلم مظلم تمامًا. ارتجف قلبها قليلاً وهي تخطو على أول السلم، وتدعو في سرها أن يكون هذا هو الطريق الصحيح. لم يبق سوى بضع دقائق، ولو فاتها القطار الأخير فكيف تعود لبيت جدها؟ وأين تذهب في هذه الحالة؟ وكيف تقضي الليلة؟ عند منتصف السلم سمعت أصواتًا عالية آتية من خلفها. التفتت تلقائيًا، فوجدت أربعة شباب يتصايحون ويتدافعون في أعلى السلم. الأربعة ضخام الجثة يرتدون فانلات واسعة عليها أرقام لاعبين بالخط العريض، وسراويلهم تتدلّى تحت الخصر. أحدهم – مفتول العضلات – ويغطي رأسه في منديل أسود كقائدي الدراجات النارية، والثلاثة الآخرون تتدلّى شعورهم على أكتافهم. نادوا عليها. غاص قلبها ولم ترد. "لم يكن ينقصني إلا هذا!" وضعت يدها تلقائيًا على السماعة اليمنى في أذنها كأنّما لتنبهّهم أنها لا تسمعهم، وحثت الخطى حتى وصلت لنهاية السلم. تسمع نداءات الأربعة، وضحكاتهم الصاخبة من ورائها:

– ياكتكوتة، هل ضللتي الطريق لأمك؟

– تعالي. سنمنحك توصيلة مجانية.

– تعالي لا تخيفك عضلاته، إنه أليف!

تسرع أكثر باتجاه الرصيف. وصلت لحاجز التذاكر. مازالت غير متأكدة من أن هذا هو الرصيف الصحيح، لكنها لم تجد أحدًا تسأله أو علامة تدلها، فأخرجت التذكرة ووضعتها في الماكينة، وعبرت الحاجز في نفس اللحظة التي قفز فيها الأربعة فوق الحواجز الأخرى المحيطة بها. تظاهرت بأنّها لا تعيرهم انتباهًا، وسارت باتجاه الرصيف والأربعة يسيرون من حولها يتصايحون ويشيرون لها بحركات لا تفهمها. التفتت فوجدت رجلي شرطة آتيان خلف حواجز التذاكرَ التي عبرتها لتوها. تنفّست الصعداء وعادت مسرعة باتجاههم. عبرت حاجز الخروج وتوجهت إليهما. لم يتبعها أي من الأربعة.

– من فضلك.

لم يرد أي من الشرطيين اللذين كانا يتحدثان. فاقتربت منهما أكثر حتى وقفت أمامها:

– من فضلك.

نظرا إليها. بدأت تقول لهما إنها ضلت الطريق، وإنّها تريد العودة لمحطة بن في نيويورك، وإنّها مصرية، وإن هناك شباب يخيفونها، وإنّها لا تعرف أين سيقف القطار الأخير القادم، فتسارعت أنفاسها واختنق صوتها. ابتسم أحد الشرطيين، وقال لها بلهجة محايدة:

– آنسة: لماذا لا تتنحين جانبًا حتى تتمالكي نفسك، ثم تقولين لنا ماذا تريدين؟

ثم واصل الحديث مع زميله. نظرت ناحية الرصيف. كان الشباب الأربعة واقفين ينظرون لها ويضحكون. صمتت لحظة وتنفّست بعمق. قالت لها أمها ذات مرة إن الهدوء أهم شيء في هذه المواقف. استجمعت ما استطاعت من هدوء، وقررت التركيز على الموضوع الأهم. واضح أن الشرطيين لن يأخذاها للبيت. إذن المهم هو العثور على القطار الصحيح، وربما دَفْعهما لمرافقتها حتى باب القطار.

– أنا تائهة، وأبحث عن القطار الذاهب لمحطة بِن بنيويورك. هل يمكنكما مساعدتي؟

–آه، الآن تقولين كلامًا مفهومًا. نعم، هذا هو الرصيف الذي خرجت منه لتوك. عودي إلى هناك بسرعة، وانتبهي لأنَّ المحطة أغلقت. فهذا هو آخر قطار يدخل أو يخرج من المحطة اليوم.

– هل يمكنكما مرافقتي؟ أنا خائفة من هؤلاء الأربعة على الرصيف.

– لماذا؟ ماذا فعلوا؟ هل هدّدك أحدهم؟ هل تريدين تحرير شكوى؟

– لا، أريد فقط العودة لنيويورك، ولكنّهم يخيفونني.

– أنا لا أفهم لماذا يخيفونك إن لم يكن أحدٌ منهم قد هدّدك. ألأنّهم سود؟

كان الشرطي أسود البشرة.

– أبدًا، لكن حركاتهم وإشاراتهم لي تخيف...

– آنسة! ماذا تقترحين أن نفعل؟ نوفّر لك حراسة خاصة حتى تصلين للبيت!

وهنا اختنق صوتها مرة أخرى في حين تصاعدت الضجّة الآتية من ناحية الرصيف. التفتت فشاهدت مقّدمة القطار تدخل بداية الرصيف. نظر إليها الشرطيان في مزيج من التعجب والاستخفاف. نظرت إلى الأربعة الذين كانوا يشيرون لُها أن تسرع للحاق بالقطار. تمهّل القطار بجوار الرصيف، وتوقّف ثم انفتحت أبوابه. تلفتت بين الشرطيين اللذين عاودا المسير وبين الشباب الأربعة، وهرعت نحو القطار. رفض حاجز التذاكر قبول تذكرتها التي استعملتها منذ دقائق فقفزت بحقيبتها من فوقه دون تفكير، وجرت ناحية القطار. صفّق لها الشباب الأربعة الذين كانوا مازالوا واقفين يشجّعونها. سمعت أحد الشرطيين يناديها مستنكرًا، لكنها كانت قد وصلت لباب القطار ودخلت. دخل وراءها الشباب الأربعة وانغلق الباب، وتحرك القطار بسرعة مثلما جاء.

كانت العربة شبه خاوية فيما عدا الشباب الأربعة الذين جلس ثلاثة منهم حولها ووقف الرابع بجوارهم. مسحت بطرف عينها الركّاب الجالسين بالعربة فلم تجد سوى ثلاثة. في منتصف العربة رجل طاعن في السن زائغ النظرات، يبدو وكأنّ الحياة قد حطّمته بشكل ما. في آخر العربة رجلان في أسمال بالية يجلس كلّ منهما وحده، ويُمسك أحدهما بزجاجة في كيس ورقي يحتسي منها رشفة كلّ نصف دقيقة. أخرجت تليفونها بارتباك، واتصلت بجدها مرة أخرى. الجرس يدق. تنظر للشباب بطرف عينها وهي تتظاهر بالثبات، وتحثّ الجد العجوز على الرد.

– جدو!

– أهلاً يا سلمى.

– بص أنا حصلت لي مصايب من ساعة ماكلمتك آخر مرة.

– مصايب مرة واحدة! أنتِ فين؟

قصّت سلمى عليه القصة بسرعة، فطلب منها أن تهدأ، لأن معظم هذه المخاوف أوهام تتراءى للفتاة عندما تكون وحيدة في محطة قطار أو في صُحبة مجموعة شباب.

– تصرّفي بشكلٍ طبيعي، وسيتصرفوا معك بشكل طبيعي.

– طبيعي؟ لأ، أنت مش فاهم، دول مرعبين.

– علشان سود؟

– سود إيه ياجدو! أنا مش متخلفة: دول بجد مرعبين. أنا خايفة قوي.

– ماتخافيش يابنتي. ياللا متبقيش عيلة. كلّها خمس دقايق وتوصلي محطة بن. خدي "تاكسي" وتعالي على طول.

طلبت خالة أمها. دقّ الجرس مرة، وجاء صوت الخالة أميرة:

– أيوة يا حبيبتي أنتِ فين؟ قلقتيني عليكِ؟ أنتِ لسة ماوصلتيش؟

– طنط أميرة: أنا خايفة!

أخذت أميرة تُهدىء من روعها. بعد لحظات من البكاء والنهنهة استكانت سلمى، وأخبرتها بما يحدث. تشعر على الفور أنها تفهمها؛ لا تحتاج للشرح مثلما الحال مع الشرطيين، أو حتى مع جدها. تقول لها أربع شباب ضخام، فتفهم على الفور نوع الخطر. تقول لها إن المحطة مظلمة، فتعرف تمامًا كيف تشعر. نصحتها بأقصى درجات الحذر، فهي لا تعرف ما يريده بها هؤلاء الشباب الذي لا ضابط لهم ولا رادع.

– يعني أعمل إيه؟

– ماتخليش حد منهم يهّوب ناحيتك. لو حد منهم لمسك اضربيه بأي حاجة معاكي في أكتر مكان حساس تلاقيه قدامك. لا تخافي ولا تتردّدي. اضربيه واصرخي بأعلى صوتك "حريقة" وشدي الايد الحمرا بتاعة الطوارىء. اعملي كلّ ده في نفس الوقت وماتخافيش. الباقيين حايخافوا ويبجروا، دول كلهم جبنا.

– حاضر. لو حد عملي حاجه هاعمل كدة.

– ماتستنيش حد يعملك حاجة يابنتي. لو حد بس حط إيده عليكِ اعملي كدة. لو حسّوا أنك ضعيفة مش حايرحموك. الحاجات مافيهاش هذار. لو اترددتي حاتفضلي طول عمرك تندمي. أنتِ مامعاكيش البخاخة؟

– بخاخة إيه؟

– والله مش عارفه إزاي أبوكِ وجدك سايبينك تمشي كدة!

– طيب ياطنط ....

ثم مات التليفون. نظرت له وأدركت أن البطارية فرغت، وشعرت بمزيد من القلق. عجلات العربة تهتزّ بشدة، ويصخب صوت القطار وهو يدخل في أنفاق بدت لسلمى غاية في الضيق. الأربعة يتحدثون مع بعضهم ويحدثونها، ويشيرون بأيديهم وأذرعهم بإيقاع متسارع وهي ترفع من صوت الموسيقى في أذنيها. لا تسمع كلّ ما يقولونه، لكنّها تميز ألفاظًا نابية وإشارات جنسية من حين لآخر. هكذا رأت هذه الإشارات في الأفلام – عادة قُبل أن يهاجم المجرم ضحيّته. موسيقى "وسط البلد" انتهت، وحلّت محلها فرقة البلاك بيز تطنّ في أذنيها، ودموعها تنسكب داخلها هلعًا وهي تتساءل عمّا سيحدث لها الآن: هل سيأخذون نقودها أم الكاميرا أم الحقيبة كلها؟ أم سيخطفونها أو يغتصبونها؟ أم سيقتلونها؟ أم سيفعلون ذلك كلّه بهذا الترتيب؟ كان معها نقود كثيرة، حوالي خمسمائة دولار، هي بقية المال الذي أعطاه لها أبوها. حملته معها من نيويورك لواشنطن لكنها لم تحتج لانفاقه هناك. فكرت أن تعطيهم المبلغ لعلّهم يتركونها في حالها. لكن ماذا لو ظنّوا أن معها أكثر؟ يمكن إذن أن تعطيهم الحقيبة كلّها من الأول. ولكن ماذا عن الكاميرا والصّور التي التقطتها خلال الرحلة كلها؟ أتعود لمصر بلا صورة واحدة؟ لن يصدّقها أحد إن قالت لهم إن الصور كلّها قد سُرقت. "لا يهم"، قالت لنفسها: "اللعنة على الصور، وعلى كلّ هذه الرحلة. ماذا أتى بي إلى أمريكا أصلاً؟ لماذا

لم أقضي الأجازة في الساحل الشمالي مع أمي؟ كان محمود على حق حين ثار وغضب منّي. قال لي إن حديثي عن اكتشاف العالم ورؤية أمريكا، والثقافة المختلفة محض هراء، وإنّه كان يجب أن أنتظر حتى نسافر سويًا أنا وهو، ثم سألني إن كانت أمي تُؤيّد سفري أم أنها فكرة الأب؟ لم أرد. قال لي إنه لو كان مكان أبي ماترك ابنته تسافر وحدها.

ربما لم يكن أبي ليتركني، لكنّي تعلّقت بالفكرة عندما ذكرها جدي لأمي في التليفون، وألححت عليها وعليه حتى وافقا. ماذا لو حاول هؤلاء الوحوش اغتصابي الآن؟ لن يوقفهم أحد من هؤلاء الثلاثة الجالسين في نهاية العربة: هم بالكاد يتمالكون أنفسهم. هل أستطيع مقاومتهم لو هجموا عليّ؟ ربما لو فعلت ما قالته طنط أميرة وضربت واحدًا منهم بشدة في مكان حساس لخاف الآخرون وانصرفوا لكن ماذا لو لم ينصرفوا؟ ماذا لو كانوا يعبثون وليس في نيتهم أن يفعلوا بي شيئًا حقيقيًا؟ ربما يستخفّون دمهم أو يريدون إخافتي. ماذا لو هجموا عليّ وقيدوني قبل أن يفعلوا بي شيئًا؟ قالت لي أمي ذات مرة إن البنت لا يمكن اغتصابها لو قاومت بشدّة، بمجرد أن تضم عضلاتها بشدّة وترفض. لكن ماذا لو ضربوني حتى أفقد السيطرة على عضلاتي؟ ماذا لو فعلوا شيئًا يجعل عضلاتي تنفكّ من تلقاء نفسها؟ كيف لي أن أعرف ما يمكن أن يفعله بي هؤلاء؟ لابد وأنهم يعرفون طرقًا تجعل البنت تستسلم. هل أستسلم أفضل من البداية؟ إذا كانوا سيغتصبونني في كلّ حال، ألا يكون من الأفضل أن أفعل ذلك طواعية – ربما لا يؤذونني عندها؟ ربما يمكنني أن أغرر بهم وأتظاهر بالموافقة، كي أكسب وقتًا حتى تسنح لي فرصة للهرب.

ولكن لو فعلت ذلك ثم لم أستطع الهرب، فماذا يجعلني هذا؟ أليس من الأفضل أن أقاوم؟ على الأقل أكون قد حاولت. كيف أواجه أهلي وأصدقائي بعد ذلك؟ ماذا سيكون ردّ فعل أبي؟ ربما سيواسيني ويقول لي إنها تجربة يجب أن أتعلّم منها! ماذا ستقول طنط أميرة وزوجها اللذان استنكرا سفري لواشنطن وحدي؟ ياليتني سمعت كلامهما.

ومحمود: هل سيقبل بي بعد هذا أم سيتركني؟ وحتى لو لم يتركني، كيف أظلّ أنا معه وأنا أعلم فيم يفكّر؟ وصديقاتي بالجامعة: ماذا سيقلن عني من وراء ظهري؟ لا، لا أستطيع أن أعيش بعد ذلك، خير لي أن أقاومهم حتى يقتلوني".

يغوص قلبها أكثر مع كلّ ثانية تمر، وتشعر بضعفها أكثر، وتريد أن تنهار باكية، وأن ترجوهم أن يتركوها تذهب في حال سبيلها. لكنّها تتظاهر بالثبات وتنظر أمامها وكأنهم غير موجودين. وهم يهتاجون أكثر إزاء تجاهلها لهم، ويتحوّل مرحهم لضيق ثم غضب. تدعو الله في سرها ألاّ يلمسها أحد. وضع واحد منهم يده على حقيبتها فوجهت له نظرة حادة فتظاهر بالخوف ساخرًا. تدعو ألا يلمسها. لو لمسها ماذا ستفعل؟ هل ستضربه فعلاً؟ هل ستقوى؟ أم تفوّت أول مرة. لكنّها لو فوتت أول مرة سيتمادى، وبعدها سيفوت الوقت. هذا ماقالته طنط أميرة. تدعو الله ألاّ يلمسها وهي تضع يدها في جيب المعطف، وتمسك بقلمها وكأنه سكين.

أبقت يدها في جيبها. القطار يقترب من محطة ما ليست متأكّدة أنها

"بن نيويورك". نظرت بطرف عينها لرصيف المحطة في حين تحرك ناحيتها مفتول العضلات فجأة، ووضع ذراعه حول كتفها وتمتم شيئًا في أذنها لم تسمعه. تراجعت بكتفها لكنّه أحكم قبضته عليها. لم يعد هناك مجال للشك. لابد أن تفعل شيئًا وفورًا. اقترب بوجهه من وجهها فأخرجت يدها من جيبها، وبقوة غضبها وخوفها معًا غرست القلم في وجهه، لا تدري أين استقرّ على وجه التحديد. دخل القطار المحطّة في نفس اللحظة التي صرخ فيها الفتى وهوى على الأرض ممسكًا بوجهه، ولمحت دمًا ينبثق. الثلاثة الآخرون ينظرون لزميلهم الواقع على الأرض في مزيج من البلاهة والصدمة. قفزت من باب القطار الذي انفتح وجرت وهي ترنو لاسم المحطة: ليست "بن نيويورك". جرت على الرصيف وحدها، ثمّ سمعتهم يصرخون ويسبونها. سمعت صوت إنذار إغلاق الباب فقفزت داخل العربة التي وجدتها بجانبها، وانغلق الباب قبل أن يصل الأربعة إليها. أخذوا يدقّون على زجاج الباب بصوت عال ويتوعّدونها والفتى الجريح يضع يده على عينه، ويغطّي الدم وجهه. نظرت إليهم والدموع تصعد لعينيها، وودّت لو استطاعت ركلهم في بطونهم حتى يسقطون ألمًا. أشارت لهم بإصبعها بالحركة النابية الوحيدة التي تعرفها، وهي واقفة بينها وبينهم زجاج نافذة القطار. تسمع وعيدهم وسبابهم من شرّاعة النافذة المفتوحة. مدّت يدها تحاول إغلاق الشرّاعة، وفي نفس اللحظة شعرت بشيء حاد يشقّ وجهها، ولمحت نصلاً يلمع وينعكس لمعانه في زجاج النافذة. طوى القطار المحطّة وهي تنظر نحو الفتى الواقف على الرصيف، ونصله مُدلّى إلى جانبه، واثنان من أصدقائه يجرّان زميلهما الجريح خلفه.

لن تنسى هذا المشهد بقية حياتها. مدّت يدها في تردّد نحو الجرح في وجهها، وهي تخاف أن تنظر في زجاج النافذة. دخل القطار في نفق مظلم آخر. الدم يغطّي خدها: تشعر به لزجًا ثقيلاً ودافئًا يكسو وجهها شيئًا فشيئًا. مسحته بطرف كمها دون تفكير، وحاولت تبين الخريطة المرسومة على أحد جوانب القطار. محطة بِن نيويورك هي القادمة. العربة خالية من الركاب تمامًا. جلست وانكمشت في مقعدها تنظر من النافذة لجدار النفق، ثم للقضبان بلا هدف وهي تحاول تجاهل الدم السائل من وجهها، لكن تدفّق الدم يتزايد. هدّأ القطار من سرعته ودخل المحطة. بدت يافطة كبيرة تعلن "محطة بِن". قامت بسرعة فشعرت بدوار. استندت للعامود المعدني المجاور للباب. توقّف القطار، فخرجت للرصيف على التو، وبدأت تركض ناحية الصالة الرئيسية.

تحرك القطار ولفحها هواؤه، لكنّها لم تعد تشعر بغبطة أو بغضب، فقط بدوار يتزايد. جال بخاطرها أن الساعة تشرف ولابد على منتصف الليل، وأنّها ستبلغ الآن الواحدة والعشرين، ذلك السنّ السحري الذي كانت لا تصدّق أنها يمكن أن تبلغه في يوم من الأيام. ربما كانت محقّة ولن تبلغه؛ ستسقط الآن من الدوار، ومن هذا النزيف الذي لا يتوقف. قُواها تخور بسرعة، ولا تعرف ماذا سيحدث لها بعد هذه اللحظة. ربما أمكنها التوقّف عن الركض، والعثور على تليفون والاتصال بجدها، أو بالخالة أميرة، لكنّهما لن يسعفهما الوقت ليأتيا. ستسقط الآن ولا ريب، ربما فوق القضبان أو بجوار القطار الواقف أو على الأرض. وسيلتقطها مجرم ما ويقطّعها إربًا ويبيعها أعضاءً، وربما يغتصبها قبل ذلك. هذه هي النهاية إذًا.

أتت كلّ هذه المسافة كي تنتهي هنا، جُثّة مُلقاة على رصيف محطة "بن" في الواحدة والعشرين. توقّفت عن الركض، أو هكذا خُيّلِ لها، وحاولت النظر كي تجد مكان الخروج، لكنّها لا ترى سوى أشكالاً هائمة وأضواء متباينة. ثوانٍ ثم غامت الدنيا في عينيها، وسقطت على الأرض.